

فهـــرس العـــدد

تصحيح مفاهيم

اننا فى هذه المرحلة من تطورنا الثقافى والاجتماعى فى حاجة الى أن نفكر فى ذاتنا وفى الاخرين تفكيرا صحيحا ، وأن نستعد وسط هذا الخضم من الشعارات المختلفة ، بعض المسافة ... بعض الابتعاد لكى نتخلص من طغيانها الاسر ، ولكى نعبر دون خوف من العواقب التكتيكية عن رؤية للمعركة ذاتها فى شموليتها .

ينبغى أن نتسلح بالموضوعية الصارمة لكشف المظاهر السلبية فى تفكيرنا وموقفنا ، دون أن تسيطر علينا المخططات المبسطة للمعركة الحضارية الشاملة التى نقوم بها ودون أن نخشى اللعنة من أى كان .

منذ صدمتنا الاولى .. صدمة اللقاء بحضارة الغرب وثقافته ، ونحن نتساءل عن سبب تأخرنا وتخلفنا . كان هناك سؤال واحد ، ولكن الاجابات كانت متعددة .

وأيا كان مضمون هذه الاجابات ، فالثابت فى رأيى ، أنها ما تزال حتى اليوم تلون الواقع الاديولوجى والثقافى العربى عامة ، وتفسر الكثير من الصراعات الفكرية التى تدور رحاها اليوم فى البلاد العربية ، وتلون حتى الابنية الاجتماعية نفسها ، وتلعب دورا لا يستهان به أحيانا فى اعاقة تطورها .

ولعل أحد هذه المفاهيم التى تمثل أحد الاجوبة عن السؤال التقليدى : من « نحن » ومن هو : « الآخر » يأتى هذا المفهوم الذى يدعو الى « الاكتفاء الذاتى » فى ميدان الثقافة أو ما يمكن أن نعبر عنه بالعزلة الثقافية أو « الريفية الفكرية » — ان صح التعبير — : فهناك رضا عام بالنفس ، وبالعادات والسلوك .. رضا يتراوح بين مجرد القناعة البريئة بما نملكه من هذه العادات وأنماط السلوك والتفكير ، وبين الزهد

عثمان شبوب

الفكرى والنفسى الذى تأصل فينا عبر قرون من الفقر الثقافى والعزلة الثقافية عن ثقافات الامم الاخرى .

ورغم الآفاق التى فتحت لنقلنا الى الحياة المعاصرة : من حركات ترجمة وتأليف وتعليم ، فلم تهب علينا ريح من رياح الثقافة المعاصرة الغنية ، ولم يزل فكرنا باستثناءات قليلة هنا وهناك يجتر زاده القديم دون أن يتمثل أثمن ما فيه ليمده بحياة جديدة . لماذا ؟ ، لاننا فى استجاباتنا للثقافة والحضارة الانسانية المعاصرة ، لم نستقبلها بفكر مفتوح ، وانما استقبلناها بعقل رافض ، وبقلب متوجس ! .

كان البعض منا — انطلاقا من هذه الحالة الفكرية والنفسية — يجزء الحضارة الانسانية المعاصرة الى علم وتكنولوجيا من جهة ، وقيم انسانية واجتماعية واخلاقية من جهة أخرى .

ويقول أن تقدم « الآخرين » تكنولوجى فحسب ، واننا نستطيع أن نتفوق عليه فى ميدان الثقافة بل واننا فى وضع أكمل يمكننا من أن ننقذه من شرور مدنيته وينسى أن النهضة التكنولوجية ترتبط بنهضة ثقافية متنوعة متخصصة وعميقة وأن لكل حضارة ثقافة معينة تتبادل وأياها التأثير فى جميع المجالات .

فهو يريد التكنولوجيا المعاصرة دون قيمها ، ولكن هل يمكن استعارة « تكنيك » ما ، دون ايجاد أول الامر « قيمه » تتصل بهذا التكنيك أو فى الاقل ، تنمية هذه القيمة فيما بعد ، لكى تتحقق فوائد التكنيك بطريقة موثوق بها فاذا أردنا التصنيع علينا أن نقبل بنتائجه التى منها : قيم جديدة .

صحيح أن للحضارة الصناعية مساوئى متعددة ولكن للحضارة الزراعية أيضا مساوئها العديدة ، والموقف السليم يتطلب انتخاب القيم الايجابية فى كلتا الحضارتين مما يفيد تماسك المجتمع ويرضى تطلعاته فى نفس الوقت لاحتلال مكانته فى المجتمع المعاصر .

وهذه النظرة القاصرة للثقافة ، تكمن وراء ذلك الانفصام الذى نلاحظه بين الفكر والسلوك سواء بالنسبة للمثقفين

أو العمال فى المصانع ، أو الفلاحين فى الارياف والمزارع .

فالمثقفون عندنا يدرسون علم الاجتماع بمختلف نظرياته ومدارسه ، والتاريخ والفلسفة والقانون ومختلف العلوم الاخرى دون أن تختلج فى اكثريتهم خلجة من يقظة الشعور ، أو تنقدح فى عقولهم شرارة تغير شيئا من نظرتهم للحياة ، فهم ينطوون على طاقتين : طاقة يختزنون فيها العلوم والمعارف المختلفة ، وطاقة يختزنون فيها قيم الحياة واخلاقياتها المتوارثة عن الاباء والاجداد دون تجديد .

والفلاح عندنا ، رغم أن الاجراءات المختلفة التى اتخذتها السلطة قد زعزعت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، وبذرت بذور التطلع فى نفوس كثير من الفلاحين . ولكن الثورة رغم هذا ، لم تمس معتقدات الفلاح الاساسية ، أو تكوينه النفسى أو عاداته الشخصية والاجتماعية ، فهو باستثناء التطلع الاقتصادى الجديد يحتفظ بأكثر مقومات ثقافته ، ولا يزال يعيش بفكر ثابت وباخلاقيات ثابتة فى عالم متغير العلاقات .

وأما المظهر الآخر لهذا المفهوم الساذج المكتفى بنفسه المعجب بذاته ، فيتجلى فى حكمنا على الآخر — لاننا فى اطار هذه النظرة نحصر كل مشاكلنا الثقافية والفكرية فى المجابهة بين « النحن » و « الآخر » لا فى التفاعل المنفتح الذى تمليه طبيعة الحياة — انه يرى بأن الحضارة الانسانية المعاصرة ، التى يسميها غربية ، هى الآن سائرة الى الانهيار لتحل حضارات أخر ى محلها . وبقطع النظر عن صحة هذا القول أو عدم صحته ، فهو فى رأيى عزاء واهم وخاصة اذا صدر عن أناس لم يبذلوا أى جهد حقيقى لتصحيح أوضاعهم ونظرتهم اليها ، ولن يكون له ما يبرره الا عند الشعوب التى أثبتت بالفعل قدرتها على الكفاح فى ميادين التنظيم الاجتماعى كما فى ميادين التقدم العلمى والتكنولوجى والثقافى .

وهناك مظهر آخر لهذا التفكير يتمثل فى الالحاح المفرط على الفوارق النوعية بين الثقافات وتجاهل الطابع العالمى والانسانى للثقافة . فنحن عندما نؤكد على هذه الفوارق ، فاننا سننتهى الى نتيجة ، وهى استبعاد امكانية المقارنة، وتترتب على هذا نتيجة أخرى واضحة وهى أننا نقول لانفسنا : ليست ثقافتنا بأقل من غيرها ، وانما هى من نوع مغاير فحسب . وليس الغرب أكثر

تقدما منا ، بل ان له ثقافة مختلفة فحسب .

صحيح أن أحدا لا يستطيع أن ينكر اصطباغ الثقافات بلون محلى مستمد من الظروف الخاصة للمجتمع الذى تظهر فيه ، ولكن هذه النواتج الثقافية المحلية ذاتها تنطوى فى كل الاحوال ، على جانب انسانى واضح .

وهكذا فان النزعة الكونية التجريدية قد وقعت فى خطا ، لانها أهملت العوالم الثقافية الخاصة وقوة تكيفها باوضاعها الخاصة ، ولكن النزعة التعددية التى تقف نقيضة لها ، ليست أقل خطا منها لانها وضعت الثقافات الانسانية فى خاصيات نوعية منغلقة .

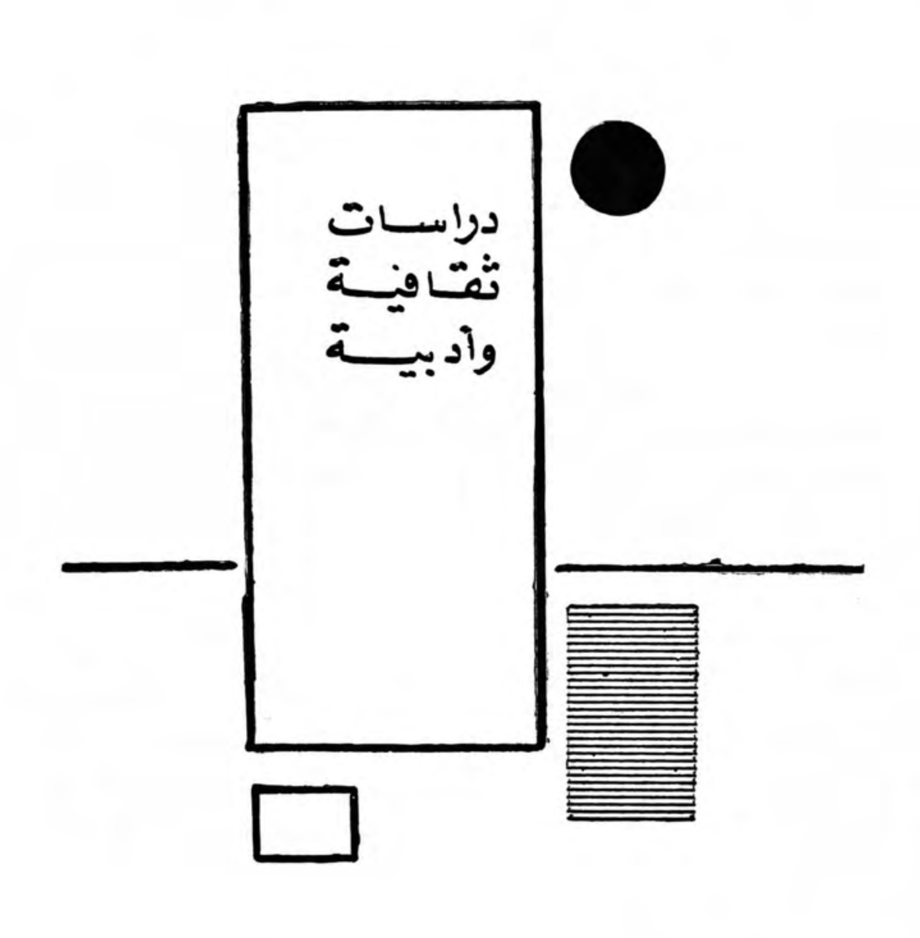
ان الخصائص المميزة لكل ثقافة من الثقافات موجودة ، لكنها ليست أبدية لا فى الماضى ولا فى المستقبل ، وهى لا تخرج عن قوانين العالم الاجتماعى ، انها تنتسب حسب التعبير الارسطى الى عالم الكون والفساد ، وليس الى عالم الافلاك السماوية فيما وراء القمر.

ان تصحيح هذه المفاهيم يمثل جزءا من الثورة الثقافية التى نردد شعارها فى كل مناسبة ، ومسؤولية المثقفين فيها ذات أهمية خاصة . فهم لهم دورهم فى تفجير الفكر الخلاق وفى رفع الوعى الى مستوى الواقع الاجتماعى وتجاوزه لان فى ذلك فهما للذات ، واجابة عن مشاكل المجتمع ، وانبعاثا للانسان الجديد ، المنفصل عن انسان عصر الانحطاط والجمود .

واذا قيل بأن كل هذا أو غيره لا يمكن تحقيقه الا فى مناخ من الحرية الفكرية وهذا غير متوفر فى أغلب اقطارنا العربية ، أقول : ان أوضاعنا ستكون دائما غير ملائمة لانها لو كانت ملائمة لما احتجنا الى ثورة على مثل هذه الاوضاع .

ونحن فى هذه المجلة نفهم ديننا الاسلامى فهمه الاصيل الفهم الذى يقوم على مبدأ تغيير الوضع الفاسد ، بالاعتماد على تغيير المعتقد الفاسد وما نسميه بتصحيح المفاهيم انما يبدأ **من تغيير واقع المعتقدات الفاسدة او المتحجرة او المنحرفة ، وكلها معتقدات جاء الاسلام ليقومها او يصححها او يستبدل بها غيرها حتى تتلاءم مع رسالة التطور الدائم.**

ان من بين مفاهيمنا الخاطئة التى يجب ان نصححها دينيا ، هو المقياس نفسه الذى نستعمله فى الصاق هذا الموضوع او ذلك بالدين ، او فصله عنه . وديننا الاسلامى — دين الثورة والقوة والتفتح على قيم الانسان الخالدة — يتوجه بثوريته وقوته وتفتحه الى المعتقدات المنحطة كلها فيقتلعها او يبعث فيها الحياة . اما ما لا يقبل الحياة فانه لا مكان له فى الاسلام .


دراسات
ثقافية
وأدبية

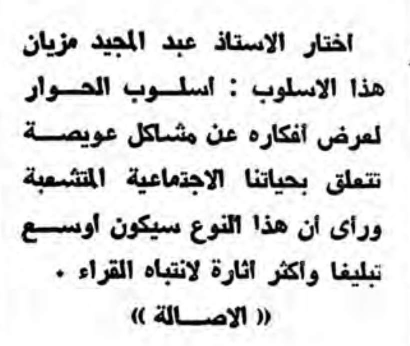
طوفان الاستلابات

عبد المجيد مزيان

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر



جمال الدين الافغانى



اختار الاستاذ عبد المجيد مزيان هذا الاسلوب : اسلوب الحوار لعرض أفكاره عن مشاكل عويصة تتعلق بحياتنا الاجتماعية المتشعبة ورأى أن هذا النوع سيكون أوسع تبليغا وأكثر اثارة لانتباه القراء .

((الاصالة))



ماو تسى تونغ

كانوا شرذمة من المثقفين ، قد تقــدمبهم السن ، وعلمتهم تجارب الحياة ما لم تمكنهم به الثقافات المختلفة التى احتكوابها ، فاتفقوا بعد تردد طويــل على ان ينعزلوا جماعة لتصحيح معارفهم علهــمبفيدون بها اهل ملتهــم وصادف ان وجــد فى قريتهم الصغيرة رباط مهجور ، كــانقد انشىء فى القديم للخلــوة والاعتكــاف والتدريس ، فسمــح لهــم باستعمالــهلمباحثاتهم . ورأى بعض من يثق بهم من طلبتهم القدماء ان يشاركوهم تجربة الحياةالثقافية الجماعية ، لانهم كانوا يؤمنون مثلهم بتفوق الحكمة المشتركة على الحكمةالفرديــة .

وكانت طريقة عملهم ان يقضوا يومهم فى المطالعة والتفكير فى انعزال وصمت ، ثم ينتشرون بعد صلاة العصر فى البساتين والغابات المجاورة لرباطهم ، لينغمسوا فى مصب الطبيعة فيرشفوا من منهل جمالها ، وفيض كينونتها مشربا منشطا ، يمحــو عنهم زغل العناء ، ويجدد فيهــم طاقــة الحيوية والانتاج ، ويبعث السرور العميق المتزن فى نفوسهم . ثم يلتقون بعد صــلاة المغرب للحديث الحر الهادىء . وكان مــن بينهم من ينقل تلك الاحاديث بعد تصحيحها من لدن جميع الحاضرين .

وكان من بين المرابطين فى بداية امرهم فيلسوف ، ومصلح دينى ، وعالم اجتماع ومؤرخ وعدد قليل من الطلبة . ويظهر ان كل فرد من الجماعة قد تاثر بثقافة رفاقــه حتى ان اساليبهم فى التفكير والتعبير قــد انسجمت الى درجة الاتحاد .

الفيلسوف : ما دمنا فى رباطنا هذا بعيدين عن ضوضاء الحضارة المزيفة وحمى التنافس ، نود ان نتحدث اليوم عن تجاربنا المختلفة فى الاستلابات التى عاشها كل واحد منا ، زمن جاهليته ، لنستخلص منها العبــر الفكرية للشباب الذين ربطوا انفسهم معنا طلبا للثقافة اللامنفعية .

طالب : تتكلمون عن الاستلاب كأنه تجربة محتومة لابد ان يعيشــها المرء ، وتذكرون الثقافــة اللامنفعية كهدف لمباحثاتنا . انــه كــلام



ابن خلدون

يستحق التوضيح .

الفيلسوف : اما الاستلابات فلا يخلو منهــا اى مجتمع فى العالم . وبحكم حياتك مع الآخرين فأنت خاضــع لانــواع لا تحصى مــن الاستلابات . وليس فى طاقة اى ضمــير بشرى مهما بلغ تفوقه الفكرى ومهما بلغت قوة انتباهه ان يتخلص مــن هجومــات الاستلابات العارمة .

المصلح الدينى : فى ديننا الاسلامى ان هذا الذى نسميه استلابا بالمصطلح المعاصر وهو انواع الضلالات على وجه التقريب ، انما يأتى من النفس كما يأتى من المجتمــع . والمسلم فى مجاهدات مستمرة ليرفع عنه هذه الضغوط . ان العبادة من بعــض جوانبها تنبيه شعورنا لهذا الخطر الطاغى الذى يهاجمنا من محيطنا الاجتماعى كمــا يهاجمنا من اعماق انفسنا. فليست الاحقاد

والغرائز العدوانية مثلا الا مركزات نفسانية تلخص حقولا واسعة من الاستلابات الاجتماعية . كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول فى بعض دعواته « اللهم لا تكلنى الى نفسى ولو طرفة عين » .

الفيلسوف : اما الثقافة اللامنفعية فهى مثل هذه الاحاديث التى تجرى بيننا ، بطريقة حرة لا نتفاضل فيها ، ولا يستعلى احدنا على الآخر ، ولا يخرج بعضنا مجازا والاخر عاطلا ، ولا نلتمس بها كسبا أوجاها . ولا عناد فيها ولا تحيز . ولكننا نفاتح فيها اخواننا مودة فى القربى والانسانية ، ونتفتح لآرائهم علنا نعرف من الحقيقة نبذا .

عالم الاجتماع : الاستلاب الاكبر ، فى نظرى يتلخص فى بناءاتنا الاجتماعية ذاتها . فالبناء الاجتماعى عملية انسانية لابد منها ولكن الانسان يخلق مجتمعه ثم تفلت من يده القدرات على مراقبة مصنوعه . بل ربما بهره هذا البناء الذى رفعه بيده فخضع له وجعله معبوده الاسمى . وهذا طبعا من الوثنيات .

المصلح الدينى : الوثنيات أنواع وفنون . ومن اخطرها على النفس ما نسميه الشرك الخفى « الذى يدب كدبيب النمل » وهو بلسان عصرنا هذا التعلق بالمقدسات المصطنعة ، والخضوع اللاشعورى لمعبودات بينة او غير بينة تستعبد النفوس استعبادا لا رحمة فيه .

طالب : لقد بثت فينا ، قبل دخولنا الرباط ، قيم مختلفة كنا كشباب نعتقد انها من المقدسات ، فلكل جانب من حياتنا الثقافية تصورات تقديسية . فللقيم العلمية قداستها ، والقيم السياسية قداستها .

ولا ندرى الآن مماذا يجب أن نتحرر ، ولماذا نتحرر وكيف نتحرر ، لاننا ننوى مغادرة الرباط . بعد اجل . وهدفنا العاجل هو الرجوع الى المجتمع . لقد كان شيوخنا يؤكدون بمحضرنا ان المعرفة للمعرفة تخريف ، وان المعرفة من اجل العمل هى المعرفة الحقة ، بل لا تصحيح للمعرفة الا بالعمل .



المصلح الدينى : ان التعلق العبودى بصور ثقافية او سياسية او اقتصادية يعد من الضلالات التى تعوق الانسان فى طريق استكمال انسانيته . ويجب أن يتحرر منها المرء ليسترجع تفكيره السليم الذى فقده فى هرج الحضارة المزيفة . وبعد هذا التحرير وبعد استرجاع الذوق السليم تكون قد توفرت فى المثقف شروط الفطرة ليصبح عالما عاملا .

طالب : كنا نعتقد أن الفطرة بمثابة الصفحة البيضاء او بمثابة الخلاء الثقافى الضامن لحسن الانطلاق ، وهى موجودة طبيعيا عند كل انسان .

المصلح الدينى : لا يمكن استرجاع الفطرة الا بعد مجاهدات جبارة ، لان فطرة ذلكم الانسان الذى مرعن طريق ملىء بالضلالات ثم تخلص من ضلالاته ، انما هى فطرة

ملاء لا فطرة خلاء ثقافى . وشتان ما بين فطرة الرضيع وفطرة استرجاع الصفاء بالوعى والجهاد . فالفطرة الصبيانية والفطرة البدائية محكوم عليهما حتما بالزوال ، لان المجتمع يغزوهما غزوا لا هوادة فيه ، بينما فطرة الوعى تعد قمة الاستكمال الثقافى وفطرة الانتصار على كل ضلال .

الفيلسوف : بدانا منهجيا من حيث يجب البدء : لا يمكن أن نتخيل الاستلاب على حقيقته الا اذا تخيلنا هذا الصفاء المثالى الذى تتحدثون فيه . أن التخلص من الاستلابات اما أن يكون هدفا مثاليا يقذف به الى المستقبل فى بناء اجتماعى نتصوره تصورا عقليا ، واما أن يكون نتيجة مجهودات شخصية فى حالات استثنائية يتوصل فيها الانسان الى وعى نفسه ووعى الانحرافات التى يتعرض لها .

عالم الاجتماع : البناء الاجتماعى حينما يبنى ، انما يتقلد من لدن بناته بمهام ووظائف معينة محدودة . ولكن الانحرافات تظهر حالا بعد اتمام البناء ، فتتشعب الوظائف ، ويقع الزيغ عن الطريق المرسوم ، بكيفية ابعد فأبعد ، حتى يظهر التناقض المفرط بين البنيان وهدفه . وفى هذه الحال من التأزم يفكر المضغوط عليهم فى استدراك الغلط ، اى فى الثورة ، لانها السبيل الوحيد للرجوع الى نقطة الانطلاق . فكل ثورة حقيقية انما هى رفع الاستلابات عن الناس بالرجوع الى « الفطرة » ، اى التفكير السليم مع السلوك السليم ولكن رفع الاستلابات لا يمكن أن يحصل الا بتحطيم مصادرها التى هى البناءات الاجتماعية اللاسوية بكل وظائفها الانحرافية المفسدة لانسانية كل انسان .

طالب : نريد أمثلة حية عن هذا

المصلح الدينى : حينما نقول « ان الاسلام دين الفطرة » ، فليس معنى هذا انه الدين الصالح للسذج وضعاف العقول ، او البدائيين . ولكنه ثورة اصلاحية بعد وعى، لاسترجاع التوحيد المفقود الذى دنسته الانحرافات عبر العصور. فالثورة هنا انما هى رجوع الى التوحيد الصافى الذى يتمثل فى الحنفية الصامدة الحرة .

الفيلسوف : الثورة الفلسفية الديكارتية هى الاخرى عودة الى الوضوح الفكرى والمنهجى بعد البلبلة التى كان قد خلقتها الفلاسفة المسرفون فى التصورات الفارغة.

عالم الاجتماع : كانت الاجهزةالاجتماعية المستوردة فى الصين الوطنية تدعى انها تمثل رغبة الامة فى تحطيم الاجهزة العتيقة المتعفنة ، ولكن سرعان ما ظهر للعيان أن هناك انحرافا لابد من استدراكه ، اذ ان استيراد اجهزة وتلفيقها مع اجهزة اخرى على شعب لم يرد بعد الى فطرته ، انما هى عملية عشوائية ومحض تضليل . فجاءت الثورة الحقة معلنة رفع الاستلابات بتحطيم البناءات المستوردة مع بقايا البناءات العتيقة ، وكانت بهذا مصممة على خلق فطرتين : فطرة تحطيم وتصفية ، للبدء من الاساس . وفطرة العقل البكر المطهر الذى يبنى مشاريعه المثالية والواقعية فى نفس الان ، فيجعلها اهدافا فى نهاية الطريق ترمى الىالتحرير الكامل للانسان.

طالب : هل يمكن أن يخلو البناء الاجتماعى من الانحرافات والاستلابات بدعوى أنه ثورى وانه عودة الى الاصل الانسانى الاصيل من اجل الانطلاق الصحيح ؟

الفيلسوف : يثبت الواقع أن الانطلاق الجديد له هو الآخر استلاباته وانحرافاته . فزمن الثورات زمن انتباه فائق ووعي فوق المعتاد ، ثم تأتي فورا من بعده فترة الغفلة ، التي تبدأ فيها التساهلات ، وتتغير الاهداف بكيفية غير محسوسة . انظروا الى الاجهزة البروقراطية والتقنية المعذبة للشعوب الاشتراكية ، مع أن الشعوب هي التي خلقتها كوسيلة لخدمتها وتحريرها كذلكم كانت جيوش القرون الغابرة تدعي في البداية انها حامية الامم فاصبحت بعد قليل جحيما على كل الامم .

طالب : انتم فيما تذكرون ، تجعلون المصادر الاولى والاخيرة للاستلاب في البناءات الاجتماعية وحدها . او ليس هناك منطلق لبعض الاستلابات ياتينا من طبيعتنا الانسانية ، من غرائزنا البيولوجية مثلا ، ومن الطبيعة العامة الضنينة بأرزاقها .

الفيلسوف : فكرة الاستلاب منطوية على مواقف معيارية خلقية ، ذات أبعاد اصلاحية ، وهي فكرة توجه النقد والتهم وتحدد المسؤوليات . ويظهر لي أنه لا يمكن اتهام الطبيعة بأي غلط لانها كما هي لا ينطبق عليها اي معيار . فمعياريتها قوانينها ، وهي هي لا تبديل فيها . والكائن العاقل الذي يعيش فيها مكلف طبيعيا باكتشاف هذه القوانين وتسخيرها الا اذا انحرف واخمد جذوة عقله . فاما ان اكون الكائن صاحب الحاجيات البيولوجية الفزيولوجية المتحتم عليه السعي لسد هذه الحاجيات فأمر طبيعي لا احاسب عليه احدا ، والا ساكون بمثابة الكائن الحي الذي يتمنى ان ترجع به الطلقة الحيوية الى الوراء فيعود الى الحياة النباتية حتى لا يتحرك ولا يقلد مسؤولية نفسه . فتالم الوجوديين من الوجود في حد ذاته غير معقول لانه ثورة على هذا الناموس الحيوي الذي يعطي الكائنات الاكثر تطورا مسؤولية أكبر على كينونتها . وليست الحياة عبثا في حد ذاتها كما يدعون ، ولكنها تثير « الغثيان » حقا اذا جاء طور التوغل في ادغال الاستلابات.
علينا بالامثلة :
فانت ايها الطالب ، بماذا تسد حاجياتك الحيوية وانت في هذا الرباط ؟

الطالب : كل زادي بينكم تمر رخيص ، وتين مجفف وزيت زيتون وسويق .

الفيلسوف : كم قضيت من الايام في العمل لاكتساب هذه الاقوات ؟

الطالب : خمسة ايام

الفيلسوف : وعلى فرض انك تأكل وحدك من زادك فمتى سيفرغ هذا الزاد ؟

الطالب : بعد خمسين يوما

الفيلسوف : لقد وفرت اذا معاش خمسة واربعين يوما ، اذا حييت حياة زهد وتقشف رباطي . وعلى فرض انك توفر لحاجيات عيالك ، ثم للحاجيات الحضارية الحقيقية كاقتناء الكتب والآلات الضرورية لتسهيل الحياة لا لتعقيدها ، فانك ستوفر مقابل كل يوم من العمل ، على الاقل يوما من التفرغ والتفكير ومراجعة نفسك .

الطالب : لم اجرب هذا ، ولكنه تقدير مقبول نظريا

عالم الاجتماع : وعلى فرض انك توجد في مجتمع مثالي يسمح لك بالعمل المعاشي يوما والحياة يوما آخر في الرباط ، او شهرا بشهر او نصف سنة بنصف سنة ، تتردد بين المعمل والرباط او انواع الرباطات العلمية التي ينشئها هذا المجتمع المثالي

فهل ستشكوا من الاستلابات الطاغية بقدر ما تشتكى منها اليوم ، اعنى فى مجتمعك الحاضر ؟

الطالب : طبعا ، سترفع عنى جل الاستلابات وسوف لا تبقى كابوسا مستمر الضغوط كما هو شانها اليوم .

عالم الاجتماع : وعلى فرض ان هذا المجتمع مبنى على اساس المساواة المطلقة بين الناس ، وانهم رغم تخصصهم المهنى يعملون كلهم يوما للكسب ويوما للثقافة والفكر ، فهل سيكون هناك تفاوت كبير بين المتعايشين فى هذا المجتمع سواء فى الميدان الاقتصادى أو فى الميدان الثقافى ؟

وعلى فرض وجود هذا المجتمع المثالى فهل ستبقى هناك حمى عدوانية وتنافس على المناصب ، وتخصص عازل يجعل البعض مشتغلا بالسياسة منعزلا ، والبعض الاخر مشتغلا بالثقافة منعزلا ؟ وهل سيبقى هذا التشتيت والتنافر المهدد لكياننا الانسانى ؟

الطالب : طبعا ، فى هذا المجتمع الخيالى لا وجود لكل هذه الضغوط الجارية علينا اليوم والمالئة قلوبنا بالخوف والاحقاد ، بسبب عدوان بعضنا على البعض .

عالم الاجتماع : تلك هى الاستلابات ، تمتد الى اعماق النفس ، ومكانها الاول المجتمع ، وليس مصدرها الا المجتمع ولا نتحرر منها الا باصلاح المجتمع . واما الطبيعة فلا مسؤولية لها ابدا . ومن الجنون ان نقذف بمسؤوليات الانسان الى ما وراء الانسان .

المصلح الدينى : الوجود الطبيعى والوجود الانسانى فى فطرته الخالية من الاستلابات ذو استعداد خيرى ، وقد يسترجع الانسان هذا الاستعداد بمجاهداته . اما الشر المغروس فى النفوس فمن بذور اجتماعية . هذا معنى الآية الكريمة « **ما اصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك** » . لان الله هو الذى طبع الطبيعة على الفطرة السليمة الخيرية ، والمجتمع هو الذى يزج بها الى الانحراف.

الفيلسوف : تذكرون يوم كنا فى جاهليتنا مثقفين دواجن ، يتهدد علينا بنزع لقمة العيش من افواهنا فنخضع للتهديد ، ويبث فى صدورنا حب الرفاهية والجاه فنبتسم للرفه والجاه . واشربنا اذ ذاك فى قلوبنا التقرب من سادة الدنيا وكبرائها . فتحالفنا على الحقيقة وعلى ابناء ملتنا . فهل يمكننا تذكر الاستلابات التى كنا نعيشها فى ميدان الثقافة ؟

طالب : كنا نشتكى كطلبة من الجهاز الثقافى نفسه ، بما فيه من ضغوط وطقوس وهالات كاذبة واجازات مزيفة .

طالب آخر : وكنا نحس بتضييع مدهش للوقت فى لى السنتنا بالحكمة ليظن أنها حكمة وكنا نمطط العبارات ونلوكها ثم لا يبقى من كل هذا الكلام الا القليل من الثقافة الحقة .

طالب آخر : وكنا نحس بوحشة مفزعة ورعدة داخلية عميقة من عجزنا فى الاستيلاء الحقيقى على الواقع الحى ، وكنا نبحث عن تعويض لهذا العجز ، فى شبه استيلاء لفظى على ذلكم الواقع

طالب آخر : وكنا نشعر بخيانة ضمائرنا لان اجهزتنا الثقافية الضخمة ، كانت فى اكثر

من ثلثى نشاطاتها تبذيرا للجهد فى الفراغ، وكانت فى ذلك عالة على المنتجين الحقيقيين من ابناء امتنا .

طالب آخر : وكنا ندعى لدى ابناء امتنا اننا وحدنا المتخصصون فى التفكير ولا يجوز لاى كائن كان أن يفكر معنا أو ضدنا . وكنا نحتمى فى هذا الادعاء ببروقراطية الدولة فنتبادل معها الاستلاب لانها مقيدة بوجودنا ونحن مقيدون بوجودها لنبقى واياها سندى سيطرة لابد أن يتعاونا لانهما يسترقان معاشهما الرفيه من المنتجين الحقيقيين .

الفيلسوف : هذه استلابات ترجع بالذات الى طبيعة الثقافة الرسمية .

عالم الاجتماع : ابرز مظاهر الاستلاب فى كل ثقافة رسمية يرجع الى انها تعرف نفسها تعريفا مربوطا بسياسة الوقت . وهو تعريف محدود فى الزمن ، محدود فى افق التأثير ، محدود بالاقتصار على خدمة طبقة معينة . والوجه الثانى من الاستلاب يرجع الى صفتها القهرية بتقنينها فى مسبقات خاطئة .

اما التعريف الاصح لكل ثقافة اصيلة فمربوط بدورها فى التوعية . والتوعية ابداع مستمر ، وتجاوز مستمر للاحوال الثقافية الماضية والحاضرة ، بحكم التطور الدائم الذى لولاه لما حصل اى اكتساب علمى على الاطلاق .

وتناقض الثقافة الرسمية مع نفسها ، راجع الى خنق كل روح ثقافية فى بيضتها ، وذلك لانها رسمت ووقع برمجتها وتحجير عقائدها من قبل ان يخلق الواقع الذى ستنطبق عليه او ستغيره .

ثم ان التوعية تحرير : انها تحرير المثقف نفسه من الصور التى فاتها الوقت بحكم الحركية الجبارة للواقع الحى وهى ايضا تحرير للاخرين ، بان ترفع عنهم استلابات التحجر والتعلق الوثنى بالصور البالية .

الفيلسوف : ان بين التوعية والتعمية حدودا فى خطوط ادق واوهن من نسيج العنكبوت . وذلك ان صاحب الثقافة الوثوقية يدعى انه حامل لواء التوعية ، وكثيرا ما يتهم الطاعن فى هذه الوثوقية بأنه المسؤول عن التعمية . وليس من المؤكد ان ابناء الامة ، الذين تجرى تحت اعينهم هذه الصراعات سيعرفون بكل تدقيق اين توجد التوعية الحقة والالتزام الاصيل .

المصلح الدينى : يبدو ان احصاء الضلالات الثقافية هو نفسه عملية تستحق كثيرا من الوعى. ولكن هناك ضلال يعد بمثابة كبيرة الكبائر او بمنزلة الكفر فى الموبقات . ويتجلى هذا الضلال للعيان حينما نذكر الثقافة الرسمية المتحجرة بما فيها من انواع الوثوقيات والشكليات والسفسطات . انه ضلال الارتزاق البارد مع السيطرة الاستبدادية على كل تفكير . فجفاف هذه الثقافة الرسمية راجع الى فقدان المحرك العميق لكل معرفة ذات فعالية الا وهو حرارة الايمان . فالايمان عدو الكسل المؤدى الى التحجر والايمان باعث كل اجتهاد وتجديد. فلا يمكن ان نقول لاى وثوقى بأنه مؤمن بكل ما فى معنى الايمان من عمق فمفكرو البلاط فى ملتنا ، أو دواجن الثقافة كما سميناهم . هم بالضبط مفكرو الانحطاط . وشجعان الفكر عندنا هم بالضبط المؤمنون المعذبون من لدن الوثوقيين ومواليهم اهل الجاه والسلطان .

ان الاحتكار الثقافى بترسيم المعرفة خيانة خلقية للنوع الانسانى باكمله لانه احتكار يثبت التعالى على الناس ويحصر

الثقافة فى جماعة يدعون انهم اعيان الفكر. وما دام المجتمع المثالى الذى تتحدثون عنه لم يوجد بعد ليضمن شبه مساواة ثقافية ، فانا اعطيكم مثالا لهذه المساواة من المجتمع الحى الواقعى الذى وجد فى فترة تاريخية ممتازة ، فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، حيث كان المحرك الثقافى هو الايمان وحيث كانت الدعوة الاسلامية تنادى ان هذه الرسالة موجهة الى بنى الانسانية جمعاء .

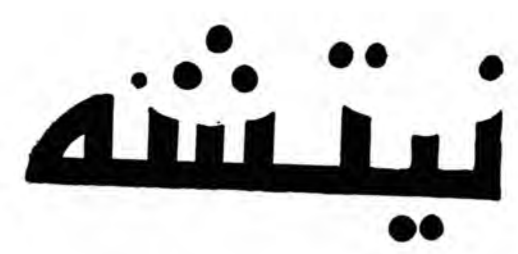
عالم الاجتماع : نقول عن الثقافات التى تساهم فى تحويل الشعوب تحويلا حضاريا انها ثقافات ثورية سواء كانت دينية او علمية . نعم انها ثورية فى ابان ذى امتياز ولاجل قصير ريثما تنطلق البناءات الاقتصادية والمجتمعة الجديدة . ثم ما يكاد يمر عليها جيل او نصف جيل حتى تتصلب فى نرجسية تجعلها تتأخر عن سيل الواقع الحى ، ولا تواجه المعضلات الحيوية الا بالتاكيد الفارغ للمبادىء المجردة الغامضة . هذا ما اكده التاريخ حتى اليوم . ولكن هذه الظاهرة التاريخية لا تتصف بالحتمية المطلقة ، لان عنصر نفى هذه الحتمية فى عصر يمتاز بالتقدم والوعى ، هو ادراكنا لهذا التفاوت بين الواقع والفكر ، وادراكنا لتطور الظواهر الاجتماعية حسب قوانين بدانا نقوم اليوم بضبطها .

لكن بقى هناك استلاب اكبر ، وهو مسؤولية نشر التوعية وطريقة تطبيقها ، وآفاق هذا التطبيق ، لانها فى مجتمعنا الحاضر اللامثالى موكولة بالصدف اكثر مما هى موكولة بالمعقول .

الفيلسوف : ذلك راجع الى الاستلابات السياسية وكل هذه المسائل المتشابكة تقذف بنا مباشرة فى ادغال من الاستلابات . ولا نكاد نرى بصيصا من الامل فى رفع بعضها حتى تظهر لنا انواع اخرى لم تكن بالحسبان .

من المحقق اننا غرقى فى طوفان من الاستلابات .

يتبع



نيتشه والأخلاق الدولية المعاصرة

عبد الله شريط

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

هل نعتبر مظاهر القوة التى ما زالت تسودالعالم هنا وهناك منبقايا الامراض وعلائم النقص التى تعانيها الانسانية ولم تستطع التخلص منهابعـد ؟

يبرز من حين لآخر على الانسانية رجـل اورجال ينادون بان الحرب والعنف هى سنة الحياة وان القوة خير ينبغى ان نحرض عليه ولا نقاومه.واليوم نرى الدول القوية ما تزال تعامل الدول الصغيرة والمتخلفة بميزان القوة والضعف حتىبعد التجربة الفاجعة التى لاقتهـا الانسانيـة فى الحرب العالمية الثانية وما تلاها من حروب فىافريقا وما لا يزال يجرى الى اليوم فى الفياتنـام وامريكا اللاتينية المعذبة ، واخيرا بـين الهنـدوالباكستـان .

والضمير البشرى لا يستطيع ان يظل صامتا أمام هذا الخطر الاجرامى الذى تتعـرض لـه الشعوب من طرف من تملكهم جنون القوة لمجرد كونهم تحصلوا على قوة مادية عارضة فلم يعرفوا ماذا يصنعون بها الا ان يرضوا بهـا غرائـز التوحش المتأصلة فى نفوسهم والتى لم تستطع حضارتهم الفجة المبتسرة وقلة تجاربهم الدولية ان تروضها فيهم .

واذا كانت الشعوب تقاوم هذا الخطر بقوتها الروحية التى لا تنفد وامكانياتها المادية البسيطة فان من واجب الطليعة المفكرة فى هذه الشعوب ان تقاوم الاصول الفكرية التى نبع منها هذا الجنون الخطر : جنون القوة وفلسفتها السلبية الهدامة .

ومن المؤكد ان فلسفة القوة هذه نبعت أول ما نبعت فى الغرب قبل ميلاد المسيح بعدة قرون : فى الفلسفة اليونانية او على الاصح عنـد بعـض فلاسفتهـا ثـم انتقلـت الـى رومـا القيصرية ثم تواصلت فى القرون الوسطـى فى مذهب الفروسية ولقيت ازدهارها اذ ذاك فى الحروب الصليبية المعززة بسلطة الكنيسة وبعد هزيمة الصليبيين همدت بعض الشىء ثم ظهرت الى الوجود من جديد فى الحروب الاستعماريـة طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولكن الاستعمار نفسه كان عاجزا عن ارضاء شهوات التوسع والقوة لدى الدول القوية نفسها بل ادى الى تنافس سرعان ما تحول الى حروب فيما بينها افترس فيها بعضهم بعضا افتراسا شرسا فى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ولا يبعد ان يقودهم الى الثالثة . وخلال هذه القرون الطويلة لم يخل الغرب الذى نبعت عنده هذه الفلسفة من دعاة ومفكرين يحكمون قواعدهـا ويفلسفـون « فوائدها » بوقاحة لاطلاء عليها من القرن الثالث قبل الميلاد فى اثينا الى القرن العشرين فى أوربا .

ومن المؤكد ايضا ان هذه الفلسفة قد استطاعت خلال هذه القرون الطويلة ان تتزود فى كل رحلة بزاد جديد من الاتقان والعمق واللمعان وكان آخر دعاتها واقربها الى عصرنا ــ اعنى اقربها تأثيرا فى حياة الدول القوية اليوم ــ هـو الفيلسـوف النمساوى الالمانى الكبير « فريديريك نيتشة » الذى توفى سنة ١٩٠٠ ولكنه ترك أروع واخطر اثر عرفه تاريخ البشريـة فى سلـوك الـدول وتصرفاتها . وكان هو المنبع الذى استقى منـه



ف . نيتشه

هتلر نظريته فى الاجناس والذى اقام عليه سياسته النازية ومغامراته الجنونية الصريحة وهو ايضا الذى ما يزال يغذى شباب أميركا اليوم ضـد السود وسياسة أميركا فى كثير من انحاء العالم التى يكنها الضعفاء او من هم اقل قوة منها .

هذه الفلسفة الخطرة جديرة بأن ندرسها نحن « الضعفاء » حتى نعرف مبلغ تغلغلها فى اذهان اصحابها وحتى نعرف انها ليست ــ مجرد هوى يتملك هذا السياسى او ذاك وانما هى قواعـد فلسفية عميقة الجذور بعيـدة الغـور ، وان الانسانية يجب ان تحترس من ثمارها المسمومة التى ما تزال تغذى ادمغة بعض الساسة فى العالم « المتحضر » وحتى فى العالم المتخلف ، وان البشرية فى المستقبل معرضة لهـذا الطيـش المتفلسف الخطر .

ونحن فى هذه الدراسة لن نتحامل على نيتشة لانه قبل كل شىء رجل مريض أنهى حياته مصابا بالجنون . انه بالرغم من خطره يثير الاشفاق اكثر مما يثير فينا القسوة عليه . اننا سننظر اليه على انه فيلسوف نناقش افكاره كأفكار جديرة بأن نناقش ، ولاننا بعد كل شىء نعتقد ان فلسفته مهما بقى من رواسبها فى اذهان بعض الساسة فانه سيأتى يوم تزول فيه وتنقرض بفضل يقظة الشعوب ووعيها لقوتها الروحية العتيدة .

١ ــ نيتشة وعصره

فكرة الخير والشر ــ او الاخلاق بصفة عامة ــ ليست عند نيتشة كما هى عند غيره من الفلاسفة عنصرا او ميدانا مع بقية عناصر اخرى مثل الميتافزيقا ومشكلة الآله وقضية المعرفة ونظرية المادة والروح ــ تتشكل منها جميعا فلسفتهم العامة بانسجام يقومها جميعا ويضفى عليها وحدة متناسقة ترجع اليها كل جزئياتها وتتجمع حولها . وانما قضية الاخلاق عنده هى عنصر فلسفة الاول والاخير . هى كل ما سيطر على قلبه وعقله وقلمه واخلاقه فى حياته كلها. واذا ما تعرض الى مواضيع اخرى كمشكلة الاديان واصولها ومشكلة الحرية واطوارها او الاله ومفاهيم الناس فيه فانما كان فى كل ذلك يسعى وراء هدف واحد لا يهمه غيره ، وهو تدعيم نظريته فى الاخلاق . وانت تستطيع ان تتتبع كتبه وابحاثه ــ وخاصة « ارادة القوة » « وهكذا تكلم زراديتشت » فلا تكاد تجدها الا ظلا لبعضها البعض تسيطر عليها جميعا فكرة الاخلاق . وقد يكرر لك هنا ما كنت قرأته له هناك الا انك مع ذلك لا تشعر بهذا التكرار او تسأم هذه الظلال لان بلاغة نيتشة وقوة تعبيره وطرافة صوره وصدق شعوره الفنى كفيلة كلها بأن تبعد عنك السأم والشعور بالتكرار . بل انك تجده ينقض افكاره بنفسه فى الكتاب الواحد ولكن البلاغة الساحرة التى يغمرك بها والقوة العجيبة التى يسيل بها قلمه الحار الجرىء تجعلك تبتسم فى نشوة وحمية لهذا التناقض المرضى البرىء . وفى امكانك ان تنتقد نيتشة من جراء ذلك وأن ترميه بالتهافت والاسراف فى الاعتداد بنفسه ، ولكنك مع ذلك لا تستطيع ان تتمالك عن الاعجاب به والشفقة عليه أحيانا .

وقد يخيل اليك ان نيتشة غير انانى ــ وهو كذلك طبعا ــ وقد تجده يصرح لك هو نفسه بذلك وانت تتجول معه فى مملكته الواسعة ــ ، ولكنك لا تلبث بعد معاشرة طويلة ان تتبين ــ وهذه هى مأساة نيتشة ومأساة الانسانية معه ــ انه انانى مفرط فى أنانيته ، ولكن حبه للانسانية أقرب الى البغض لان صاحبه سلك اليه مسلكا فظيعا محفوفا بالاهوال والاشواك والكوارث . وهو يريد أن يصل بالبشرية الى الكمال ولكنه كمال ضره أبلغ من نفعه وثمنه أفدح من فائدته .

تساءل نيتشة عن الخير والشر فقال :

« فى غروب يوم من أيام الشتاء لا اريد أن أصرح به لان له صلة بالاخلاق غروب قد انطبع فى حياتى فجأة وبقوة قاهرة وانا مازلت شابا ــ وقفت تخيلاتى وافكارى امام هذا الاستفهام : ما هو الاصل النهائى الذى يجب ان نرجع اليه فكرة الخير والشر ؟ ومن حسن الحظ اننى سرعان ما وقفت على الاحكام الاخلاقية السابقة فلم افتش عن اصل الخير والشر وراء هذا العالم (واضح انه يقصد كانط) ثم لم البث ان تساءلت ثانية : وهل للخير والشر قيمة فى ذاتها ؟ هل حققا شيئا للانسانية فى تطورها لبلوغ اهدافها ؟ أم انهما بالعكس قد خانا قوة الحياة وامتلاءها كما خانا الشجاعة والثقة بمستقبلهما ؟ على ان اجوبة هذه الاسئلة نفسها بعد بحوث طويلة استقرت بى الاقدام على أرض خاصة بى وحدى لانها عالم مجهول وجنة خفية لم يسبق لاحد ان فكر فى وجودها » .

ولنترك نيتشة هنا يركز قدميه على هذه الارض المجهولة التى اكتشفها لنعود اليه بعد حين نلقى اثناءه نظرة سريعة على ذلك العصر الذى جعل بطلنا يزور عنه وعن ارضه ليبحث لنفسه عن أرض اخلاقية اخرى « جديدة » فى نظره لعلنا نستشف بعضا من تلك العوامل التى جعلته ينفر هذا النفور الغريب من مفاهيم عصره العامة للاخلاق ، واى رائحة كانت تفوح من تلك المفاهيم لم يستطع نيتشة ان يفتح لها صدره ويستنشقها مثل غيره من الناس .

كان القرن الثامن عشر قد زحف فيه العقل على اوربا بعد أن تحرر من بقايا تاثيرات الكنيسة عليه فشمل كل مفاهيم الحياة ومختلف ميادينها وقيمها ، ووضع الانسان الاوربى امامه وجها لوجه فلم يترك له اى منفذ منه الى الحياة والكون من خلال قضبانه الحديدية واصبح الانسان الاوربى لا يعتمد على شىء فى حياته المعنوية والمادية الا مستخدما فيه هذا العقل كما اكتسب شجاعة كافية لاخضاع كل المذاهب والآراء فى تشكيل الدولة والاقتصاد والقانون والدين والتربية لامتحان العقل ثم جاء القرن التاسع عشر فارتاع لهذه القفزة او هذه المغامرة وشعر بالدوار والهلع فولى مسرعا الى اقرب نقطة انطلق منها القرن الذى قبله فولدت الحركة الرمانطيقية ولم تكد تبرز الى الوجود حتى اخذت فى رفع عقيرتها بالتغنى بالماضى وخصاله . وكان ذلك بصورة خاصة فى المانيا التى كانت آنذاك مشتتة مبددة فى ولايات واقاليم هزيلة متنافرة مما آثار فى شعرائها ومفكريها حنينا الى الماضى المجيد ، واصبح الرجل فى نظر هذه الحركة عبارة عن كتلة من الماضى مرتبطة بمكان معين وزمان محدد واصبح معين الادب والفن ليس هو الحياة الواقعية وما فيها من جديد وطريف بل خيال العصور الوسطى وابخرة الكنائس تتصاعد تحت اضواء الشموع .

الا ان روح القرن الثامن عشر العقلية لم تخمد مع ذلك امام هذه النكسة الرومانطيقية بل قفزت من جديد قفزة ثابتة ظهرت بها فى ثوب المذهب الوضعى الواقعى الذى اخذ يخضع كل شىء للتجربة والواقع والمادة ، ضاربا صفحا عن كل ما وراءها من معميات وتخمينات ورموز . وكان فى النهاية ان استبدت الحركة الوضعية بالحركة الرومانطيقية وابتلعتها فاختلت الموازين بين المادة والروح وارتبكت المفاهيم واصبح الفكر الاوربى مقبلا على ازمة مخيفة اقفر معها ينبوع — الروح — وتعطلت كل قدرة عن الانتاج والابداع الروحى ، وتحولت المفاهيم ومقاييس الاشياء من الكيف الى الكم وهو ما يزعج رجلا مثل نيتشة . « واصبح الناس يتحدثون عن الاغلبية والجموع واكبر عدد ممكن الى آخر هذه الصيغ التى علمهم اياها الكتاب والمفكرون فى القرن التاسع عشر » — وانصرف العقل الاوربى الى العالم الخارجى نهائيا ونسى نفسه وعواطفه واهدافه الانسانية العليا نسيانا يكاد يكون تاما حتى قال « ماكس بيكار » : « ان الحياة عند الناس وفرارهم من انفسهم اصبح شيئا واحدا . ولم يعد للانسان مفر من أن يفر من نفسه . لقد اصبح الفرار حالة دائمة وشيئا طبيعيا كالهواء » .

اما الاخلاق فقد تحجرت على قواعد مرتبة معينة يعيش عليها المجتمع حياته اليومية دون ان يفكر فى ان تكون لها اهداف تطورية خالقة أم لا .

وما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كان الفكر فى أوربا قد انتهى الى مرحلة من الشك والتعب فقد معها سيطرته على توجيه نفسه نحو ما كان يحلم به من سعادة وراحة .

ذلك هو طابع الحياة النفسية فى القرن التاسع عشر . أما الحياة الاجتماعية فقد سيطرت عليها الاوساط الشعبية بمبادئها الديموقراطية وهو ايضا ما يفقد صواب نيتشة — ولم تعد تبالى بما كان يحرص عليه الاستقراطيون من مظاهر

الحضارة والرفاهية وقيمها البورجوازية . واصبح « الاقبال على التوسط من كل شيء » هو الطابع الغالب على الحياة في مختلف ميادينها ونواحيها . لقد كان كل شيء يسقط في الماء ولكن لا شيء يغوص الى اعماق الينبوع كما يقول نيتشة . وهكذا لم يعد يجد هؤلاء التوامون على قيم الحضارة الاستقراطية عزاء امام هذا « الانحطاط » الا ان ينكر القيم الاجتماعية السائدة انكارا» ويحكموا على العالم كما هو موجود امامهم بأنه كان من الواجب ان لا يكون كذلك ، وعلى العالم الذى يحلمون به بأنه غير موجود . فكانت النتيجة عندهم ان العالم لا معنى له (نيتشة) .

هذه هي الحالة التي كانت عليها اوربا عندما شاءت الاقدار ان تأتي اليها بنيتشة . ونكاد نجزم ان هذا هو غروب ذلك اليوم من ايام الشتاء الذى وقف فيه نيتشة يتساءل عن الخير والشر .. لقد اعتقد الرجل ان هذا الوضع الاجتماعى (المنحط) هو نتيجة لتفسخ في مفاهيم الاخلاق في ذلك العصر . وان من أراد ان يعتنى باوربا ويعيد اليها حياة التقدم او يعيدها الى الطريق المستقيم ينبغى ان ينصرف الى معالجة هذه الناحية قبل كل شيء وأن يهب لها كل ما في قلبه وعواطفه وعقله من مواهب وقدرة حتى ينتشلها من الهوة . وكان نيتشة يعتقد انه ذلك الرجل .

نقد الفلاسفة والاديان وعلماء الاخلاق

كان نيتشة يعتقد في بعض الاحيان انه لن يستطيع البناء ، وذلك لفرط ما وجد امامه من بناءات اخلاقية ينبغى تهديمها قبل كل شيء . انها بناءات اقيمت على الرمل وخرائب من الاخلاق انقرض سكانها واهلوها وبقيت مأوى للعجز والضعفاء ، فيقول : اننا لا نريد ان نبنى قبل الاوان . بل لسنا نعرف ان كان قد قدر لنا ان نبنى يوما ، او انه من الاحسن ان لا نبنى اطلاقا »

ان كل ما بنى في ميدان الاخلاق منذ كونفوسيوس الى سقراط ومن المسيح الى كانط ليس فيه حتى ما يستحق أن يرمم ويعدل .

وقد بدأ اول ما بدأ بسقراط وافلاطون وابيقور الذى قضى على الغرائز العميقة في الانسان بما كان يدعو اليه من فلسفة اللذة كما لو كانت الحياة قد خلقتنا فيها لنلتذ ونتنعم وليس لنناضل « ونعيش في خطر » وعلى السفسطائيين وسلبيتهم الهدامة ازاء الطبيعة . والى هؤلاء جميعا ينبغى ان نضيف شوبنهاور وكانط وكل الذين وضعوا انفسهم في خدمة الضعفاء وتمجيد المسكنة ومحاربة الحياة وغرائزها « النبيلة » .

ولكن ثورة نيتشة على كل هؤلاء لا تعد شيئا اذا قيست بثورته المستعرة وحقده العجيب على المسيحية : تلك الديانة التى جاءت لتقضى نهائيا على أعمق ما في الفرد من غرائز ضرورية للحياة ، والتى اصبحت الحياة في نظر معتنقيها لا تعنى غير « تثقيف » الاساقفة والاباطرة وتوفير السعادة لهم . أما غيرهم فليست هذه الارض بالنسبة اليهم غير دار امتحان اخلاقى يترأس — جلساتها الاله وهو ممسك بيده دفاتر للسيئات واخرى للحسنات يسجل عليهم فيها ما يأتونه منها حتى اذا زادت سيئاتهم على حسناتهم عاقبهم بانتقامه الى الابد . الا ان المسيحية ليست الا ميتافيزيكا الاشقياء . والوسيلة الوحيدة للتخلص منها هو « نفى الاله وخلع نير الكنيسة عن الاعناق » . ان اصحابها هم « المنذرون بالموت » وقد تفشى داؤهم حتى اصبح « العالم مليئا بمن تجب دعوتهم الى الاعراض عن الحياة . والارض اصبحت مكتضة بالدخلاء ، وقد افسدوا الحياة فما اجدرهم بأن تستهويهم الابدية ليخرجوا من هذه الدنيا . ان هؤلاء الممسوخ لم يبلغوا مرتبة الانسانية بعد . فليبشروا بكره الحياة وليتلعوا عن مرابعها . انهم المصابون بسل الروح ، انهم لا يكادون يولدون حتى يبدأ موتهم وقد شاقهم الزهد والملال . انهم يتلفعون برداء وسيع من الاسى ، ويتشوفون الى الحوادث التى تجر وراءها الموت ، ولكنهم

يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك هلعا وذعرا . وهم فى الوقت نفسه يمدون ايديهم الى ما نـذ وطاب . ان الحياة عندهم قشة يزدرونها ولكنهم يحرصون عليها . ان حكمة هؤلاء تهتف قائلة : الحياة جنون وافظع منه التمسك بالحياة وقد بلغ الجنون بنا الى هذا الحد الفظيع » .

هذه فقرة قصيرة من ثورات نيتشة على المسيحية والكنيسة دون أن يفرق بينهما فى شىء. ان المسيحية التى ظل التاريخ ينظر اليها على انها تمثل روح الانسانية المتسامحة التى تاخذ الاشياء اخذا رفيقا لا عنف فيه ولا عبوس وتنزع بالانسان الى الارتفاع عن غرائزه الحيوانية الشرسة وابداله مكانها عواطف ملائكية تطفح بالمحبة والاحسان ليست فى نظر نيتشة الا معولا هداما يقوض اعمق ما فينا من الميول البشرية الطبيعية التى تنزع الى السيطرة والحرب والقوة .

والاغرب من ذلك ان ما اشتهرت به المسيحية من روح انسانية هو بالذات ما يؤاخذه عليها نيتشة باسم الانسانية نفسها . ان رجالها فى نظره قد سنوا وشرعوا كل قوانينهم وطقوسهم الملة لغرض واحد وهو السيطرة على الجماهير والصعاليك . انهم يعلمون ان الد عـدو لهـم يستطيع ان يهدم سيطرتهم المكذوبة هو العلـم وتفتح العقل للبحث بعمق عن الاصول الدفينة لفكرة الخير والشر فجاؤا ووضعوا ايديهم علىهذا الميدان واحتكروا البحث فيهلانفسهم لانهم يعلمون ان هذا الميدان هو الذى تسطر فيه مصاير البشر، وقالوا للناس ان هذه الثمرة ـــ ثمرة المعرفـة والاخلاق ـــ محرمة عليهم فى هذه الارض ، وانه لا يجوز لغيرهم هم رجال الكنيسة ـــ ان يبحث فيها أو يدنسها بيديه ، وقد عرفوا الطريق الذى يوصلهم الى تلافى هذا الخطر : فالعلم وتفتح الفكر يتطلب الهدوء والتامل العقلى ، او بعبارة اخرى يتطلب ارضاء جميع الحاجات التى يمكن ان تشغلنا عن هذا التامل الهادىء العميق المنظم.

واذن ليصبح كل الناس بؤساء مشغولين بالتفكير فى أمعائهم الخالية حتى لا يتفرغوا فى هدوء الى اكتشاف اكاذيب الكنيسة . لقد اخترعـوا مسألة الاثم الذى اقترفه آدم منذبدئى الخليفة على ما يزعمون حتى يجعلوا ابناءه يقضون الحيـاة وهم يتخبطون فى الندم والشعور بالذنب ويبحثون عن المغفرة فى ظلام حالك ، وهكذا حصروا جهود المخلوقات فى التفتيش عن حل لمشكلة خيالية لا يعرفونها بوضوح . وعندما تكل ارجلهم تعبـا يهرعون الى رجال الكنيسة ويرتمـون عـلى مسوحهم يطلبون المغفرة والعفو ويسلمون اليهم مقاليد امورهم ويمكنونهم من التحكم فى رقابهم ، وذلك بالضبط هو ما يبحث عنه رجال الدين ، حتى

تبقى بقية الناس تعفر جباهها فى التراب وتبكى شقاء الانسان وتتضرع ليلا نهارا طالبة المغفرة على اقتراف ذنب لم يقترفه احد فى يـوم مـن الايـــام .

ولا تحاول أن تقنع نيتشة بأنه اذا كان رجال الكنيسة كما يقول فان المسيحية كدين مبراة من هذه الجرائم . انه سيجيبك بأن المسيحة نفسها لست الا اكذوبة كبيرة من اكاذيب اليهود اختلقوها فى عهود عبوديتهم وذلهم ليقلبوا بها الحقائـق ويسبغوا على انفسهم وعلى ما كان فى مثل حالهم من العبيد المضطهدين نعوتا طبعوهـا بطابـع الانسانية وما هى فى الحقيقة غير تمويه عـلى التاريخ ، فرضه عليهم وضعهم الذى كانوا فيه من الاضطهاد والتشـرد فلـم يجدوا ملجأ يبقى عليهم الحياة غير هذا الخداع الذى يحبذون به حياة البؤس والبؤساء حتى يستطيعوا تحمـل الحياة . والا فهل من بلاء على الانسانية اشـد من ان تعيش معذبة بائسة وهى فى ذلك مختارة بملىء ارادتها او مخدوعة بهذا العذاب الذى تظنه فى خيرها وصالحها وهل من اجرام أفدح ممن

جعلها تفعل ذلك بنفسها وهى تحسب أنها تحسن صنعــا ؟

وهل مـ نالطبيعى أن تكون غايتنا من الحياة هى أن نعيش فيها معذبين نحاول استمراء هذا العذاب واستساغته وتغطية مرارته بالعسل المكذوب ؟ كلا ان المسيحية هى التى ضاعفت من شقاء البشر وهى من اجل ذلك اكبر مجرم عرفه التاريــخ . »

وبعد . هل نقف مع نيتشة عند هذا الحد فى تحطيم الماضى ؟ كلا ! ان حمية الرجــل عــلى الاخلاق وغيرته على الانسانية اشد واقوى من ان تعرف الحدود او الاعتدال والتوسط . ان قلمه الجبار الذى طوح بالمسيحية من اعمق جذورها لايهدأ الا اذا قضى على كل من شم رائحةالمسيحية من قريب او بعيد وكل من تأثر بها تفكيره عــن شعور او لا شعور . ان هؤلاء ايضا يجب ان يلحقوا بأمهم التى ارضعتهم مفاهيمها التعسة المسمومة فى الاخلاق وبناء مستقبل الانسانية . وليس فى وسع هذا البحث الموجز ان يستوفى نقد نيتشة لكل فيلسوف نادى فى مذهبه الاخلاقى بما نادت به المسيحية ـــ سواء كان متأثرا بها أم لا ـــ من الشفقة والغيرية والمحبة والمساواة أمام الله او امام القانون او الواجب الى آخره .. بل ان نيتشة نفسه لا تسمح له كبرياؤه بأن يتتبع هؤلاء الفلاسفة فردا فردا ليناقشهم الحســاب على آرائهم الاخلاقية بل يجمعهم دفعة واحــدة ويفتح عليهم جام غضبه وحنقه ويضرب رقابهم جميعا بسيف واحد ما داموا كلهم يستندون اما على المبادىء المسيحية أو مبادىء المســاواة والضمير والمصلحة العامة والسعادة المشتركة الى بقية هذه الكلمات التى ليس لها فى عقــل نيتشة اى معنى انسانى حقيقى كما ليس لها فى نفسه اى احترام او تقدير .

واول ما يؤاخذ به نيتشة هؤلاء الفلاسفة فى معالجتهم لمشكلة الاخلاق هو بالضبط ذلك الشىء الذى يتباهون به ويتفاخرون وهو « التجــرد والنزاهة العلمية » وبحث الامور باعصاب باردة لا اثر فيها للحرارة او الغيرة كما لو كانت قضية الاخلاق سلعة تافهة لا تمس صميم انسانياتهم ولا تجول فى عروقهم . ان هذا التجرد عند نيتشة ليس له من قيمة على الاطلاق لا فى السماء ولا فى الارض .

فكل المشاكل الضخمة تتطلب « الحب الاعظم » والحب الاعظم عند نيتشة هو ذلك الحب الذى يدفعه الى القسوة على الانسانية وتحميلها فوق ما تطيق لتتأهب لحمل رسالتها العظمى وتصل الى هدفها الاعلى وهو انجاب الانسان الاعلى او « السبرمان » .

ان هذا الحب الاعظم لا يستطيع أن يحمله نحو الانسانية اولئك الفلاسفة الباردو الاعصاب . ان هذه المهمة الثقيلة لا يستطيع أن يضطلع بها الا ذوو العقول القوية الواضحة ، لانها تأخذ تلك القضايا العظمى كما لو كانت قضايا خاصة بها تجد فيهامصيرها وقدرها واحزانها وكل سعادتها . انه لا يؤلم نيتشة شيئا كما يؤلمه برود هــؤلاء الفلاسفة الذين « يتجهون الى المسائل الانسانية التى يتوقف عليها مصير الوجود البشرى وعظمته وازدهاره بروح « شخصية »وبفكر بارد ثقيل . ان فكرا كهذا لا يمكن للمشاكل الضخمة حتى ولو كانت فى متناول العقل أن تدخل تحت حوزته لانه مكون من دم الضفادع . وهؤلاء الفلاسفة كانوا دائما ومنذ القديم لا يتحلون الا بنزوات وأمزجة هى أمزجة أبطال النساء التافهات . فمن ثم لا أصادق قط ولو فى الكتب فيلسوفا او عــالما او مفكرا اخلاقيا يضع نفسه امام الاخلاق كما لو كانت أمرا يهمه شخصيا ويثير همه وألمه الحار أو تشوقه وهواه الجارف الصادق ومن اجل كل ذلك لم تكن الاخلاق فى يوم من الايــام مشكلــة وضعت على بساط المعالجة الصحيحة . بل على العكس كانت عندهم ساحة حيادية انتهت بعد

كل ما عانته من المتناقضات والاخذ والرد ان اتفق المفكرون على انها هى الظل الظليل الذى يستريحون تحته من عبء انفسهم ويستأنفون فيها عيشهم من جديد . اننى لم ار واحدا منهم تجرا على هذا الانحراف الشنيع الذى تسير فيه الاخلاق . واننى لازداد الا اقتناعا بأن ما بذله بعض المؤرخين وعلماء النفس من جهود فى ميدان الاخلاق هومنتهى السخافة لانهم سمحوا لمخيلاتهم المغامرة ان تتلقف هذه القضية النبيلة تلقفا خاطفا لم يتبينوا معه شيئا من أهميتها . ولانهم علاوة عن ذلك ما يزالون هم انفسهم يرسفون تحت عبء الاخلاق المعتادة التى يرسف فيها الفكر الشعبى فى أوربا المسيحية التى ما تزال حتى اليوم تفهم الاخلاق على انها الشفقة والتضحية وما الى ذلك من مظاهر السلبية القاتلة » .

ويرجع نيتشة الخطأ الذى درج عليه الفلاسفة من فهمهم لقضية الاخلاق والذى اعدى به بعضهم بعضا — الى نظرتهم للاخلاق على انها شىء مشترك يتساوى فيه جميع الافراد وجميع الشعوب ، او على الاصح بين الشعوب المتمدنة والتى يسميها نيتشة « الشعوب المروضة » والى بعض المفاهيم الاخلاقية المبتذلة التى حاولوا ان يستنتجوا منها حتمية مطلقة قائمة فى علاقات الافراد والشعوب بعضهم ببعض . ثم عندما تبينوا خطأهم فى هذا الاطلاق بحكم اختلاف الشعو بواختلاف مفاهيمها وعاداتها — عادوا فقرروا ان « كل » نوع من الاخلاق حتمى أو قسرى . وكل من الفكرتين عند نيتشة لا تقل صبيانية عن الاخرى . ثم زادوا الطين بلة عندما راحوا ينتقدون بعض النظريات فى الاخلاق لدى الافراد والشعوب فتوهموا انهم ينقدهم لتلك النظريات قد نقدوا الاخلاق نفسها . انهم « فى الواقع مازالوا الى اليوم يعتقدون انهم أعطوا لقضية الاخلاق ما هى جديرة به من الاهتمام والروح العلمية المتعمقة ، فى حين انهم اكتفوا بايجاد أسس جامدة مريضة لانهم يعتقدون ان الاخلاق ليست شيئا يتكون باستمرار وانما هى « معطيات » . وهكذا بقيت مشكلة الاخلاق مادة مهملة ينسج عليها النسيان خيوطه بعد ان طرحتها تلك الكبرياء الثقيلة التى تعصف بعقول المفكرين .

على ان هناك سببا آخر فى نظر نيتشة جعل الفلاسفة يهملون الاخلاق هذا الاهمال المشين وهو أن مشكلة الاخلاق تتطلب ايدى فى غاية المهارة والضبط . وبما ان علماء الاخلاق ليس لهم من ذلك غير الغلظة والسماكة والرعونة تلك العاهات التى اعدتهم بها عقلية الكنيسة وبقية ما يحيط بها من ظروف ، وبما انهم ايضا قد استقوا كل معلوماتهم عن الاخلاق من عادات الشعوب وتواريخها بشكل ناقص مغلوط، فقد كان من البديهى ان يكونوا ابعد الناس جدارة عن بحث قضية الاخلاق وايجاد ما تتطلبه من الحل . « الا ان كل ما يسميه الفلاسفة (أسس علم الاخلاق) ليس أمام ضوء الحقيقة غير شكل متحايل للاخلاق السائدة حولهم . اى هى عبارة عن سلبية مطلقة — وضعت فى قالب اخلاق . وهكذا اذن ينتهى بنا المطاف مع نيتشة الى هذه الصحراء القفر التى عاشت الانسانية على سرابها وخداعها كل ما عاشته من القرون : اديان فاشلة خلقها الدجالون من اليهود ليقتلوا بها الحياة ، وافكار فلسفية سطحية تطفو على سطح الاخلاق كالفقاقيع وهى تحسب نفسها تغوص الى اعمق ينابيعها « عندما اتيت الى العالم وجدته جالسا على افتراضات قديمة واثقا أنه عرف كل شىء عن الخير والشر . ووجدت الناس يعتقدون ان كل بحث فى الفضيلة قد انتهى أمره . وبالرغم من عقيدتهم هذه فقد كان كل واحد يأتى على ذكر الخير والشر وهو متوجه الى سريره طلبا للنوم »

ان نيتشة يعتقد مخلصا انه هو الحد الفاصل فى تاريخ الانسانية وانه بدأ جديد لتاريخ جديد

ستدخله البشرية يتغير به اتجاهها وتتبدل خطواتها وتتضح اهدافها فى الحياة بعد أن ضلت السبيل فى كل ما مر عليها من عهود . وهو فوق ذلك مؤمن انه بعث لتخليص البشرية من الضلال والحطة والتفاهة وينفك على رقبتها القيود الثقيلة التى رزحت تحتها آلاف السنين . وهو لا يهمه اذا كانت هذه الانسانية تنظر الى عمله وجهده الذى يبذله نظرة ملؤها الحقد عليه ، على انه يعلم ذلك ويشعر باننا ساخطون عليه وهو يهدم أوثاننا الاخلاقية المقدسة ويقول : « لست بالصوت الذى تتطلبه هذه الاسماع . اننى اخاطبهم وكأننى اخاطب رعاة الماعز » .

ولكننا رغم سوء ظن نيتشة فينا فاننا لن نتسرع فى الحكم عليه قبل أن نرى نهاية المطاف الذى يريد الرجل أن يقودنا اليه اننا ما نزال معه فى منتصف الطريق فلعل ما سياتينا به هو الحق وان ما كنا فيه هو الباطل . اننا كثيرا ما جنينا على المجددين فى التاريخ ورميناهم باوسخ التهم لمجرد كونهم ارادوا ان يغيروا قديمنا ويستبدلوا به جديديهم .

(يتبع)

الاديب العربى يشكو من الرقابة ومن الارهاب

ان معركة المصير التى تخوضها الامة العربية اليوم لا يمكن أن تتجزأ . فهى معركة ضد قوى الشر والاستعمار والصهيونية ، وهى معركة على الحدود ، وهى معركة لبناء الاشتراكية ، وهى معركة للحفاظ على عروبة الاراضى التى تغتصبها قوى البغى والعدوان ، ولكنها كذلك معركة لبناء الانسان العربى من الداخل . ولا ريب فى أن هذا الانسان مصاب بآفات كثيرة تنخر كيانه وضميره ، هذه الافات هى التى كانت مصدرا اساسيا للهزيمة التى لحقت بالامة العربية عام ١٩٦٧ ، وهى التى نحتاج أول ما نحتاج ، الى حرية فى التعبير تمكن الاديب من ان يجعل قلمه مبضعا يشق به كل دمامل الفساد ، لا مروحة يدغدغ بها العواطف والنزوات ، ويجامل بنسيمها السلطات . . . وقلم الاديب فى معركة بناء الانسان المتهدم ليس اقل أهمية من بندقية الجندى فى معركة استرداد الارض : كلاهما يعمل من اجل استعادة الكرامة العربية المفقودة . فاذا لم يوفر للجندى السلاح ، ولم يوفر للاديب القلم الحر خسرا المعركة التى يخوضانها .

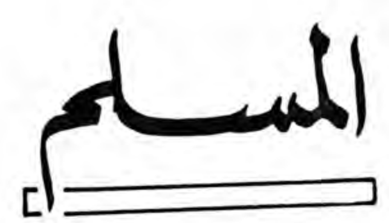
ينبغى الا يكون همنا الاول ان نسعى فى هذا المؤتمر لاقرار توصيات جديدة تصطدم بعقبات فى التنفيذ تذهب بكل حسن النية الكامن وراء اصدارها ، بل لعلنا نحسن صنعا اذ نعالج هذا الموضوع الرئيسى : كيف نمكن للاديب العربى ان يتمتع بحرية التعبير ليقوم بقسطه فى المعركة ؟ صحيح انه لابد من ان يكون ملتزما بالقضايا العربية ، ولكن لنترك له الحرية فى هذا الالتزام حتى لا ينقلب الى الزام وهو العدو القاتل لكل ابداع فنى .

لنتدارس قضية الرقابة ، ولننظر فى أمر الغائها وتقليصها أو نقلها الى اتحادات الكتاب ، ولنتح للافكار أن تتصارع وتتحاور ، ولنرفع عن فكر الكاتب كابوس الخوف ليجد الطمأنينة التى تتيح له الانطلاق فى سماء الابداع والخلق .

ولكن لابد لنا ، ونحن نطالب بذلك السلطات ، من ان نتعهد بأن نناضل من اجل امتنا ، ونكافح من اجل شرف الكلمة .

من كلمات الدكتور سهيل ادريس فى مؤتمر أدباء العرب بدمشق .

وجه الجزائر



● علال الفاسي ●

كنا اعلنا فى المقدمة التى وضعناها لمقال الاستاذ علال الفاسى المنشور فى العدد السابق من « الاصالة » انه اول هذه المقالات ، والواقع انه ثالث المقالات التى خصصها الاستاذ علال لانطباعاته عن الجزائر ونهضتها .

وذلك أن المقالين الاولين مركزان على برنامج الملتقى وسيره وتتابع المحاضرات ومحتواها والمناقشات التى تلتها ، وهى معلومة بالنسبة للقارىء عندنا لانه تتبعها بواسطة اجهزة الاعلام .

ولهذا راينا ان نقتصر على المقالات الثلاثة الاخيرة .

اعتبر الشعب الجزائرى استقلال بلاده منطلقا لكل الحريات الدينية والثقافية التى كانت محبوسة من طرف الاستعمار ، اعتبر استقلال الوطن استقلالا للمسجد وللمدرسة الدينية القرآنية وتحريرا من كل هيمنة تبشيرية او اجنبية .

لقد تحررت المساجد التى كان الاستعمار الصليبى اخذها كنيسة ، وفى مقدمتها مسجد « كيتشاوة » المسجد الكبير بالجزائر العاصمة الذى كان مركزا للانطلاق التبشيرى المسيحى فى افريقيا ، لقد عاد مسجدا كما كان منذ الاسبوع الاول من الاستقلال واقيمت فيه صلاة اول جمعة بامامة وخطبة الشيخ البشير الابراهيمى رحمه الله وبمحضر وفود البلاد الاسلامية المدعوة للاحتفال بالجزائر .

ومنذ ذلك الوقت والشعب يستولى على المساجد التى حولت كنائس ليردها مساجد ، ولم يكتف بذلك بل اخذ يستولى على عدة كنائس بقيت فارغة بعد سفر المستعمرين عن البلاد ، وقد تم الاتفاق بين هيئة اتحاد الكنائس العالمى وبين وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية على انه يحق للمسلمين ان يستولوا على كل كنيسة وجدت فى محل لم يعد فيه سكان مسيحيون ، ولهم ان يحولوها اذا شاءوا الى مسجد او الى ناد او مدرسة ، وفعلا فان الدولة والشعب لم يتقاعس عن تنفيذ هذا الحق فهم يحولون الكنائس غالبا الى مساجد بعد اصلاحها وتغيير ما لابد من تغييره ، وقد زرت عددا من هذه المساجد ذات الاصل الكنسى وصليت بها شكرا لله على ما منحه لمسلمى الجزائر جزاء صبرهم وتضحيتهم فى سبيل حريتهم الدينية والمدنية .

ويتبل الشعب واغنياؤه افرادا وجماعات على بناء المساجد الجديدة فى كل انحاء الجمهورية مشجعين من قبل الولاة ووزارة الشؤون الدينية وهى مساجد عصرية فى هندستها وفى اضافة مرافق جديدة لما كانت عليه المساجد من قبل ولا تألو الوزارة نفسها جهدا فى بناء المساجد ايضا وقد زرت بعضها كمسجد الامام مالك فى وهران الذى هو تحفة رائعة زانه الحفر على الجبص الذى استقدم له صناع مغاربة من فاس .

وتتضمن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ادارة خاصة بالشؤون الدينية تشرف على مختلف اوجه النشاط الدينى فى البلاد (بما فى ذلك الاشراف على رجال السلك الدينى المسيحى واليهودى) بوساطة مصالح ثلاث :

اولا — المفتشية المركزية .

ثانيا — نيابة الادارة للشؤون الدينية .

ثالثا — نيابة الادارة للاوقاف .

وحسب البيان الذى امدتنا به الوزارة يمكن حصر نشاطها فيما يلى :

ا — المفتشية المركزية (تتبعها خمس عشرة مفتشية واحدة فى كل ولاية) ، وتشرف على المساجد فى البلاد كلها . كما تسير رجال السلك الدينى من ائمة ومؤذنين وحزابين وقيمين وتنظيم شؤونهم ، وتنظم دورات تدريبية للائمة بانتظام لرفع مستواهم باستمرار كما تشرف على حملة محو الامية فى المساجد .

ب — نيابة الادارة للشؤون الدينية تقوم باعداد :

— الاحاديث الدينية المذاعة يوميا بالاذاعة الوطنية بنسبة ثلاثة احاديث فى اليوم .

— النشرة التوجيهية الاسبوعية الخاصة بالائمة لتوحيد التوجيه الدينى ورفع مستوى الائمة ومحاربة الشعوذة والتدجيل والخرافات والبدع .

— النشرة التوجيهية الخاصة بوعاظ المساجين مختارة بأسلوب مبسط لتربية وتهذيب المساجين

— كما تقوم باصدار الفتاوى من قبل لجنة الافتاء ، وتنظيم الحج كل سنة .

ج — نيابة الادارة للاوقاف ، ونشاطها المهم فى :

— رعاية تسيير الاملاك الحبسية ،

— ترميم واصلاح المساجد القديمة .

— الاشراف على هندسة المساجد الجديدة حتى توافق المقاييس الاسلامية من جهة ، والفن المعمارى الاصيل من جهة ثانية .

— تجهيز المساجد بالافرشة ومكبرات الصوت (وكل مصروفات المسجد على نفقة الوزارة) .

ومما يلفت النظر فى الجزائر ان المساجد كلها مفروشة بالزرابى التى تشتريها الوزارة او يتبرع بها المومنون .

الموظفون الدينيون فى اطارهم الجديد

يجب الانتباه الى ان الامام اصبح منذ سنة ١٩٦٩ يتمتع بكامل حقوق الموظف فى الدولة ، من منح عائلية وضمان اجتماعى وترقية وعطل وتقاعد الخ .. وبعد أن كان يتقاضى منحة مؤقتة فهو الآن يتقاضى راتبا معتبرا وثيق الصلة بشهادته ومستواه العلمى يتراوح بين ستين الف فرنك ومائة وخمسين الف فرنك .

وقد نظم امتحان مهنى خاص ، لمستوى الائمة والمؤذنين يرسم بمقتضاه كل الناجحين فيه فى درجات تناسب نتائجهم فى هذا الامتحان ، اما الراسبون فيبقون فى مساجدهم ويستعدون للدورة الثانية (وتنظم لهم دروس خاصة فى مدرسة خاصة)

واما الائمة الذين يحملون شهادات علمية كافية فيرسمون بمقتضى شهاداتهم ولا امتحان عليهم .

وتقول الوزارة فى بيانها المعطى لنا أنها تريد بهذه الطريقة ان تبعد الامام المتكاسل وتفتح المجال للامام النشيط الذى يقبل على العلم بارادة وعزم .

واما عدد رجال السلك الدينى الذين تجرى عليهم الوزارة رواتب شهرية حاليا فقد تضاعف اربع مرات من الاستقلال الى اليوم ، فقد كان عددهم اربعمائة واربعين وهم اليوم الف وتسعمائة .

ولا يزال عدد مثل هذا تقريبا يقوم بالصلوات الخمس وصلاة الجمعة تطوعا او على نفقة البلدة او القرية التى يوجد بها المسجد ، وذلك الى ان يرسموا جميعا فى مدة سنتين او ثلاث ان شاء الله .

وهذه الزيادة المستمرة راجعة الى ما اومانا اليه من اقبال المومنين بحماس على بناء المساجد وعلى تحويل الكنائس الى مساجد .

ووظيفة الامام لم تعد قاصرة على اداء الصلوات ، بل هو مكلف ايضا بالقاء دروس الوعظ والارشاد .

وبتحفيظ القرآن للاولاد مدة معينة وبالقاء دروس فقهية منتظمة .

وبدروس محو الامية يوميا داخل المساجد .

وقد بدات حملة محو الامية بمساجد البلاد كلها فى ١٥ اكتوبر ١٩٧٠ ، وافتتح الحملة رئيس مجلس الثورة والحكومة بنفسه فى الجزائر كما قام بتفقد سيرها فى مساجد العاصمة وبعض عواصم الولايات كمدينة سطيف ، وقد ادخلت السبورة الى قاعة خاصة فى المسجد واصبحت كالمنبر ملازمة له ، رجوعا الى الاصل الاول ،

ووزعت الوزارت مجانا على المساجد عددا ضخما من الكتب ، كتاب لتعليم القراءة فى جزاين ، كتاب الخط ، كتاب الحساب ، كتاب المعلم .

وقد افتتحت الوزارة مدرسة خاصة ببلدة مفتاح سمتها المدرسة الوطنية للاطارات الدينية وذلك لتوسيع افق الائمة الحاليين فى شؤون الدين واساليب التربية .

لقد زرت مساجد كثيرة واديت بها بعض الصلوات فكان اعجابى كبيرا بعدد المصلين الحاضرين من الشيوخ والشباب ، والقيت فى مسجد يوسف بن تاشفين بتلمسان درسا فى تفسير سورة لم يكن الذين كفروا ، حضره جم غفير من الناس ، كما القيت درسا بمسجد سيدنا على بمدينة وهران وهو من المساجد التى بناها الشعب ، كان موضوعه تفسير قوله تعالى : (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلف الوانها) وقد خرجت لهذا الدرس من النزل الذى كنت فيه ، فى موكب فخم مع رتل من السيارات المقلة لوفود البلاد الاسلامية ، وكان المسجد غاصا بالمصلين الذين لم يسعهم

فابتاحوا فى الشارع القريب ، وفى العاصمة القيت كذلك درسا فى تفسير قوله تعالى : ان قارون كان من قوم موسى الآيات) وقد حضره وزير الشؤون الدينية ومفتى العاصمة الذى اطلعنى فى خزانة المسجد على نسخة من صحيح البخارى بخط سيدى عبد القادر الفاسى وقال لى : انها هنا كالشيخة لتصحيح نسخ الصحيح عليها .

للائمة فى المساجد بنيقة او مقصورة خاصة بها بعض الكتب وطاولة والتلفون ومحل الوضوء .. ويظل الامام فى المسجد لمقابلة السائلين او القيام بالشؤون المنوطة به وأداء الصلوات والقاء الدروس .

ارجو ان يكون المسؤولون فى بلادنا من القارئين لهذه الاخبار التى جئت بها عن عيان ومن مصادرها الاصيلة ليدركوا مقدار الخطيئة التى يرتكبها من يهمل فى بلادنا تطوير احوال السلك الدينى ويعوق عن مواصلة تخريج العلماء والمثقفين فى المعاهد الدينية المختصة لذلك . انها لخطيئة عظمى أن نرى ما يفعل اخواننا وجيراننا ونسير نحن فى هدم ما خلف اسلافنا ولكن : (ان ربك لبالمرصاد) .

الطبقية الثقافية

« ... قد تكون ظاهرة التخلف المتولد عن قرون من الجمود الفكرى والسياسى والاضطهاد الاستعمارى اكثر ظواهرنا المعاصرة خطورة على مستقبلنا ومصيرنا . والتخلف الذى نعنيه يتجاوز انخفاض مستوى المعيشة والهبوط الفكرى لدى المثقفين والحكم المطلق فى السياسة . ان هذه امية متفشية الى اقصى حدود التفشى لدى جماهيرنا العربية . واذا استثنينا القليل من الجهود التى تذبلها بعض المصالح العربية ، فان الامية فى مجتمعنا قد بلغت حدا مخيفا يجعل اى نوع من انواع المشاركة الفعالة لهذه الجماهير فى معركة المصير غير مأمونة العواقب ، وغير ذات اهمية . ومن الجناية على هذه الجماهير أن ثرواتها الطبيعية ومصادر دخلها الاساسية تصرف فى شتى انواع البذخ والترفيه على اقلية محظوظة وطبقة ممتازة فى عصر نحن فى اشد الحاجة الى الثقافة الشعبية ونشر الوعى وازالة الحواجز الطبقية وتكوين مجتمع « الصالح العام » .

ولابد من الالحاح على هذه الطبقية الثقافية التى تميز واقعنا العربى . وليس يخاف أن قرون الجمود وسنوات الاستعمار المظلمة قد مكنت لطائفة من الشعب العربى أن تسمن فكريا كما سمنت اقتصاديا . وبذلك تكونت « نخبة » ممتازة فى ميدان الفكر والثقافة كما تكونت « اقطاعيات » ممتازة فى ميدان الاقتصاد والاجتماع . واذا كانت هذه الاقطاعيات قد بدات تتساقط كأوراق الخريف فى الوطن العربى ، فان النخبة الثقافية ماتزال تهد جذورها وتبسط نفوذها ... »

من بحث عنوانه « من حضارة الشعر الى حضارة العلم » للدكتور ابو القاسم سعد الله ..

د . محمد العربي ولد خليفة

استاذ بكلية الآداب

جامعة الجزائر

الإلتزام الايديولوجي



على الرغم من ان قضية الالتزام الايديولوجي وعلاقته بالبحث العلمي الاجتماعي لم تكن الى عهد قريب من بين الموضوعات التي تؤرقنا في الجزائر ، فانها تعتبر في الواقع اساس البحث في هذا الميدان ومحور الجدل فيه .

وليس بدعا ان تكون الايديولوجية هى منبع البحث فى العلوم الاجتماعية ومصبه ومركـــز الاهتمام ومداره ، وليس غريبا ان تتنوع التجربة الانسانية وان تتعدد بالتالى الواجـهات التـى تعرضها فان الناس كما يقول (هوايت هيد) يطلبون من جيرانهم قرابة تكفى للفهم واختلافـا يثير الانتباه وجلالا يبعث على الاعجاب ، غير ان الذى يعد بحق ردة وبدعة هو اعتبار المجتمـع مجرد مادة خاملة يمكن وضعها فى انبوبة اختبار فتنصهر باللهب وتتفاعل بالاحتراق ، او النظـر اليه وكانه لوحة مطرزة يحوم حولها الفكر مـن بعيد ليتامل وبمنطق وبجرد وينسق دون ان يقتحم الميدان ويتمرس بالواقع الاجتماعى ويشاهـده عيانـا .

ان الايديولوجية جزء من الواقع الاجتماعى تمتزج به ولا تنفصل عنه فهى مجموعة الافكـار والمعتقدات واتجاهات التصور والتصديق التى تشخص جمعا معينا من الناس سواء اكـان هذا الجمع امة ام طبقة ام مذهبا ، ويعرفها ماركس فى الموسوعة السويدية وفى مواضع اخرى — مع انغلز — فى المانفستو بانها المذهب السياسـى الشرعى الذى يمثل الغطاء الفنى والفلسفـى للانتاجية الاقتصادية كاساس للبناء الاجتماعى .

ويذهب كل من كارل مانهايم وفرو من وبيكر الى اقامة علاقة وثيقة بين الايديولوجية والتغير الاجتماعى فى مختلف صوره وانساقه وبالعلـوم باعتبارهـا اداة التكنولوجيـة الاجتماعـية ، فباستثناء الدين — الذى يبدأ من اسس مطلقة ليتراجع منها الى جزئيات يفرغ عليـها قـوة المسلمات اليقينية — فان كل علم فى حاجة الـى اطار نظرى يكون مرجعا للتبرير .

٢ — وليس القصد سرد تعاريف الايديولوجية او مناقشة تطور مدلولها خلال المذاهب وعبـر تاريخ الفكر (١) فان الذى يعنينا هنا هو تعـرف الصلة بين العلم — والعلم الاجتماعى بوجـه خاص — وبين الايديولوجية ولكى تتضح هـذه الصلة ينبغى ان نضع فى حسابنا جملة قضايـا اوليـة :

اولا : اذا كانت العلوم الاجتماعية قد تعـددت

واو غلت فى التخـصص فـان الواقـع الاجتماعى واحد لايتعـدد فهـى اشبـه بالروافد التى تخرج من نبع واحد لتعود اليه بعد مطاف طويل اكثر غزارة وجـدة وثراء ، غير أن هذه العلوم تعانى فى جميع دوائرها من التعقد فى الموضوع والقصور فى التعميم والاتساع فى التضمن والنقـص فى الشمول وهذا ليس بنقـص فيهـا اذا اخذنا بعين الاعتبار سلم تطور المعرفة من المستوى اللاعضوى الى العضوى الى مافوق العضـوى . أن العلـوم اللاعضويـة استطاعت أن تصل الى درجة عالية مـن الضبط واليقين والتعميم والقابلية المرنـة للتطبيق فقد برهن مثلا قانون الجاذبيـة لينوتن على وضوحه وصدقه فى مراحـل التجريب والتفسير والتطبيق ولعل هـذا ما جعل الفزيائى البريطانـى تومسـون يقول : « ان النظرية سياسة اكثر منهـا عقيدة فموضوعها هو الربط بين الظواهر او التنسيق بينها بغية الايحاء بالتجربة او استثارتها فوق اى اعتبار آخر »

ولذلك ينبغى التسليم بادئى ذى بدء بـأن هناك عددا محدودا من الظـواهر يمكـن فهمها بعدد قليل من المفاهيم والفـروض وبدون هذا التسليم يتوقف كل مجهـود علمى ونتراجع الى الفكرة العتيقة التـى تزعم بان الطبيعة خواء وان الجهد الفكرى هبـاء .

ان المفاهيم والفروض التى تفهم ظواهر الطبيعية فىضوئها هى فى الواقع من ابتكار الانسان فليس للعلم وقوانينه وجودا مستقلا يجعله جزءا من الطبيعة فالعلم وقوانينه بهذا المعنى جهد يبذله الانسان ليبسط الظواهر ويفهم سننها ويتحكم فى سيرها .

وهذا يعنى ان هذه المنطقة ليست بمنجاة من الاحتكاك بالايديولوجية فقد واجهت النظرية النسبية ردود فعل عنيفة فى الاتحا السوفياتى واطلق عليها البعض اسم النظرية الرجعية الاينشتانية لانها تشك فى احد مبادىء الماركسية وهو موضوعية الحقيقة وذلك حتى سنة ١٩٥٥ عندما اكد الكسندروف أنه لاتعارض بين النظرية النسبية والماركسية لان الاولى جزء من الحقيقة الموضوعية غير المشروطة ومن هنا اتضح ان ما هو نسبى يختلف عما هو غير موضوعى .

ويأتى فى المستوى الثانى العلوم العضوية المتمثلة فى الفزيولوجية والبيولوجية وفروعهما التى حققت فى القرن الماضى تقدما باهرا على يد دارون ولامارك وكلود بيرنار الذين استخدموا مناهج المستوى السابق « اللاعضوى » فى دراسة الظاهرة الحيوية .

أما العلوم فوق العضوية وهى العلوم الاجتماعية فهى تختلف عن المستويين السابقين وان كانت تنتمى اليهما — لان الانسان كائن عضوى يعيش فى محيط بعضه فيزيقى — اقول ان هذه العلوم تقع فى اكثر المناطق تنوعا وتعقدا وتغيرا ، فلا مراء فى ان الانسان هو اعقد الكائنات طراكما أنه منشىء المعرفة وجانى ثمارها وهو فى هذه المنطقة يجد نفسه دارسا ومدروسا عارفا ومعروفا وهذا هو سر تأخر العلوم وحاجتها المتزايدة للاستعانة بمناهج ونتائج العلوم الرياضية والطبيعية والبيولوجية ، ففى علم الاجتماع نجد أن هناك علم اجتماع رياضى وآخر فزيائى وثالث عضوى ورابع ميكانيكى وتكشف المقارنة التالية التى يعقدها كارى بين القوانين الفزيائية والاجتماعية عن مطامح واحد من اكثر العلوم الاجتماعية تقدما :

القوانين الفزيائيـــة

١ — تنجذب جميع اجزاء المادة بعضها ببعض ، ويكون الجذب اطراديا بالنسبة للكتلة وعكسيا بالنسبة للمسافة .

٢ — تخضع المادة لعوامل مركزية ولا مركزية فتعمل الاولى على خلق مراكز محلية بينما تعمل الثانية على هدمها وخلق كتلة مركزية واحدة تخضع لقانون واحد .

٣ — كلما كانت هذه العوامل تامة كلما كانت حركة الاجسام اكثر وحدة واقرب الى الثبات .

٤ — كلما اشتد فعل هذه القوى او العوامل كلما كانت الحركة اسرع والقوة اكبر .

٥ — كلما كانت القوة والحركة الناتجة كبيرة كلما اسرعت فى حركتها واتجهت الى تفكيك الكتل وافراد الاجزاء المكونة لها وكلما كان الاتجاه نحو الاجزاء اكبر كلما كان جمعها اسهل واسرع والقوة الناجمة اعظم .

القوانين الاجتماعية المشابهـــة

١ — يخضع الانسان لنفس القوانين فينجذب الافراد بعضهم لبعض ، ويكون الجذب طرديا بالنسبة لعدد السكان وعكسيا بالنسبة للابعاد والمسافات .

٢ — وبالمثل تنجذب المراكز المحلية الانسان فى اتجاه واحد بينما تجذبه المدن الكبيرة — التى هى بمثابة مراكز للعالم — فى اتجاه آخر .

٣ ــ وبالمثل كلما كانت هذه العوامل تامة التوازن كلما كان الاتجاه أكبر نحو الشخصيات الفردية واتساع مدى الارتباط والتضامن داخل المجتمعات المحلية وكلما زادت الثورة والحرية زاد الاتجاه نحو الانسجام والسلام .

٤ ــ يصبح الانسان نتيجة لاتساع نطاق الحركة واشتداد القوة اكثر خضوعا لقوانين الاجتماع الانسانى .

٥ ــ تنمو الفردية بسبب اختلاف ظروف العمل التى تستتبع اختلافا فى طلب الانتاج ، وكلما كان الاختلاف اكبر كلما كانت قدرة الانسان على توجيه قوى الطبيعة أعظم .

ثانيا على الرغم مما يبدو من تباعد العلوم الانسانية من ناحية الموضوع والمناهج والادوات وتشتت نتائجها عند التفسير فانها بلاريب تلتقى فى قطر الدائرة المعرفية ومحورها الا وهو الانسان ، فان الظواهر سواء أكانت اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية هى فى النهاية من صنع الانسان ، منه تبدأ واليه تعود فهو الذى يعطيها مدلولها وهو الذى يتلقى آثارها باعتباره فردا وعضوا فى جماعة ، وهذا الانسان ــ كما يقول مود سلى

اعظم من أن تفسر مظاهر نشاطه طريقة واحدة من البحث سواء أكانت ماكروسكوبية (تتبع العالم الاكبر أو ميكروسكوبيه (تتبع العالم الاصغر) .

ثالثا أن العلم قد أصبح وثيق الصلة بالمجتمع والذين لايزالون يقيمون الحواجز والفواصل بين العلم والحياة الاجتماعية بين النظرية وامكانيات تطبيقها هم فى الواقع ضحايا لاوهام (التيوريزم) أو التنظير .

ان العلماء يشعرون اليوم بأن على كاهلهم مسؤوليات لابد من مواجهتها بثقة ورباطة جاش ويمكن اجمال أهم هذه المسؤوليات فيما يلى :

١ ــ ابراز ما فى العلم من أخطاء مثل نظرية الاجناس البشرية وابراز الاخطاء العلمية فى الآراء المتعلقة بالحركات الاجتماعية الهدامة .

٢ ــ تنظيم النقد العلمى عن طريق الجهود التعاونية حتى لايطغى الضجيج والعناد على الحقائق المتزنة .

٣ ــ تقديم الادلة المادية على ما بين العلم والشؤون الاجتماعية من صلات قوية حتى يقتنع العلماء بضرورة اسهامهم جميعا فى الشؤون الاجتماعية لخير العلم نفسه .

٤ ــ وصف التحسينات الاجتماعية المرغوب فيها للتقدم العلمى وايضاح أن النظم الاجتماعية السيئة تعوق تقدم العلوم وأن هذا التعويق نفسه قد يؤدى الى نظم اجتماعية أسوأ .

٣ ــ ولتوضيح ذلك يمكن أن نضرب مثلا من ايديولوجتين متباينتين :

ففى الايديولوجية الفاشية تخمد أنفاس الحرية العلمية وتطمس كل الحقائق التى لاتلائم أهداف الجماعة الحاكمة ، وسرعان ما يجد العالم نفسه مسخرا لخدمة اغراض ونزوات عابرة وهكذا تنطفىء كل ومضات الخلق والابداع ولا تنقدح جذوة الاصالة والابتكار .

وتجد هذه الايديولوجية تربة خصبة فى النظام الراسمالى فهو الذى يفرزها وفى ظله تنمو وتترعرع ، وقد أوجز آدم سميث فى كتابه المعروف عن « حب الثات : مبدا التعامل السائد فى المجتمع الانسانى » الخصائص التى تجعل

النظام الرأسمالى يحمل دائما بين جنبيه خطر الفاشية يقول : اننا لا نتوقع غذاءنا من الجزار او الخباز صانع الجعه على أساس حبهم للخير ولكن على اساس حبهم لانفسهم ولا نتحدث « اليهم البتة عن ضرورياتنا نحن بل عن استفادتهم فما من أحد غير المتسول يقبل الاعتماد اساسا على حب مواطنيه للخير . »

ويبدو اثر الايديولوجية الاشتراكية فى صورة مخالفة تماما فمهمة العلماء فيها هى التدعيم العلمى والعلمى لابناء الاشتراكى ودراسة القوانين التى تحكم عملية الانتقال الى الاشتراكية الحقيقية والكاملة وذلك باقامة علاقات اجتماعية وثقافية واسلوب حياة مطابق لاسس النظرية الاشتراكية وهى اسس تربط بين الحرية والتقدم من خلال التطور التاريخى وتاخذ بعين الاعتبار العناصر المادية وان كانت لاتقف عند حد تجمع السلع فالتقدم يعنى نمو الحرية وهو يتكون بالتالى بتزايد السيطرة العاقلة على البيئة المادية وعلى ظروف الحياة الانسانية وتتضمن هذه السيطرة ثلاث عناصر متميزة :

١ — نمو الصناعة والتكنولوجيا وبالتالى نمو الانتاج .

ب — سيطرة الانسان الجماعية على علاقته الاقتصادية وكافة شروط الانتاج والتوزيع .

جـ — مقدرة الانسان من خلال هذه السيطرة على تنمية خصائصه الانسانية المميزة .

٥ — اقتناع العلماء الذين لايذيعون آراءهم السياسية والعلمية بتعضيد الحركات الانشائية التى تقوم على اسس سياسية عادلة وتعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية .

ويوضح المثالان التاليان اثر الصراع العقائدى فى صياغة النظريات العلمية وتوجيه مناهج البحث .

١ — واجه علم النفس فى الثلث الاول من هذا القرن مأزقا حرجا عندما انكر متطرفو اليسار نواحى النقص الوراثية فى الانسان واعلنوا ان القياس النفسى —

بدعة برجوازية تكرس الفروق الفردية وتبرر الاستغلال الذى تمارسه الطبقات الكادحة بينما الناس فى الحقيقة سواسية كأسنان المشط وان المسؤول عما بينهم من فروق هو النظام الاجتماعى الذى يتيح فرص النمو العقلى والسواء النفسى للمحضوضين ويحرم غيرهم من الذين ينشأون فى بيئات فقيرة . وانتهى هؤلاء المتطرفون الى رفض علم النفس الفارق منهجا وموضوعا لانه علم

يناقض تعاليم العدالة الاجتماعية المطلقة وينطلق من مسلمة مؤداها ان المواهب فطرية وان وجود الطبقات المسيطرة امر طبيعى ومشروع .

اما متطرفو اليمين فقد وجدوا فى القياس النفسى التهم المنشودة ، ولذلك ازدهرت كثير من الابحاث فى شمال امريكا وفرنسا وبريطانيا والمانيا وايطاليا تزعم ان الانحرافات النفسية والاجتماعية تورث مثلما يورث لون الشعر وطول القامة واستخلصوا من ذلك تعميمات مضللة مثل تلك التى انتهى اليها ديفنبورت والقائلة بان بيض امريكا اذكى من زنوجها وان الاجرام سلوك موروث فى قبائل الجوك والكاليكاس وان الآريين اقدر على الابداع من اى جنس آخر ، وهذا ما يفسر ازدهار اساليب القياس النفسى واوجه تطبيقه فى تلك البلاد لان العمال يمكن ان يسرحوا بوسائل فنية لاخفاقهم فى اخيارات الانتقاء والتوجيه المهنى والتلاميذ يصنفون فى فئات حسب نسبة الذكاء ويحرمون باسم العلم من دخول باب الجامعة الخ ..

ب ـ لقد لعبت الايديولوجية الراسمالية فى المجتمعات الغربية (فرنسا وبريطانيا بوجه خاص) دورا حاسما فى توجيه الدراسات الانثربولوجية نحو الاتجاه التطورى فقد اعتبرت الثقافة (٢) الغربية ارقى ما وصلت اليه الانسانية عبر تاريخها الطويل بينما كان ينظر الى بعض الثقافات السائدة فى افريقيا وآسيا واستراليا باعتبارها تمثل نقطة البداية ولمعرفة الاشواط الوسطى التى قطعتها الثقافات ينبغى القيام بدراسات تراجعية يكون المعيار فيها هو النقطة الحضارية التى يقف فيها الغرب اليوم ، وفضلا عما فى هذا الافتراض من تجنى يقوم الثقافة من جانبها التكنولوجى فحسب ويغفل عن اسس التنظيم الاجتماعى الاخرى مثل النسق الاخلاقى والدينى الخ .. فضلا عن ذلك فان الهدف الحقيقى لهذه الدراسات هو الوصول الى فهم اعمق لهذه الشعوب المسماة بدائية تمهيدا لاستغلالها واستعمار اراضيها ولم يكن عجبا ان يقوم الانتربولوجيون بعمليات الاستكشاف الاولية قبل كل حملة استعمارية ، وهكذا سخرت الايديولوجية علما من احدث العلوم ووجهته وجهة خاطئة تتخفى وراء مسوح العلم .

٤ ـ ان العالم لايلبث أن يقتنع خلال الشوط أو وهو على مشارف النهاية بأن هناك قضية وحيدة جديرة بأن يكافح من اجلها هى قضية الانسان فى آلامه وتطلعاته فى سعادته وشقائه . لقد قضى راسل زهاء نصف قرن وهو يشيد صرح الرياضة لبنة لبنة بنصل « اوكام » الصارم حتى اصبح ، امامها والداعى لها والذى وطاها للجميع ولكنه وجد نفسه فى نهاية الشوط أمام سلسلة لاتنتهى من الطوطولجيات (تحصيلات حاصل) لم تغنه شيئا ولم تشف غليله التواق الى الحقيقة المتمثلة فى الواقع الانسانى كما هو فى الهنا والآن ولعل هذا ما جعله يختم سيرته الذاتية بهذه الكلمات المؤثرة :

« لقد كان من نتائج الحرب انها جعلت من المحال بالنسبة لى ان أواصل حياتى فى عالم من التجريد اذ تعودت ان ارقب الفتيان وهم يرحلون فى قطارات نقل القوات المسلحة لكى يذبحوا على ضفاف نهر السوم ، لان القواد كانوا اغبياء وكنت أشعر بحنو موجع على اولئك الفتيان ، وكنت اجد نفسى وقد اتحدث مع العالم الواقعى فى قران من الانم وكل ما كان لدى من افكار محلقة عن عالم الافكار المجرد بدا لى هزيلا واقرب الى التفاهة بازاء ما كان يحيط بى من العذاب الشامل وبقى العالم غير الانسانى ملاذا الجالية من وقت لاخر وليس وطنا يبنى فيه الانسان مسكنه الدائم . »

محمد العربى

(للمقالة صلة)

---

(١) بدأ استخدام كلمة ايديولوجية بمعناها الحديث فى مستهل القرن التاسع عشر ويقال ان الفيلسوف تراسى Tracy قد اقترح على المجلس الوطنى الفرنسى سنة١٧٩٦ اطلاق هذه الكلمة على الفلسفة العقلية

(٢) يقصد بالثقافة فى هذا المجال ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والعقائد والفن والاخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الاخرى التى يكتسبها الانسان من حيث هو عضو فى المجتمع .



سنبحث عن الفعاليات الـــتي يتحقق بها التحرر ، وعـــن الطرق التي تؤدى الى هذا التحقيق :

— ما هي مفاهيم الملكية ؟

— ما هي الانفعالات الـــوجدانية التي تنشأ عن التملك ؟

على هذا المستوى ، سنجد ان الفعاليات المحررة تتصل بالتزام : بالصراعات المجتمعية ، وبما يعترى البيئات البشرية من انسجـــام أو اختـــلال .

فكرة الملكية وفكـرة العمل

منذ العصور القديمة ومشكل التملك يشغل الفكر الانسانى . ولكى نظهر ارتباطه بمشكـل التحرر ، قد يكفينا أن ننظر اليه فى شكله الممتاز، اى كعلاقة بين الشغل ونتائجــه . لكــن هذه النتائج ان هى الا افعال تثبت الوجود الفعلى لمن يقوم بها ، وتتيح له أن « يتموضع » ويتحقق (١) اما التملك،فحتى حينما يظهر امتدادا للشخصية، فى عالم الاشياء ، او فى شكــل « مشاركة » ، يبقى مرتبطا ارتباطا لا ينفصل بفكرة الحرية . اليس الرق والاسترقاقية الا صورا ناطقة لذلك؟

لقد كان الاقدمون يميزون ، مثلما نفعل نحن اليوم ، بين نوعين من الملكية ، ملكية المتــاع وملكية العقارات ، ومن الممكن ان يعد العبد من هذا الصنف أو الاخر ، على السواء . كـــان العبد الملحق بشخص المالك او المــواطن الحر ينتقل من سيد الى آخر ، ومن يد الى يد،كقطعة من المتاع . وهناك أيضا العبد الذى من صـــنف العقارات ، نعنى أنه يشبه الارض التى كـــان ملحقا بها . وهذا ما سمى فى عصور سالفـــة بالاسترقاق الارضى (٢) .

فمشكلة التملك لا تتعلق بالنظام الاقتصادى فحسب ، بل ان معنـــى الانســـان ومصيره ، وتحرره ، كل ذلك يوجد ، ضمنيا فى مشــكل التملك . كما يحتــوى هــذا المشكل عــلى كل العلاقات التى تربط الناس فيما بينهم . ولذلك عكف المفكرون ، باختلاف اختصاصاتهم ، على دراسة علاقة الانسان بالملكية ، ســـواء منهم المؤرخون ، أو السوسيولوجيون ، أو الفلاسفة ، أو الايثنوغرافيون ، أو رجــال القـــانــون ، أو المشتغلون بالاقتصاد . انها مشكلة اساسية ، لا بالنسبة لفهم حضارة ما وقيمة الحريات التى ترتكز عليها فحسب ، بل كذلك لمعــرفة الكائن الانسانى من الناحية السيكولوجية . فـ « ما هو ملك لنا » يظهر أنه يدخل فى اعماق ذاتنا ، ويوسع افقها : فكونى « مالكا لشىء » معناه انى اكون واياه وحدة ، اى ان ما املكه يصير ، ماديا ومعنويا ، جزءا منى . وهذا ما يذكــرنا بمثل مغربى « المال من الاكباد » .

* * *

توجد عند « أفلاطون » احدى الانتقـــادات الاولى التى وجهت للملكية . لقد دعا ، بطريقة مطردة ، الى نظام فلســـفى — اقتصـــادى — سياسى تصبح الملكية فيه ملكا مشتركا (٣) : « اريد ، اولا ، أن لا يملك احد شيئا يكون خاصا به الا اذا كان ذلك ضروريا » . ولكن هذا النظام لن يكون مطبقا الا على حراس المدينةالافلاطونية وحدهم ، اما الطبقات المنتجة فانها،على العكس من ذلـــك ، تعيــش تحت نظـــام الملكيــــة الشخصية .

ثم جاء ارسطو فدافع عن الملكية الشخصية ، دون أى حصر ، وعلـــى الاخــص منهـــا الملكية العقارية ، بل انه برر الاسترقاق (٥) . فالارقاء من الملكيات الشخصية ، بلـــه مجــرد « آلات حية » ،وسيظلون كذلك ما لم يتحقق « الحـــلم الاكبر » : لو استطعنا « أن نعطـــى امرا ، أو نقوم باشارة لكى تؤدى كل آلة عملها (...) لما احتاج المهندسون الى عملة ، ولا الاسيـــاد الى عبيد » (٦) . حين ذاك ستحتل الآلات مكان العبيد ، فى جميع الاعمال على اختلافها ، دون

---

(١) موضـــع Objectiver

(٢) انظـــر : F. de boulange, la cité antique :

(٣) الجمهورية ، الكتاب الثالث A. Koyré « Introduction à la lecture de Platon »

(٥) ان المدينة ، كما يراها أفلاطون « ليست مطلقا مدينـــة شيوعية » ص ١٤٥

(٦) امتلك ارسطو نفسه خمسة عشر رقيقا !

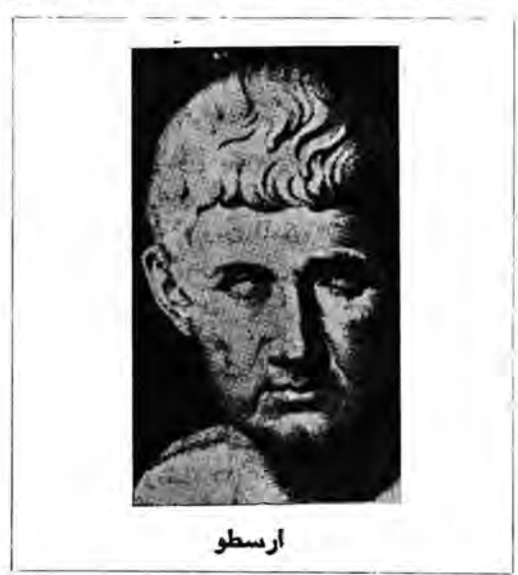
ان تنتزع من المواطن الحر حريته،ودون ان يحرم من التفرغ للتفكير المجرد والتأمل . انــه حلم عظيم ، غير ان تحقيقــه ليــس الا افتراضات ومتمنيات ارسطية ... فالطابع الانتفـــاعى والنسبى لنظام جائر ، كالاسترقاق ، قد غاب عن ارسطو ، مع ان السفسطائيين قد لاحظوا ذلك قبله . فـ (هيبياس Hippias) يؤكد انه ليس للاسترقاق اى اساس فى الطبيعة البشرية. وكذلك الشأن ، حسب « أنتيفون Antiphon » بالنسبة لاعتقاد الاغريق ، انهم مخالفون ، تمام المخالفة ، للاجانب (بربار Barbarus) .

الرواقيون ، هم أيضا ، يودون أن تــؤسس مدينة ذات ابعاد شاسعة يشترك جميع الناس فى تسيير شؤونها العامة . فكر (زينون) فى «شيوعية» تامة تتعدى الاشتراكية الاوليغارشية التى امتدحها افلاطون فى جمهوريته ، فمــؤسس المذهب الرواقى لم يميز مطلقا بين يونانواجانب، بين مواطنين احرار وارقاء ، وبذلك ابرز خطوطا لفكرولوجيا (٧) نبيلة ترمى الى « النزعة العالمية » التى ستتضح جليا ، فيما بعد ، عنــد رواقــى الامبراطورية ، مثل (سنيكا) و (مارك اوريل) .

* * *

يجدر بنا ان نذكر ، كذلك ، بموقف ابــى ذر الغفارى ، فى القرن الاول للهجرة (القرن السابع بعد الميلاد) . لقد دعا هذا الصحابى الى الغاء مطلق للملكية الشخصية ، بل وحض على «ثورة الفقراء» منأجلاقامة مجتمعيسودهالتساوى التام. لم يكف ، طول حياته ، عن ترديد هذه العبــارة النارية : « ويل للاغنياء من الفقراء ! » ولكن ابا ذر لم يترك أتباعا وانصارا لنظريته ، بل ان الاتجاه المعاكس هو الــذى استأثر بالعقــول والانظمة ، فى كل الامّة الاسلامية .

ويتسع نطاق مشكل الملكية ، مع ابن خلدون، فلم يعد يهم الميدان الشرعى فحسب ، ولا ميدان الفلسفة وحده . فنظرية ابن خلدون ترتكز على الواقع المجتمعى والاقتصادى ، اكثر منهــا على اى شىء آخر . فمن ذلــك الحــين ، أصبحت فكرة الملكية مرتبطة بتوزيع الخيرات ، وبالسلطة السياسية ، وباختلاف الطبقات . وشروح ابن خلدون ، فى هذا الموضوع ، تثير قضايا مهمة صارت فيما بعد ، قضايا المصلحين الاقتصاديين



ارسطو

والمجتمعيين ، وقضايا الموسوعيين ، مــثل « برودون Proudhon » « وكونسيديران Considérant » و « انجلز Engels » و « ماركس Marx » (٨)

يرى ابن خلدون انه يجب ، قبل كل شىء ، أن نعتبر مختلف أصناف الخيرات مـ نحيث فائدتها

(٧) فكرولوجيا Idéologie

(٨) ارسطو ، كتاب السياسة ، ج ١ ، ص ٤ . ان افلاطون ، بالرغم عن كونه من اسرة ارستقــراطية ، تشجع فصرح بان للارقاء عقلا . يمكن اعتبار هذه النظريةجد ثوريــة اذ ذاك .

العلمية . فالشىء لا يمتلك حقا الا اذا استعمل. فالاولية هنا قد اعطيت لاستعمال الشىء الفعلى، مما يخالف تماما المفهوم القانونى للملكيـة فى الفقه الرومانى .

هكذا يقترب ابن خلدون من ابى ذر الغفارى، لكنه لا يذهب بعيدا فيلح فى الطلب بالحذف التام للملكية،يرى ابن خلدون أن الملكية شىء معنوى ضرورى . ولكن بما انــه مفكـر ذو نزعـة انسية (٩) واقعية ، دعانا الى أن نهتم بالحاجيات الضرورية قبل ان نفكر فى الكماليات والبـذخ ،



افلاطـــون

حتى يتسنى للجميع ان يحصل على ضمـانات بمقتضاها يرضى حاجياته الحيوية .

* * *

تطرح الملكية ، فى العصر الحديث ، مشـاكل أكثر تعقيدا مما رأينـا . فالعـلاقات البشرية تتركز ، باستمرار ، فى وسائل الانتاج المختلفة ، وطرق تغيير المادة ، وقابلية التملك والسيطرة على هذه المادة ، وكسب المنتجات التى تصنع منها بالعمل . من هنا اصبح الشغـل جـزءا صميميا من وعى الـ « أنا » لذاته ، بصفـة الـ « أنا » فردا ، وبصفته ملتزما بروابط مع الـ « نحـن » .

فى دياليكتيك المبادلات ، وفى علاقـة المـالك بالمتلكات ، يظهر العمل ، (رغم التعارض بين الطبقات) ، كمنبـع للقيم ، ومكـون شامل ، واساس للوحدة داخل التعدد .

هناك مستويات يجب التمييز بينهما :

اولا : مستوى العمل الذى يحررنا بارضـاء الحاجات البيولوجية .

ثانيا : مستوى العمل (بعد أن أصبح فنا) . انه يحررنا من ربقة حاجات تضغط علينا جدا . فبمساعدة العمل نتجاوز الحياة النباتية المحض، ونعى انفسنا بأننا لسنا مطلق جهاز هضمى .

فالفكرة الحديثة عن تحرر الانسان (١٠) تطرح متصلة اتصالا وثيقا بالقـدرة عـلى التملك ، والعمل ، والربح ... وبما أن الحريات تتداخل فى سياق المحيط التاريخى والاقتصادى للبيئة ، كان من النادر ان نصادف فلسفة انسية كبرى ، وخاصة فى عصرنا ، لا تعطى تلك المشاكل مكانا خاصا .

مثلا : لا يمكن ابدا شرح مذهب (هيجل) دون ان ناخذ بعين الاعتبـار ما فى هـذا المذهب من اتجاهات سياسـية ومجتمعـية . ان فلسفة (هيجل) تعكس ، من بعض الوجوه ، مطامح الطبقة الوسطى بالمانيا ، فى القرن التاسع عشر،

(٩) انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، الباب الخامس ، الفصل الثانى ، وكذلك كتابنا Ibn Khaldûn, Paris, Seghers, 1969.

(١٠) انســن : HUMANISTE

تلك الطبقة التى تريد التحرر من النظام الاقطاعى . بيد انها لم تتوافر بعد على قوة تخولها قلب الاوضاع ، فكانت مضطرة ان تذعن، دون رضى ، لمخلفات الماضى .

ان (هيجل) يهتم بعلاقات كل طبقة بالشغل، كما يهتم بما بين الطبقات من ترابط ، وهذا معنى من المعانى الممكنة بالنسبة للجدل الهيجلى حول « دياليكتيك السيد والعبد » . فالدور الاساسى للرقيق هو ان يصنع اشياء تصبح ملكا للاخرين. وبما أن وجود الرقيق مقيد بوجود الاشياء التى يصنعها ، فان الذى يملك تلك الاشياء يسلب الرقيق حريته ويجعل كينونته الحقيقية تنسج من استرقاق ذاته وتنحصر فيه . ولكن ، بما أن (هيجل) محافظ بالرغم عن رفضه للعبودية التى يتضمنها النظام الصناعى الذى يخضع فيه الفرد لعمله ، يعتبر نظام عدم مساواة الملكية الفردية نظاما ضروريا . ولكى يتخلص (هيجل) من هذا التناقض ، يحول المشكل الاقتصادى والمجتمعى ، الذى تطرحه ظاهرة استلاب الحرية ، الى مشكل فكرولوجى للعلاقات بين الوعى وموضوعه . فدياليكتيك « السيد والعبد » تبقى ، اذن ، فى مستوى العلاقات بين وجدان ووجدان آخر .

* * *

اما « كارل ماركس » ، تلميذ ، هيجل ، فيطرح من جديد مشكل استلاب الحرية ، حرية العامل فى النظام الراسمالى ، ويحاول ان يجد لهذا المشكل ، على الصعيد الاقتصادى والمجتمعى ، حلا اقتصاديا ومجتمعيا . يرى ماركس أن لا وسيلة مرضية لازالة سبب استلاب الحرية الا بالغاء نظام الملكية الخاصة .

ربما اعترض على ماركس بما يلى :

نشاهد اليوم ان الامم السكندنافية قد حافظت على الملكية الشخصية ومع ذلك حققت رقما عاليا من الرقى المادى والرفاهية ، لصالح مجموع السكان ، على السواء ، دون فروق طبقية ، مما وفر لكل مواطن الشروط الخارجية للتحرر. اما فى الاتحاد السوفييتى والديمقراطيات الشعبية ، فبالرغم عن تقرير مبدا حذف الملكية الفردية لم تتهيأ بعد الاسباب الاقتصادية ، والمادية على العموم ، للتحرر الكامل .

فما يلتزمه مفكرو الجبهة الشرقية الماركسية من تعلق بالواقعية ومن نقد ذاتى هو ما جعلهم يبدون تخوفات من تضخم شروط الرفاهية المادية ، فقد يعوق ذلك ، فى نظرهم ، السير الحثيث نحو التحرر الحق ، بسبب تعود الشعوب على الراحة ، وبالتالى على المواقف السلبية . اليست الحياة البورجوازية السهلة هى ايضا عنصرا رئيسيا فى وجو د الاستلاب ؟

اذا لاحقنا تخوفات المفكرين الماركسيين السابقة حتى نتائجها البعيدة ، امكننا ان نستخلص أن حذف الملكية الشخصية وتأميم وسائل الانتاج لا يكفيان لتحرير الانسانية . فلربما تولد عن التصميم ، وعن سيطرة الحزب والنقابة ، واجهزة الدولة ، اسباب جديدة للاستلاب . هذا ما جعل الماركسيين يهتمون بالبحث عن وسائل اخرى لمقاومة الشعور بالحرمان والقلق ، مثل توفير مناطق جديدة للاعمال المجانية والمنافسات ، وتكثير كتائب الشغل ، الى غير ذلك مما يتيح للشخصية الانسانية مزيدا من التفتح . فحذف الملكية الخاصة وتأميم وسائل الانتاج ، ربما يقضيان على جوانب من الاستلاب الاقتصادى المتجسد فى سيطرة راس ـ المال على العمل . لكن هذا لا يزيح من طريق التحرر حرما آخر ، هو استلاب عالم التصنيع . ان قضية الحرية مرتبطة بارضاء حاجات المواطنين ، الا ان الرغبات والنزعات من صميم الحاجات الملحة الاصيلة .

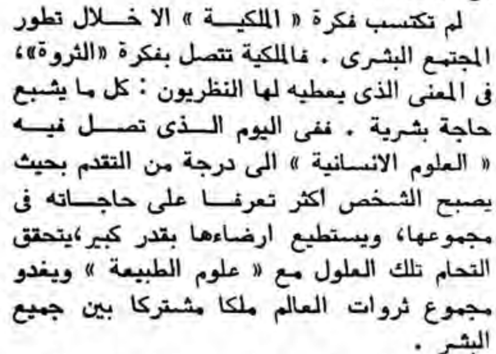
وفى فرنسا، خلافا لرجال الاقتصاد الكلاسيكيين الذين غضوا الطرف عن العواقب المجتمعية



هيجــل

للتصنيع ، كانت لـ « سان سيمون Saint Simon و (بردون Proudhon و (فـــورى Fourier نظرية عقلية ، أو عقلانية ، عن أزمات وشقاء هذا العصر ، الا انهم لم يصلوا الى تشاؤم يشمـــل الحاضر والمستقبل (كما هو الحال عند رجال الاقتصاد الكلاسيكيين) بل يعتبرون الشر غير محتم ولا خالد : ان اقتصـــاداً محكـــم التنظيم سيقضى على هذا الشر .

للعامل الاقتصادى قدرة على التأثير فى ســير التاريخ العام ، بحيث ان العلوم والفنون والعقائد لما جرياته ، كما ان السلوك الاخلاقى والحالات النفسانية، لدى الفرد والجماعات، ما هى ايضا الا رد فعل للبنيات الاقتصادية . فنحن ، وان كنا نحيا بالعنديات ، لا نستغنى ، مطلقـــا ، عن « أشياء » أخرى هى ايضا أصلية ومتجذرة فى الاعماق البشرية ، تؤثر فى سير تاريخنا الفردى وتاريخنا الجماعى ، نصارع من اجلها ونتقبل جسيم التضحيات لتحقيقهـــا ، لانها من كيـــان كينونتنا ، وقد ترغمنا احيانا على أن نزهد فى العنديات دفاعا عنها ، وتضحية للحفاظ عليها : ان سلوك المحب الحق وسلوك المؤمن الصادق ، مثلا ، يعكسان الصراع بين الكينونة والعندية ، كما يعكسان غلبة الاولى على الثانية ، فى الكثير



من الحالات .

لم تكتسب فكرة « الملكيـــة » الا خـــلال تطور المجتمع البشرى . فالملكية تتصل بفكرة «الثروة»، فى المعنى الذى يعطيه لها النظريون : كل ما يشبع حاجة بشرية . ففى اليوم الـــذى تصـــل فيـــه « العلوم الانسانية » الى درجة من التقدم بحيث يصبح الشخص اكثر تعرفـــا علـى حاجـــاته فى مجموعها، ويستطيع ارضاءها بقدر كبير،يتحقق التحام تلك العلول مع « علوم الطبيعة » ويغدو مجموع ثروات العالم ملكا مشتركا بين جميع البشر .

ليس هناك اى مـــانع ، نظرى أو مادى ، يتعارض مع هذا الاتجاه . ان تخوفنا مما يخبئه الغد ، وتصورنا عن معرفة تامة للكون ، كل ذلك جعلنا عديمى الثقـــة بالمستقبل ، كثيرى التكالب على الثروة ، شرهين . هذا ما توصل اليه ابن خلدون ، منذ ستة قرون ، اذ يقول :

« ... السبب فى ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر غير مستقـــل بتحصـــيل حاجاته فى معاشه ، وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك . فالقوت من الحنطة ، مثلا ، لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه . واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة ، من حـــداد ونجار للآلات ، وقائم على البقر ، واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر شؤون الفلاح ، وتوزعوا على تلك الاعمال ، او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقـــدار من القـــوت ، فانه حينئذ ، قوت لاضعافهم مرات . فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم ، اكتفى منها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف فى حالات الترف وعوائده وما يحتـــاج غـــيرهم من اهل الامصـــــار ، ويستجلبونه منهم باعواضه وقيمه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى » (١١) .

(١١) ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل الحادى عشر .

قد سبق لابن خلدون فى باب « الكسب والرزق » (من الفصل الخامس) ان بين ان الكسب انما هى قيم الاعمال ، فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بين المنتجين وارتفع مستوى الاستهلاك ، فتكثر مكاسب المنتجين حتما ، وتدعوهم احوال الرفه والغنى الى الترف .

اذا جاز لابن خلدون ان يتفاءل ، الى هذا الحد ، فيرى امكانية وجود اقتصاد يقوم على توزيع عادل للمواد الاساسية للحياة ، بين جميع الناس عل ىالسواء ، وذلك منذ ستة قرون تقريبا ، الا يكون تطبيق النظرية اكثر الحاحا فى عصرنا الحاضر وقد كثرت وتنوعت الوسائل التقنية ، فى ميدان الانتاج ، وفى ميدان المواصلات والتوزيع ، كما توفرت امكانيات ترقية تلك الوسائل ؟

لكن ، بالاسف ، الاحداث لا تسير طبقا لتلك النظرية . فحتى الامس القريب ، كان لراس المال الاولية بالنسبة للجهود المنتجة ، وان اضافة « راس » لكافية فى حد ذاتها لابراز ما للمال من تقدير واجلال فى النفوس ، واسبقية على العمل. حقا ، العمل ، بوصفه فكرة ونشاطا مجتمعيا والمحرك الاول للحضارة ، اصبح يزداد دلالة ويفرض كواقع اساسى . لذلك برزت معارضة شديدة الحدة بين « عالم راس المال » و « عالم الشغل » . فالحضارة ، حاليا ، تعيش مشاكل المزاحمة والازمات التى احدثتها تلك المعارضة.

ان الحياة الاقتصادية التى تنظم الثروات ، وتخصص الملكية الفردية ، تشمل الانتاج ، والمواصلات ، والتوزيع ، واستهلاك الثروات . فاذا تقدمت اصناف العلوم التى تعمل لمصلحة الانتاج ، نما الانتاج هو كذلك ، بل يمكنه ان ينقلب راسا على عقب . فبوسع الطاقة الذرية ان تحول الجبال الى سهول ، وان تجعل البحيرات مراعى . يتعلق الاستهلاك بالانتاج وبالمفهوم الذى لدينا عن التوزيع ، ويعنى ذلك ، فى نهاية المطاف ، ان الاستهلاك يتعلق بالكرامة الانسانية وبالتضامن بين الاشخاص .

نجد فى بعض البيئات ، ان نظام التوزيع يتيح لبعض الافراد حظوظا على حساب الاخرين . فالملكية تعفى اشخاصا من الاشتراك ، مباشرة ، فى الجهود التى يستفيدون منها ، وهذا يفترض استلاب حرية للبعض لصالح الاخرين . ان الانتاج لا ينمو حسب حاجات المجتمع بل حسب ما حصل لراس — المال من فائدة . هكذا ، عندما ينسلخ العمل عما يشخصه ، يفقد قيمته المحررة . فما دام نظام الانتاج لا يرتكز على مبادىء اخلاقية ، مثل العدالة والتضامن ، وما دامت العلاقات الاقتصادية تفضل الاشياء المكتسبة (والتى يمكن اكتسابها) على الاشخاص فان الحضارة ستستمر تعاكس انسنة العالم وانسنة اجهزته . الا تعنى كلمة « عزيز » : من جهة ، نادر وقليل (وبالتالى ثمين) ، وفى نفس الوقت ، حبيب الى نفوسنا ؟ ذلك ان « ثمن » الشىء او قيمة الكائن تعكس الحب الذى نكنه لذلك الشىء او الكائن .

يتميز توقف الكائن البشرى عن التشخيص بحالات غير سوية ، اهمها شعور المرء بالعجز عن تملك اى شىء ، وهو شعور بخيبة الاستلاب لان العندية ، عند البدائيين ، مساهمة وجدانية « صوفية » ، اذ امتلاك الاشياء عبارة عن علاقة تربط المالك بما يملكه . فمثلا ، للاراضى قداسة لانها ارض الاجداد ، اى استرسال تاريخى ، فهى بذلك ملك للجماعات ، ومن لا « يملك » لا ينتسب الى الجماعة . فللملكية الوراثية طابع مقدس ، لان الاموات يعيشون فيها وبها الى جانب الاحياء ، رغم الموت .

هذا المثال يظهر لنا ان الملكية تزيل عن المتلكات شيئيتها وتذوثها (١٢) الى حد بعيد ،

---

(١٢) ذوث « صيره ذاتا » فى مقابل Subjectiver

لان عناصر ، كانت فى الاصل خارجة عن الاقتصاد ، احاطت مفهوم التملك بهالة من القدسية الى حد انها صارت من مكونات الملكية. وفى الحقيقة ان هذا المظهر الدينى ، بالنسبة للبدائيين ، خير ضمان للتملك .

بعد المرحلة المتقدمة بكثير ، أصبحت الملكية تتمتع بقانون شرعى ، واخذ مفهومها يتطور . فالانسانية ليست مدفوعة بحتمية طبيعة الى التملك ، كما ادعاه (برجسون) ، بل على العكس ، ان الحرب التى تشن بين الغنى والفقر هى التى تحدد الملكية فى كل عصر . ولكى يدافع المرء عن ثروته ، يلجأ احيانا الى الدين (الطوطم) ، واحيانا الى المشاركة الجماعية بالعمل فى الارض ، والى المشاركة فى الربح (لكى تكون جماعة منسجمة تركز كل اهتمامها فى الدفاع عن الارض المشتركة ، اكثر مما تندفع بحب للحياة المعشرية) .

المجتمات واقامة العدالة الشاملة لجميع الاشخاص ، نعنى فرض « احترام كرامة الانسانية احتراما عفويا مضمونا بصورة متبادلة، مهما كان الخطر الذى نتعرض له فى الدفاع عنها » (١٣) .

كل القوانين الوضعية تضمن حقوقا مكتسبة وتدافع عن مصالح معينة . وبقدر ما يتسع المدى الشخص لحق مكتسب ، بقدر ما يصبح هذا الحق ذا صبغة اخلاقية ويسهم فى التحرر . وعلى النقيض من ذلك ، بقدر ما تخضع المصالح الضرورية لشخص وتعوق التضامن بين البشر ، بقدر ما تعاكس الاخلاق (لانها تعاكس مبدأ العدالة) وتنافى الفلسفة (لانها تحرم الشخص من الانبثاق والتحرر) . ان المصالح ترتبط بالعلاقات المجتمعية ، وبالقوى المنتجة ، وبالطبيعة الانسانية . فهى لاتنعكس فى وعينا ، بكيفية او باخرى ، الا بعد ان تنشأ وتتكون . فمن البديهى اننا لا ندافع عن اية مصلحة الا بعد ان يكون قد اتصل وجودها بوعينا .

لكن ، يجدر بنا ان نحدد ان المصالح التى يدافع عنها القانون ليست وليدة الوعى الانسانى . ان مستوى الوعى المجتمعى هو الذى يحدد محتوى القانون ويحدد الشكل الذى يجب ان يتخذه انعكاس اية مصلحة فى وعينا . وباختلاف العصور، تختلف اشكال ذلك الانعكاس . فالقانون ليس من القوى الفيزيائية ، او « الطبيعية » ، نعنى انه ليس شيئا يوجد مستقلا عن فعاليات الانسان. بل على العكس ، ان القانون نظام يصدر عن الناس ولصالحهم . فلا يهم مطلقا ان يكون الانسان ، عندما يقوم باى نشاط ، خاضعا لقانون السببية او ان يعمل اعتباطيا . فبطريقة او باخرى، سواء بالنسبة لقانون السببية او بالنسبة للحرية، القانون لا يتكون خارجا عن فعالية الانسان ، ولكن بفضلها ، يتكون .

اذا تولد عن الشغل (او عن كل فعالية ، بصفة عامة) مقدر متساو من الحزن والفرح ، فهذا لايمنع العمل من ان يكون تأكيدا اصيلا

١٣ Proudhon, de la justice dans la révolution et dans l'Eglise, Paris, 1923.

لكينونتنا البشرية : العمل يثبت لن وجودنا ارادة مستقلة ، وقدرة على الحركة والتغير . بفضل هذه الإرادة وتلك القدرة ، نفرض وجودنا عـــلى الطبيعة وفى الطبيعة ، اذ نعطيها دلالة ونجعـــل منا مجتمعا متضامنا يرمى الى التعالى . فالعمل فى مفهومه هذا ، اى بوصفه اداة فعالة للتحرير ، غالبا ما كان مجهولا من لدن القدماء ، كما يشـهد بذلك ما يحمله سقراط من احتقار للاعمال اليدوية والتقنية ، طبقا لما رواه عنه تلميذه افلاطـــون : « كيفما كانت الخدمات التى يمكن ان يؤديهـــا مهندس ما ، فانك تحتقره ، ولن ترضى ، ابدا ، انيتزوج ابنك بابنته » (١٤) . امالرسطو (١٥) فقد ارتاى انه لامكان فى المدينة الفاضلة النموذجيـــة للصناع والحرفيين .

14) Platon, gorgias, 512 b, ch. premier.

(١٥) ارسطو ، كتاب السياسة ، ١٧ ، ٣ .

الاديب العربي بين التــراث والمعاصرة

لقد اصبح الشغل الشاغل بالنسبة الى الاقطار النامية وشعوب العالم الثالث هـــو الازدهـــار والتقدم ، الا ان هذه الاقطار والشعوب ليس لها الا سهم قليل فى الابتكار والاكتشاف ، ولذلك فان هذه الرغبة الملحة فى الازدهار والتقدم كثيرا مـــاتنقلب الى نزعة شيئية واعنى بهذه العبارة حرص الدول المتخلفة على كسب جميـــع « الاشيـــاء » الحضارة ومصنوعاتها ، كالسيارة وجهاز الاذاعة وما الى ذلك .. انه لمن الغريب حقا ان يغيب عن اذهان البعض بان الرفاهية ليست كـــل شىء فى الحياة ، وأن لباس البذلة الانيقة وتوفير المرافـــق الحديثة لا يكفى لكى يرقى بالانسان من وضعية المتخلف الى وضعية المتقدم حضاريا ، فنحـــن نستورد اكثر مما ننتج .. وبعبارة اخرى ، فنحن ننتمى الى حظيرة الشعوب المستوردة .. وبطبيعة الحال ، نستورد السلع الجاهزة ولا نكلف انفسنا اية مشقة لسلوك دروب الفكر الذى انتج تلـــك السلـــع .

من محاضرة الاستاذ / حنفى بن عيسى
الاديب العربـــى بين التراث والمعاصرة .



نص المحاضرة التى القاها الدكتور عثمان أمين بالملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى بوهران

د. عثمان أمين
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

تصحيح المفاهيم عن اللغة العربية

يطيب لى ان استهل محاضرات هذا « الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى » ، فاشكر للقائمين عليه ما بذلوا من جهود لتدبيره وتنسيقه وتحديده . ولا شك ان نظرة الى البرنامج الموضوع له تقنعنا بان ها هنا تقدما حقيقيا ملموسا بالقياس الى برنامج الملتقى الرابع الذى تم فى العام الماضى .

واول مظاهر هذا التقدم ، فى نظرى ، هو التركيز على القضايا الثلاث الكبرى التى تشغل بال المسلمين فى العالم المعاصر ، واستبعاد قضايا اخرى فرعية قد يكون من شأنها اثارة الخلاف والشقاق بين الاخوة والاشقاء ، وهم احوج ما يكونون الى التواصل والوئام فى عالم البغى والعدوان . والمظهر الثانى من مظاهر هذا التقدم هو المكان المرموق الذى من حق اللغة العربية ان تستمسك به وان تحافظ عليه، فى امة انزل عليها دستورها بلسان عربى مبين .



د. عثمان امين

والمظهر الثالث للتقدم الذى احرزه هذا الملتقى هو الانتقال من النظر الى العمل ، ففى حين كانت الفكرة الغالبة على ملتقى العام الماضى هى فكرة « التعرف » ، نجد الفكرة الكامنة فى اذهان المشرفين على ملتقى اليوم هى فكرة الثورة والتغيير . ربما كان تفسيرى هذا متأثرا الى حد ما بمنهجى فى « الجوانية » . ولكن مظاهر البرانية نفسها تؤيدنى فيما ذهبت إليه ، وآية ذلك هى الصيغة الفرنسية التى وضعت لبرنامج هذا الملتقى قد اسقطت او حذفت كلمة «التعرف» ويستوى عندنا ان يكون حذف الكلمة قد جاء عفوا او عمدا ، والمهم ا نيكون الحذف فى « العقل الباطن » الذى يتحدث عنه علماء التحليل النفسى منذ النصف الاول من هذا القرن .

وبعد فيطيب لى ايضا ان اسلك معكم هذا الطريق الجوانى لحظات ، فأتمثل حصيلة هذا « الملتقى الخامس للفكر الاسلامى » فى صورة كتاب قيم حافل نقرؤه من عنوانه ، ونتلقاه فى اوانه . اما عنوانه فهو فى نظرى اقرب ما يكون الى العنوان الذى اختاره الفيلسوف الشاعر « محمد اقبال » : وهو **« تجديد بناء الفكر الدينى فى الاسلام »** وتجديد البناء فى ذلك الفكر يقتضى من المفكرين ان تتجه ارادتهم الى العمل والتغيير ، كما أشرت من قبل . اما اوان الكتاب فهو هذا العصر المفتون المهزوز المكدود « المحروم من الله » كما وصفه كارل ياسبرز . هذا العصر الذى ما كاد يفيق من فتنة التكنولوجيا والفرويدية والماركسية والوجودية ، حتى رايناه يقع فريسة للوضعية والذرية والفضائية والالكترونية ! واى عصر هو احوج الى الدعوة الاسلامية من هذا العصر الذى يحق لنا ان نصفه مع كثير من مفكرى الغرب ، بأنه « عصر الجاهلية » ، والعنصرية والغربة ، والعدمية ؟ واعود الى كتابكم كما اتمثله قبل ان يعد وقبل ان يطبع وينشر ، فأقول ان من الواضح انه يشتمل على مقدمة وثلاثة ابواب وخاتمة . اما المقدمة فقد سمعناها هذا الصباح من وزير الاسلام ، فى جلسة الافتتاح . واما ابواب الكتاب الثلاثة فهى على الترتيب : اللغة ودورها فى الثورة الثقافية ، والاسلام ومشاكل الاسرة وتربية الجيل ، والاسلام ومتطلبات التنمية الاقتصادية . واما الخاتمة فهى القرارت او التوصيات التى يرى اعضاء المؤتمر ان يتخذوها او يقترحوها بعد مناقشتهم للقضايا المعروضة .

اما الموضوع الذى اود ان اتحدث فيه هذا المساء فهو عندى اشبه بتمهيد للباب الاول عن دور اللغة فى الثورة الثقافية وهو تمهيد بالضرورة لاننا لا نستطيع ان نناقش اثر اللغة فى الثورة الثقافية الا اذا اثبتنا اولا لانفسنا ولغيرنا — كما يقول فيلسوفنا الفارابى — ان لدينا لغة متميزة ، وان لدينا ثقافة اصيلة. واذن فعلينا ان نثبت لانفسنا وللعالم ان لغتنا هى العربية ، وان هذه اللغة هى « اقدس ما نملك فى هذه الدنيا » كما يقول الشاعر «هينرش هاينة » ، وعلينا ان نثبت اخيرا — لانفسنا ولغيرنا — ان لغتنا ليست على الاطلاق لغة « متخلفة » ، وانها ليست لغة جامدة ولا عاجزة عن الوفاء بمطالب المجتمعات « المتقدمة » ، بل

هى على الاصالة لغة حية ديناميكية حــــركية وفلسفية .

وهذا الامر الاخير والمتعلق باللغة هــو ما اردت ان احدثكم فيه ، مكتفيا فى مسألة الثقافة بما نبه اليه السيد جمال الدين الافغانى منذ اكثر من ثمانين عاما حين قال : « يتخذ الغربيــون فى الشرق اساليب عجيبــة للقضــاء على الروح القومى ، وقتل التربية الوطنية ، وتقــويض الثقافة الشرقية : فتراهم يزينون للشرقيين ان ان ينكروا على قومهم كل مأثرة وكل فضيلة ، ويلقون فى روعهم انه ليس فى لغاتهم العربيــة او الفارسية او الهندية آداب تؤثر ، ولا فى تاريخهم مجد يذكر ، ويوهمونهم بأن قصــارى المجــد للشرقى النابه ان ينفر من سماع لغتــه ، وان يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها ، وان ما تعلمه من الرطانة الغربية هو غاية ما يستطاع بلوغه من الثقافة الانسانية . الا ليت الشرقيين يدركون انه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم اذا لم يقم منهــم اساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مــآثر رجالهم »

ولست أستطيع ان ابدا حديثى عن **«التصحيح المفاهيم عن اللغة العربية »** دون ان اشــير الى حادثة وقعت لى شخصيا منذ نيف وخمس عشرة سنة ، اذ كنت القى محاضرة عن « اصــالة الفلسفة العربية ورسالتها » فى جامعة هارفارد اكبر جامعات امريكا ، وشاء نفوذ الصهيونية فى الجامعات الامريكية أن يكون المشرف على ذلك الملتقى الدولى للانسانيات هو « مستــر هنرى كسنجر » مستشار الرئيس نيكســون الان ، ومفجر القنبلة الدبلوماسية الاخيرة التى لا ندرى اكانت من صنع امريكا أم من صنــع الصين . المهم هو اننى كنت اعرف أن « كسنجر » هــذا يهودى اكاديمى ، اى صهيونى على الطــريقة العلمية ، وانه من اجل ذلك قد عبا الشبـــان اليهود بعدد من الاسئلة لاحراجى امام الامريكان



فشته

باعتبارى العربى الوحيد الممثل لهذه المنطقة من العالم فى **« ندوة الانسانيات »** هذه . وكان محور الاسئلة جميعها ان العرب لم يصنعوا شيئــا فى مجال الفكر عامة وفى مجال الفلسفة خاصــة ، وكان ما استطاعوا ان يصنعوه انهم نقلوا بعض التراث اليونانى ، فشوهوه ومسخوه ، لانهم لم يفهموه .... كنت اعلم هذا ، او بعبارة ادق ، حين علمت هذا،اتخذت فى محاضرتى استراتيجية جديدة : احتفظت بالهدوء النفسى طوال المعركة الى ان اشرفت على الخاتمة ، فألقيت القنبلــة التى كنت اعددتها واحتفظت بها فى حقيبة أوراقى وهى امامى اراها من حيث لا يرونها ، فقلت فى عبارة مركزة ومكثفة : **« اذا كان للفلسفة العربية على الفلسفة المسيحية فضل واحد ، فللفلسفة العربية على الفلسفة اليهودية فضلان » !**

وتستطيعون أن تتخيلوا مبلغ ما احدثته هذه الكلمة من ارتباك للمستر كسنجر نفسه ، ومن ذعر فى نفوس الشباب الصهيونى فى الجــامعة الامريكية . ولما افــاق « كسنجــر » من هــذه الصدمة ، وقف ليستحث صبيانه على التعــليق

على محاضرتى ، واختار منهم واحدا كان جالسا فى ركن قصى من القاعة . فكان سؤاله طبعا هو ما كنت اريده ان يسألنى ، وكان الجواب الحاسم عليه معدا جاهزا ، وما على الآن اخرجه من حقيبة أوراقى الموضوعة على المنصة امامى — كان السؤال خشنا — « كيف تسمح لنفسك وانت فيما يقال استاذ بالجامعة — أن تردد هذا الكلام الفارغ عن فضل الفكر العربى على الفكر اليهودى ؟ » . ولا اكتمكم انى كنت اكاد اطير فرحا عند سماعى هذا السؤال ، وكنت اقول فى نفسى — « والله لقد وقعت فى الفخ يا كوهين » وحمدت الله اذ هدانى الى التكتيك الصحيح فى مواجهة هؤلاء الاعداء ، وهم عصبة — وانا وحدى — واستغفر الله ، واستغفر الله ، لانى لم اكن وحدى ، بل كان الله معى ، وما توفيقى الا بالله .

ولا اطيل عليكم ، فاقول لكم انى طلبت من « المستر كسنجر » ان يأذن لى باستدعاء السائل ليقف على المنصة بجوارى ليوجه السؤال امام المستمعين حتى اتولى الاجابة عليه امام الجمهور فتردد « كسنجر » قليلا،فملت اليه واسررت اليه بانى انما اريده أن يقرأ لى شيئا باللغة العبرية التى لا اعرفها ، لاستعين بما يقرأ لى على الرد على سؤاله الوجيه .. وصعد الشاب على المنصة . فأخرجت من الحقيبة كتاب موسى بن ميمون ، شيخ الفلسفة اليهودية ، ومؤلف كتاب مشهور عنوانه بالعبرية « مورى نبوخيم » أو « دلالة الحائرين » وطلبت اليه ان يقرأ كلام بن ميمون . فأخذ يقرأ قراءة متعثرة ، وكنت احاول امام الجمهور ان اصحح له القراءة . وعندئذ اعلن عجزه عن قراءة موسى بن ميمون. فتدخل « مستر كسنجر » ليقول لى ان هذا الاسلوب فى الرد غريب علينا بعض الشىء ، وفى الامر يسر اذ كيف تستطيع انت ان تفهم ما يقوله ابن ميمون مع انك لا تعرف العبرية فيما تقول ؟ فقلت له — كلا يا « مستر كسنجر » — ليس فى الامر سر عند العارفين . وضجت القاعة بالتصفيق والضحك . وبعد ان هدأت العاصفة ، وقف أحد المستمعين — وظاهر انه لم يكن يهوديا وطلب الى أن أفسر لهم هذا اللغز عن الفلسفة العربية والفلسفة العبرية اللتين لا يعرفون عنهما شيئا. فكان جوابى واضحا قاطعا اذ قلت بكل بساطة ان اليهود هنا وفى كل مكان يحاولون أن يخفوا عن العالم هذه الحقيقة الدامغة وهى ان معظم فلاسفتهم فى العصر الوسيط ، وعلى راسهم شيخهم موسى بن ميمون ، انما كتبوا مؤلفاتهم باللغة العربية ، لانها كانت لغة الفكر والثقافة طوال تلك القرون. ولكن المتعصبين اليهود فى محاولتهم طمس المعالم العربية المشرقة زوروا هذه النصوص ، — اذ جعلوا رسمها بحروف عبرية ، بدلا من الحروف العربية ، وموهوا على الناس فى اوروبا وامريكا بل فى البلاد العربية والاسلامية ، ايهاما بأن الفكر اليهودى لا صلة له باللغة العربية .

وبعد فأول تصحيح ينبغى علينا ان نقوم به هو أن نكشف عن هذا التزوير ، فنعيد الى مؤلفات اليهود رسمها العربى الاصيل . ولا اكتمكم انى قد نبهت الى ضرورة الاهتمام بهذه المسألة ، والقيام بهذا العمل فى غير ابطاء ، منذ اكثر من ثلاثين سنة . ابان اقامتى فى باريس مبعوثا للجامعة المصرية ، واعدت الكلام فى هذه المهمة بعد عودتى من هارفارد سنة ١٩٥٥ ، وفى مناسبات اخرى كثيرة فى السنين الاخيرة ، حين كتبت الصحافة العربية عن الطبعات الاسرائيلية المزورة للقرآن الكريم . ولكن ما حيلتى ، ونحن نتحمس للاشياء فى حينها ، أو بعبارة أدق حين تصدر الاوامر بالكلام فيها ، وسرعان ما ننساها اذا تغيرت الظروف ؟

واعذرونى اذا قلت لكم انى كدت ان افقد الامل فى أن يظهر هذا العمل فى حياتى وانا قد

نيفت على الستين . وقصارى أن انتهز فـرصة هذا الملتقى ، سائلا المولى ان يقوى عزائمنـا على النهوض بهذا العمل العلمى الخالص ، وهو عمل يسير ايجابى يرد للعربية اعتبارها ، فى وقت نرى فيه ان الشعوبية المتزمة ـ شعوبية دويلة اسرائيل الجديدة ، لا تؤمـن بشـىء قدر ايمانها بلغتها العبرية .



واحب ان ابـدا كـلامى بالتذكـير ، فى هذه المناسبة وفى كل مناسبة ، بعبارات من شهادة ابن جنى ، الواردة فى كتابه «فقه اللغة العربية»

« من احب الله تعالى احب رسوله محمـدا صلى الله عليه وسلم . ومن احب الرسـول العربى احب العـرب ومن احب العـرب احب العربية ومن احب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته اليها . ومن هداه الله الاسـلام وشرح صدره للايمان ، وآتاه حسن سريره فيه، اعتقد ان محمدا صلى الله عليه وسلـم خـير الرسل ، والعرب خير الامم ، والعربيـة خير اللغات والالسنة ، والاقبـال على تفهمهـا من الديانة ، اذ هى اداة العلم ، ومفتاح التفقـه فى الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد .

ولو لم يكن فى الاحاطة بخصائصها ، والوقوف عند مجاريها ومصارفها ، والتبحر فى جلائلها ودقائقها ، الا قوة اليقين فى معرفة اعجاز القرآن وزيادة البصيرة فى اثبات النبوة التى هى عمـدة الايمان ، لكفى بها فضلا يحسن فيها أثره ويطيب فى الدارين ثمرة .

ان شهادة ابى جنى هى عندى برنامج عمل كامل لهذا الملتقى ، وللرجال المؤمنين الـذين لا يحبون من الكلام الا « ما تحته عمل » . وطريق هذا العمل واضح العنـاية بالعربية ، والمثابرة عليها ، وصرف المهمة اليها ، دون التفـات الى تخرصات المغرضين .

على أن القضية الاساسية التى يواجههـا المجتمع العربى ليست هى ما يثيره بعض كتابنا من المفاضلة بين الفصحى والعامية ، ولا هى ايجاد لغة وسط بـين الفصحـى واللهجـات الاقليمية ، بل هى ان يبين العرب مكانـة لغتهم بين اللغات ، وما تفردت به من خصائص فكرية تجعل لها فلسفة أصيلة متميزة ، وان يوقنوا بأن الملكات الحاصلة للعرب من هذه اللغة الكريمة هى « احسن الملكات واوضحها ابـانة عن المقاصد » كما قال ابن خلدون ، وان يذكروا ان القرآن هو الذى حفظ هذه اللغة من الضياع ، فأصبحت بفضله لغة الدين والعلم والفلسـفة والاجتماع ، وأن العرب اصبحوا بفضله امـة واحدة كيفا وكما . ولا نزاع فى ان اللغة ، اية لغة ، « تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين » كما قال الفيلسـوف الالمانى « فيشتـه » .

وبعد فان الامر بالغ الخطر ، لانه متصل اتصالا جوهريا بشخصيتنا كلها وكياننا كله ، ويحتاج الى تصميم لا يتزعزع ، وعزيمة لا تلين، لانقاذ لساننا وفكرنا وضميرنا . لان زوال اللغة فى اكثر الامم يبقيها بجميع مقوماتها غير الفاظها ولكن زوال اللغة العربية ، كما قال المرحوم العقاد ، « لا يبقى للعربى أو المسلم قوما بميزه عن سائر الاقوام ، ولا يعصمه أن يذوب فى غمار الامم ، فلا يبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا ايمان » . واذا كنا بحاجة الى اجنبى لتنبيهنا الى هذا الخطر ، فلنستمع الى المستشرق « ماسنيون » اذ يقول : « ان من حق العرب علينا نحن ضيوفهم الوافدين عليهم، أن نرفع الصوت عاليا ، طالبين اليهم الصمود والمقاومة : فليصمدوا وليقاوموا هذه الدعاية المضلة التى تسول لهم التنازل عن شرفهم وتراث آبائهم ، والاستسلام أمام القوى الاستعمارية ورؤوس الاموال المصرفية التى تطلب اليهم الانسجام فى طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة ، حضارة الانسان الالى ، التى لم تعد تؤمن بنفسها أو بالذات الالهية ، وتصبو الى اخضاع العالم لثقافة امريكية بلهاء . ان هذا الانتاج الصناعى المغشوش يوشك أن يسقط ويتردى فى الهاوية . وعلى ابناء العربية ان يصمدوا ، فالعالم فى حاجة اليهم . وواجبنا أن نحثهم على احترام عربيتهم ، هذا النظام اللغوى الصافى ، الصالح لنقل اكتشافات الفكر عبر القرون ، فلا يحيلوها مسخا مقلدا للغاتنا الارية ... لقد كانت العربية وما تزال لغة الحرية العليا ، لغة وضوح الذهن ووحى القلب ، لغة المناجاة ولغة المعجزة .. هـ

الا فليتذكر العرب أمرهم . وليتبينوا أن من العار عليهم أن يرددوا مزاعم تقليدية مغرضة عن قصور لغة وسعت كتاب الله لفظا وغاية ، ولا تزال الدرر كامنة فى احشائها . فليسالوا الغواص عن صدفاتها .

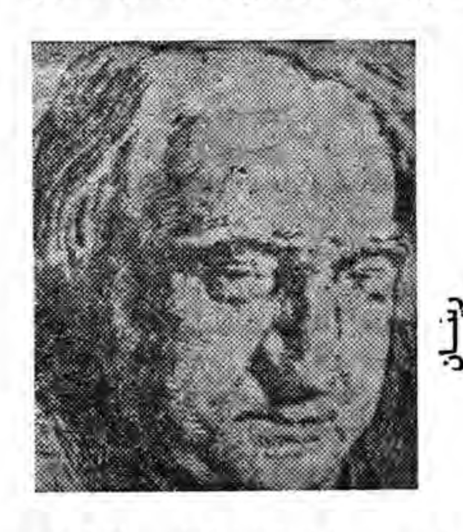
ومن هذه المزاعم القديمة المغرضة عن اللغة العربية ما لا نزال نسمعه مترددا على السنة قوم ليس لهم « انس بتلك اللغة » كما كان يقول ابن جنى . وهى المزاعم التى فندها جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ومدرسته ، أوائل هذا القرن ، ردا على « ارنست رنان »و « هانتو » و « جوتييه » ومن اليهم . وحسبنا هنا أن نورد دفعا لهذه المزاعم ، شهادة من « لوى ماسنيون» مؤداها ان اللغة العربية قد امتازت بخصائص قل ان نجد لها مثيلا فى اللغات الاخرى : ففى تركيبها الداخلى وفى طراز الحلوة الذى توحى به قدرة خاصة على التجويد والنزوع الى الكلية والشمول . وهى قد تفردت بالقدرة على التعبير بجمل قصيرة مركزة عما لا تستطيع اللغات الاخرى أن تعبر عنه الا بالجمل الطويلة المسطحة الفضفاضة .

وشهادة اخرى لمستشرق فرنسى ، « هنرى لوسل » ، توجه نظر الغربيين الى ان : «اللغة العربية والحضارة العربية الاسلامية تزودان الدارس لهما بنظرة جديدة الى العالم » . فهذه اللغة ، فى نظر لوسل ، تقدم لمن يتعلمها معانى لغوية تختلف اختلافا كبيرا عن معانى الفرنسية أو اللاتينية أو اى لغة اوروبية اخرى . وتتيح للدارس ثروة من الاشتقاق من الاصل الواحد ، تغنينا عن الالتجاء الى المقاطع او الكلمات الاجنبية او اى اضافة أخرى خارجية . وتلك خصيصة أساسية من خصائص العربية ، فلم النزول عنها ، جريا وراء المستعار والدخيل ، واغفالا لما هو عندنا أصيل ؟ ويمضى « لوسل » فيقول : « ان صعوبة الكتابة أو القراءة العربية تضطر المتعلم لها ، اكثر مما تضطره اللاتينية أو الروسية ، الى ان يكون على حظ من الانتباه اعظم »

ومسالة الصعوبة هذه التى كثر الكلام عنها فى أيامنا ، هى فى الحقيقة مسالة قديمة قد بنيت على مغالطة . ونود الان أن نصحح وجهة النظر

فيها : فمنذ زمان بعيد تنبه العرب انفسهم الى ما يتطلبه النطق بالعربية الفصحى ، مع كمال اعرابها ، من جهد وحضور ذهن . وكان اخوف ما يخافونه اللحن فيها حتى قد قيل لعبد الملك بن مروان : لقد عجل اليك الشيب يا امير المؤمنين : فقال شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . « ومنذ اكثر من قرن وربع قرن كتب رفاعة الطهطاوى مذكراته البارسية « تلخيص الابريز الى تلخيص باريز » ، فعقد فيها مقارنة بين اللغة الفرنسية واللغة العربية، مشيرا الى سهولة تعلم الاولى وصعوبة تعلم الثانية ، فقال : « من جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون بسهولة لغتهم وسائر ما يكملها؛فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة فى تعلمها : فأى انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع اى كتاب كان ، حيث انه لا التباس فيها اصلا ، فهى غير متشابهة . واذا اراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه ان يحل الفاظه فان الالفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب ان يطبق الفاظه على قواعد اخرى برانية من علم آخر ، بخلاف العربية ... »

وتصحيحنا للمفهوم القائم على المغالطة هنا أن « توقع اللحن » الذى يذكره عبد الملك بن مروان ليس عيبا ذاتيا فى اللغة ، بل فى بعض الناطقين بها . والأوائل كانوا يقراون القرآن ويستمعون للحديث دون لحن ، لانهم كانوا يقراون ويسمعون ، فى وعى ويقظة ذهن . اما ما عمد اليه المتأخرون من وضع « الشروح والحواشى والتقارير ، فلم يكن سببه أن اللغة غير مبينة فى ذاتها ، بل لان ملكتها قد ضعفت عند المسلمين كما ضعف شأنهم فى غير اللغة. اما الزعم بأن اللغة العربية لا تعين على «التقدم فى العلوم والفنون » بصعوبتها — وهو ما يشتم من كلام رفاعة الطهطاوى — فزعم غير صحيح، وحسبنا أن نفندهم بما لاحظه « كارادوفو » فيما يتصل بتفوق العربية فى علم النفس وعلم الاخلاق من « أن الفروق المعنوية الدقيقة التى تحملها الفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها فى لفظ واحد الى اللغات الاخرى،وان اللغة العربية تنطوى على قدرة ذاتية على التحليل الفلسفى العميق » واما اسهام العربية فى مجال العلوم الاخرى فحسبنا أن نذكر شهادة « ماسنيون » فيه اذ يقول : « لقد استطاعت اللغة العربية أن تنمى — من خلال نحوها — القدرة السامية


رينان

على التعبير عن الفكر المجرد : خفى هذا التركيب العربى الموجز الذى اعان على تركيز نتائج الباحثين التجريبية وضبطها ، الى جانب بحوث الاطباء العياديين ، وبحوث الرياضيين ، ومكتشفى الارض واسرار النفس والرأى والاحلام ، فى مقالات مختصرة حاسمة رصينة . يضاف الى ذلك ملاحظات فى الجبر والمعادلات الكيمائية والزيجات الفلكية ، والسلاسل الحسابية ، ومراحل رحلة النفس الى المجهول. ولا شك أن المنهج العلمى فى الحضارة الغربية قد استطاع ، بواسطة العربية ومن خلالها ، أن يتخلص من الطراز الهندسى الوثنى لاشكال

مغلقة عقلانية ، قد عوقت العلم اليونانى ردحا طويلا من الزمن ، كما استطاع ان يتخلص من الخطوط التى تضاف الى حل المعادلات الرياضية » . ويمضى « ماسنيون » فيقول : « أما فيما يتعلق بالمعجمية الجدلية النفسية والصوفية فان قيمة العربية لا تنحصر فى خلوها من كل نقص ، بل انها على التحقيق قادرة على ان تبعث الحياة والشباب فى الفكر الغربى ، كما استطاعت قصة « الف ليلة وليلة » ان تؤثر فى عقلية السابع عشر التى كانت مليئة بالاقاصيص الماليزية الموروثة من الرومان واليونان » . « ولا مشاحة فى ان كبار رجال الحضارة العربية ، ونوابغ الفكر العربى لم يكونوا ذوى دم عربى خالص ، بل كانوا من الموالى المستعربين . ولكن هذا فى نظرنا ليس ظاهرة ضعف ، بل قوة فريدة ، جعلت من الضيوف ابدالا توافدوا من كل أمة ، وهم عارفون لهذه اللغة ايجازا فريدا وقوة فى التعبير نادرة . وهو فوق هذا معجزة لغوية للدراسة العلمية. وقد صرح بذلك البيرونى فى اللغة العربية نفسها ، وهو الغريب عنها والضيف الطارىء عليها » .

واما الراى المشهور عن صعوبة النطق باللغة العربية خالية من الشكل ، مما يحول دون تعلمها والتمكن منها خلافا للغات الحية الاخرى ، فهو الراى الذى اورده « قاسم امين » احد قادة الفكر الاجتماعى فى مصر المعاصرة ، حين قال فى بعض كلماته : « فى اللغات الاخرى يقرأ الانسان ليفهم ، اما فى اللغة العربية فانه يفهم ليقرأ : فاذا اراد ان يقرأ الكلمة المركبة من هذه الاحرف الثلاثة (ع ل م) امكنه ان يقراها (علم) او (علم) او (علم) او (علم) او (علم) او (علم) . ولا يستطيع ان يختار واحدة من هذه القراءات الا بعد ان يفهم معنى الجملة ، فهى التى تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من اصعب الفنون » .

وقد رددنا على هذا الاعتراض منذ سنين ، فقلنا ونكرر ما قلناه حينذاك بأن ما لوحظ على العربية من صعوبة قراءتها ابتداء ليس بعيب فى تلك اللغة ، بل الاولى ان ينظر اليه على انه ميزة تفردت بها لغتنا عن سائر اللغات ، وهى اعداد قارئها لاستجماع قوى الفكر ، ودعوته الى حسن التأهب لقطع اشواط الفهم: ذلك ان العربية فى ماهيتها لغة تتطلب من كل قارىء أو مستمع لها أن يكون واعيا فاهما ، قبل ان ينطق وقبل ان يسمع . وبعبارة اخرى تتطلب منه أن يمارس وظيفة « النطق » على الحقيقة ، وهى خاصية الانسان التى تميز بها عن سائر الحيوان : اعنى الوعى والفهم . وما من شك ان المران على صحة الاعراب هو فى الوقت نفسه مران على يقظة الوعى وجودة الفهم . وجملة القول انه اذا كانت العربية بطبيعة تركيبها وبنائها تتطلب من المرء يقظة واعية وجهدا موصولا وبعدا عن « الالية » فهى قبل كل شىء فن ولا ضير عليها بعد ذلك أن تكون « فنا من اصعب الفنون » .

افنحن بحاجة بعد هذا كله الى ان نذكر ابناء المسلمين فى هذا العصر بما قاله علماؤناالمحققون منذ مئات السنين من ان اللغة العربية ضرورية لحفظ الدين ، فانه لا سبيل الى ادراك معانى الفاظ القرآن والسنة الا بالتبحر فى علم هذه اللغة ؟ واذا كانوا فى ريب من شهادة علمائنا الاقدمين ، فلينصتوا الى شهادة للمستشرق « فان ديك » ، سجلها منذ نحو ٧٥ سنة ، جاء فيها قوله : « ان اللغة العربية من اكثر لغات الارض امتيازا . وهذا الامتياز من وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها والثانى من حيث استيعاب آدابها » .

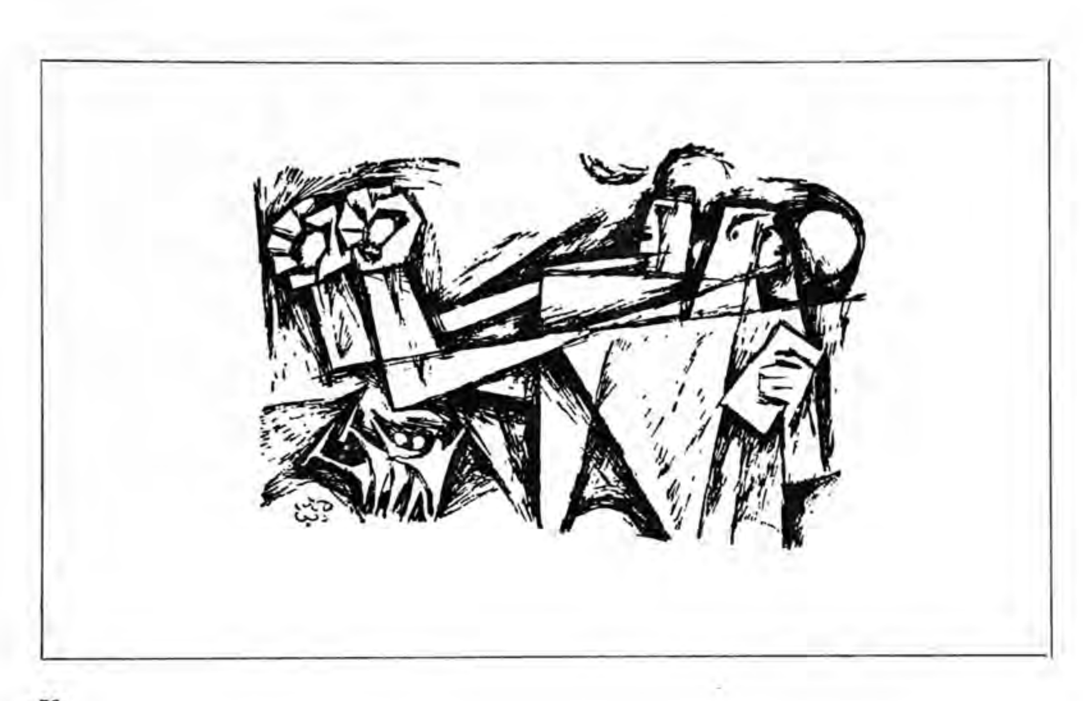
وان لغات انتجت « حضارة الانسان الالى » لا يصح أن تكون بأى وجه من الوجوه بديلا من « اللغة الشاعرة » — كما يراها عباس العقاد — « لغة الحرية العليا » و « لغة وهى القلب

وحديث الروح » ، كما يصفها « لوى ماسنيون » تلك اللغة التى تملك ديالكتيقا المعجزة » وترنو الى الابدى ولا يستغرقها الحاضر ، وتصبو الى الوصول الى الفعل الالهى .

واذا عرف المثقفون قدر لغتهم العربية استطاعوا أن يصونوها من عبث الالسنة والاقلام ، السنة من يجهلونها والاقلام من لا يحسنونها ، أو من « ليس لهم انس بها » . وان نظرة الى « العقد الفريد » و « البخلاء » و « الامتاع والمؤانسة » و « طوق الحمامة » و « حديث عيسى بن هشام » و « فى المرآة » — وغيرها من الروائع الادبية التى تزخر بها المكتبة العربية — تكفى لاقناع ابناء هذا الجيل بأن اللغة العربية الفصحى ، حتى فى مجال الطرفة والنكتة ، تستطيع أن تقول ، فى ايجاز وتركيز وحصافة ولطافة ، ما لا تستطيعه غيرها مع الاطناب والتحليل والاحصاء والتسجيل .

نسأل الله أن يهدى شبابنا الى تذوق لغتنا ، والانس بها ، حتى يقولوا فيها قولا سديدا .

الدكتور عثمان أمين
أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة



إبن ناصر بن شهرة

أحد أبطال ثورة 1871 م



أحمد بوزيد قصيبة

في آخر ١٩٧١ وقع احتفال بالذكرى المئوية لثورة ١٨٧١ في مدينة الاغواط حضرته السلطات المدنية والعسكرية . والقى فيه الاستاذ احمد بوزيد قصيبة مدير ثانوية التعليم الاصلي بهذه المدينة هذا الخطاب .

هذا ونذكر بانه كان سبق ان احتفل بالذكرى المئوية لهذه الثورة في كل من صدوق ، ومجانة ، وقلعة بني عباس بولاية سطيف ، وفي بني مناصر بولاية الاصنام ، وهذه هي المرحلة الثالثة .

احتفل الشعب الجزائرى فى عدة جهات من الوطن بذكرى مرور قرن على ثورة ١٨٧١ م . الخالدة وقد جاء فى خطاب الاخ السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى ٥ مايو ١٩٧١ م . فى قلعة بنى عباس ما يلى (... ولابد للصحراء من الاغواط الى ورقة وحتى عين صالح من احياء امتداد هذه الثورة الى هناك) ، ثم لما زار مدينة الاغواط فى اعياد الربيع الماضى جدد التذكير بوجوب احياء هاته الذكرى ، وكلفنى باعداد محاضرة عن حياة البطل ابن ناصر بن شهرة احد زعماء هاته الثورة الجبارة فشكرا للسيد الوزير على نشاطه المتواصل فى احياء التراث الوطنى ، وبفضل ذلك كله ها نحن نحتفل اليوم باحياء ذكرى هاته الثورة التى كانت حلقة هامة فى سلسلة الثورات المتتالية فى تاريخ كفاح شعبنا الطويل من اجل التخلص من المستعمرين الظالمين .

وجوب تصفية تاريخنا من الاستعماريات

قبل الشروع فى الموضوع احببت ان اقدم له بالتمهيد التالى ، فقد اشرت فى ذكرى يوم المجاهد فى ٢٠ غشت ١٩٧١ م . الى وجوب الاعتناء بتدوين وتسجيل تاريخ الثورة الجزائرية الكبرى ثورة اول نفمبر ١٩٥٤ م . وما تخللها من بطولات وتنافس فى الجهاد والاستشهاد والتضحية والفداء ، وذلك من طرف مثقفى هذا الجيل الذى عاش الثورة او واكبها واصطلى بنارها واهتدى بنورها ، ليكون ذلك مرجعا صحيحا للاجيال القادمة تستمد منه الفخر والاعتزاز . وخصوصا ان تاريخ الثورة قد اسرع للكتابة عنه اجانب مغرضون يحرفون الحقائق ، او اخوان شرقيون استمدوا اغلب معلوماتهم عن الثورة من هاته المصادر الاجنبية .

وأريد اليوم ان انتهز هاته الفرصة السعيدة لالفت الانظار الى وجوب تصفية تاريخنا من رواسب الاستعمار ودسائسه التى تهدف بصفة عامة الى الحط من قيم الحضارة العربية الاسلامية ، وتمجيد الحضارة اليونانية الرومانية الغابرة وبنتها الحضارة الغربية الحاضرة ، وتصفية تاريخ الجزائر بالخصوص من النزعة الاستعمارية التى تقلل من شان الماضى الجزائرى بل تحتقره وتنكره بالكلية ، وذلك لتبرير احتلال بلادنا واستعمارها واستغلال خيراتها .

وهذا التشويه والدس شنشنة قديمة ابتلى بها الاسلام والمسلمون من اعداء هذا الدين والكائدين له ، حملهم على ذلك الحقد الصليبى الدفين ، والعداوة اليهودية الحاقدة على انتصار الاسلام وسرعة انتشاره فى العالم .

ولم يسلم من هذا الدس حتى كتاب الله العزيز ولاسيما فى قصص الانبياء واخبار الامم السابقة ، وقد تفطن فحول علمائنا من كبار المفسرين لهاته الخزعبلات وسموها (الاسرائيليات) وتصدوا لها بالحرب وطهروا تفسير كتاب الله من اوهامهم ومكائدهم التى تتنافى تماما مع مقاصد القرآن وتوجيهاته الهادية الى سواء السبيل .

فاطلقت على دسائس المستعمرين فى تاريخنا (الاستعماريات) لان افكار المستعمرين متشعبة متنوعة منها الظاهر البين ومنها الخفى كالسم فى العسل ، وكلها ترجع الى اساس واحد هو تبرير الاستعمار وجعله كأنه ضرورة حتمية يجب على من ابتلى به التسليم به كواقع اجتماعى لابد منه .

والحمد لله قد تفطن كتابنا الشباب الى هاته الظاهرة وقرات للكثير منهم ما يدل على اهتمامهم بذلك ، كالاستاذ محمد الشريف ساحلى فى كتابه القيم (ازالة النزعة الاستعمارية من التاريخ) (1)

Décoloniser l'histoire (1)

والاستاذ محمد الميلى ، والاستاذ عبد الله شريط ، والاستاذ عمار الطالبى ، والاستاذ تركى رابح وغيرهم ...

ثم جاءت البشرى السعيدة التى انهت حيرة الحائرين وقلق المثقفين على تاريخ الثورة وتاريخ الجزائر ، فتبنت السلطة الثورية الاشراف على احياء هذا التراث وتصفيته وتطهيره وابرازه للناس تاريخا نقيا صافيا نابعا من اعماق ضمير هذا الشعب المجاهد الكريم ، وهذا العمل عمل ثورى لا يقدر عليه الا الثوار الذين يجعلون مصلحة الوطن العليا فى الدرجة الاولى من اهتماماتهم . فكانت السلطة الثورية عند حسن الظن بها اذ نشرت فى الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية عدد ٦٥ من السنة الثامنة بتاريخ ١٩ جمادى الثانية ١٣٩١ هـ . الموافق ١٠ غشت سنة ١٩٧١ م . امرا رقم ٧١ / ٥٦ مؤرخ فى ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٩١ هـ . الموافق ٥ غشت ١٩٧١ م . يتضمن تأسيس (المركز الوطنى للدراسات التاريخية) الذى سيكون تابعا لرئاسة الحكومة . ونشر كذلك فى نفس العدد بنفس التاريخ مرسوم ، يتضمن تعيين الاستاذ الكبير مصطفى الاشرف (المستشار بالرئاسة) مديرا عاما لهذا المركز . فتأسيس هذا المركز وتعيين هذا الاستاذ الكفء مديرا عاما له ، هو الحد الفاصل بين عهد التخوفات والتساؤلات وعهد بناء صرح التاريخ الجزائرى الصحيح .

ترجمة البطل ابن ناصر بن شهرة

اثناء اعداد هاته المحاضرة والبحث عن مراجعها ومصادر المعلومات عنها ، وجدت الناس قد جهلوا كل شىء عن هذا الرجل العظيم والقليل منهم لايعرف عنه الا الاسم مع ان الاعداء كتبوا عنه الدراسات واعطوه حقه من التبجيل والاعتراف به والشهادة له (والفضل ما شهدت به الاعداء) بالبطولة والشجاعة النادرة والشهامة . وبحثت عن سبب جهل الناس لتاريخ هذا المجاهد فعلمت ان الاستعماريين كانوا يعاقبون كل من تحدث عن الثورات او الثوار ، وذلك لقتل كل روح وطنية ونضالية فى النفوس . ولنفس الغرض كانت قد جمعت السلطة المحلية هنا بالاغواط جميع نسخ كتاب (تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والامير عبد القادر) بالشراء ، والاستعارة من طرف الحكام العسكريين .

واول مرة سمعت فيها ذكر اسم ابن ناصر ابن شهرة فى تونس ايام الدراسة بالزيتونة ، فقد قدم اليها المؤرخ السيد دهينة بن الحاج عيسى لتفقد احوال ولده الذى كان معنا فى البعثة التعليمية التى اوفدها الى تونس استاذنا الشيخ مبارك الميلى رحمه الله قبل انتقاله من الاغواط سنة ١٩٣٣ م . وحكى لنا قصة السيد ابن ناصر بن شهرة ، ولعله لم يكن يحكيها فى الاغواط .

واسم هذا البطل هو ابن ناصر كما ذكره كثير من الكتاب ويعرفه الناس بالتواتر ، وليس اسمه (ناصر) فقط كما ذكره لوى رين المؤرخ لثورة ١٨٧١ م . وتبعه فى ذلك الاستاذ ساحلى وكل من كتب عن ثورة ١٨٧١ م .

فهو ابن ناصر واسم ابيه ابن شهرة وحذفت لفظة ابن الدالة على البنوة للتخفيف ، فهو ابن ناصر بن شهرة بن فرحات . وقد اشتهر جده فرحات بالشجاعة والكرم حتىجعلته قبائل الارباع شيخا ورئيسا لهم . ثم تولى ذلك ولده ابن شهرة الذى كان هو ايضا شجاعا وبطلا وكريما ، وكانت الارباع ترحل الى التل فى الشمال فى الصيف لجلب الحبوب لها ولخيولها . وكان الامن مفقودا ولم يقدر على التنقل الا من كانت له الشجاعة والاقدام على الدفاع عن الاهل والحريم والاموال

والماشية ، فتربى مترجمنا ابن ناصر فى هذا الجو المملوء بالبارود والفروسية والكر والفر ، فكان هو ايضا من رؤساء قبائل الارباع قبل الاحتلال ، وقد ولد سنة ١٨٠٤ م وتزوج اول مرة بنت السيد احمد بن سالم سلطان مدينة الاغواط قبل الاحتلال وولدت له بنتا ولما جاء الاحتلال الفرنسى ، رفض الخضوع له وتوجه الى اعماق الصحراء فلم توافق زوجته هاته على الذهاب معه الى الصحراء ، فطلقها ، وتوفيت بنته منها ، واثناء جهاده فى الصحراء ضد الاحتلال الفرنسى منذ سنة ١٨٥١ م . توجه الى مدينة ورقلة واتفق مع سلطانها على الكفاح وتزوج بنته المسماة الياقوت من فرقة المخادمة بورقلة ، وقد انجبت له ولدين هما : محمد رجع من الشام ووعدته فرنسا بمنصب قائد وشاع انه قتل مسموما فى ناحية قرية زنينة (الادريسية الآن) وضع له السم فى الشاى . وثانيهما ابن شهرة الذى لما رجع من الشام وسمع بالثورة السنوسية فى طرابلس الغرب ضد الاحتلال الايطالى ، ذهب للجهاد هناك واستشهد رحمه الله فى طرابلس سنة ١٩١٢ م . وبعد وفاة الياقوت الخدمية تزوج ابن ناصر بالمرابطة نوة اخت السيد مولاى عبد القادر ادريسى التى انجبت له ولدين ايضا هما ـ فرحات الذى توفى بالاغواط بعد رجوعه من الشام وخلف ولدا اسمه احمد بن فرحات لازال حيا يرزق ، وبنتا اسمها الزهرة ارملة الحاج قد بن الحبيب التى توفيت فى السنة الماضية ١٩٧٠ رحمها الله . والثانى يحيى الذى توفى بالاغواط بعد ان رجع من الشام ، وخلف اربعة ابناء ذكور واربع بنات ، مازال على قيد الحياة منهم ، ثلاثة ابناء وثلاث بنات .

وابن ناصر بن شهرة كما وصفه لى بعض كبار من سالتهم عنه ، كان ربعة ، اشقر اللون احمر الشعر كثيف شعر الحاجبين ، سريع الخطا ، كان يلبس (الحائك) من الصوف ، ويعتم مثل الامير عبد القادر ، ويحتذى الحذاء الطويل . وكان ماهرا فى الرماية يضرب بالرصاص من الامام ومن الخلف ولا يخطىء ابدا ، وكان اذا حمى الوطيس فى الحرب (يتنقب) اى يتلثم . وكان عالما بدقائق الارض الصحراوية ، يقول لوى رين فى ذلك (كان ابن ناصر بن شهرة الملاح الحقيقى للصحراء) . ومهما حاول المستعمرون حصاره للقبض عليه انفلت منهم باعجوبة وتسلل من الحصار بسبب معرفته التامة بخفايا الصحراء .

وكان رحمه الله بطلا شجاعا ودام كفاحه اكثر من ٢٤ سنة ضد الاستعمار الفرنسى من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٥ م . وقد وجد التأييد فى الجنوب التونسى بصحراء الجريد وخصوصا لدى الزاوية الرحمانية بنفطة . التى كانت ملجا وملاذا للثوار الجزائريين والفارين بدينهم من الاستعمار . يقول رين فى ذلك ـ (صفحة ٨٨) ـ (فى نفطة ، كان ابن ناصر بن شهرة الذى خلف اباه كآغا على الارباع سنة ١٨٤٦ م يقوم منذ سنة ١٨٥١ م . بحرب مستمرة ضدنا فى الصحراء الشرقية ، ولم يترك سنة واحدة لم يهاجمنا فيها او قبائلنا التى رضخت لنا) . وكان من انصار ابن ناصر بن شهرة اقاربه من قبيلة المعامرة وقبيلة الحجاج واكثرهم من قبيلة الحرازلية يقول الشهيد بوديسة احد الثوار (من قبيلة اولاد المختار من قصر البخارى الذى سجن بفرنسا وبالاغواط) ، والذى استشهد سنة ١٨٦٤ ، فى بطولة ابن ناصر بن شهرة ـ ولا يعرف البطل الا البطل ، اذ لا يعرف الفضل لاهل الفضل الا ذووه ـ وذلك عند الحديث عن الخيل التى كانت الآداة الهامة فى جهاد الثوار ، وعن الشجعان : (فى الخيل عودى وفى الرجال ابن ناصر بن شهرة) . ولما وقعت الحرب (حرب السبعين) بين فرنسا والالمان فرح المجاهدون

والابطال وعزموا على استئناف الجهاد والكفاح، ومن بينهم ابن ناصر بن شهرة فكان بطلا بارزا من ابطال ثورة ١٨٧١ م . ونازل الاحتلال وصاوله الى ان انتهت الثورة فسافر الى بيروت الشام حيث امضى بقية حياته بها مجاورا لصديقه الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر ، وبها توفى رحمه الله سنة ١٨٨٤ م . فيكون قد عاش ٨٠ سنة .

واثناء اقامته بالارض العرشية للاربـاع فى ناحية المخرق ، كان اذا قدم الى الاغواط لقضاء مآربه او فى مروره بها فى رحلة الصيف الى التل كان ينزل بمكان (الجدر) مركز القاعدة الجوية الآن ، وينزل ايضا فى الضاية القبلية قرب مقبرة اسلافه (اولاد عيسى بن على) ، وكذلك فى مكان (قنيفيد) بين السريجة وبرج السنوسى ، وكان صديقه بالمدينة واحد اقاربه هو المرحوم السيد الحاج احمد الشاوى مقدم الطريقة القادرية ، التى كان ينتمى اليها ايضا ابن ناصر بن شهرة .

جهاد ابن ناصر بن شهرة منذ سنة ١٨٥١ م .

بدأ المجاهد البطل ابن ناصر بن شهرة جهاده سنة ١٨٥١ م . وسأعرض عليكم باختصار مواقف بطولية فى الجهاد فى ربوع صحرائنا الجزائرية —

فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٥١ م . كان ابـن ناصر ابن شهرة وقبائل الارباع تحت الاقامة الجبرية قرب المعسكر بوغار ، ولكنه رفض هذا التصرف من الفرنسيين وتوجه الى الشهبونية حيث لحقه الملازم اليهودى (كروس) مع فرقة من ٣٠ من فرسان الصبائحية ، لان كروس ادعى انـه صديق ابن ناصر بن شهرة ، وهو سياسى ديبلوماسى ، يعرف نفسية العرب وكيف يؤثر فيهم ، فلما اتصل به للمفاوضة ، لم ينجح ، فجردهم ابن ناصر بن شهرة واخوه ابوبكر من اسلحتهم والبستهم العسكرية وقال للملازم الفاشل — انى اجردك من اسلحتك وخيولك واطلق سراحك ، وارجع الى من ارسلك فى المدينة وقل له — (ان ابن ناصر بن شهرة قد فارق خدمة الفرنسيين التى كلها مذلة واهانـة ، ويلتحق بمن يمثل الدين والاستقلال) يعنى بذلك المجاهد البطل شريف ورقلة السيد محمد بن عبد الله ، فرجع الملازم كروس وفرقته الى بوغار مشيا على الاقدام . ثم اتصل بطلنا ابن ناصر باخيـه فى الجهاد محمد بن عبد الله فى ورقلة ، ثم رجـع الى الشمال الشرقى واستولى على قرية قـصر الحيران وحصنها ، وذلك فى ٣١ جويلية ١٨٥٢ م. ولما عزم سكان مدينة الاغواط على الثورة فى وجه الفرنسيين اتصلوا بالبطل ابن ناصر بن شهرة فى وفد عظيم وكان من بينهم احد شيوخ بنى الاغواط السيد يحيى بن معمر الذى كان متفقا معه فى السياسة النضالية ، وبعد مفاوضات التمسوا منه ان يتصل بسلطان ورقلة ليكون قائدا للثورة، فذهب اليه ووافق على ذلك لكنه كان مريضـا فرجع ابن ناصر بن شهرة الى قصر الحيران ثم التحق بـه السيد محمد بن عبد الله ومنها ذهبا معا الى مدينة القرارة للتسليح والتموين . وقبل ذلك كان قد حاول الاتصال به السيد الشريف بن الاحرش الذى كان خليفة الامير عبد القـادر ثم صار باش آغا على اعراش اولاد نائـل ، والتقيا فى مكان اللقحات فى الشبكة قرب بريان فلم تنجح هاته المفاوضـات ، وهنـاك وقـع الفرنسيون فى رهب شديد باتصال ابن ناصر بن شهرة بثوار الصحراء .

وبعد احتلال مدينة الاغواط ، وتمركز الجيش الفرنسى بها ، لجا ابن ناصر بن شهرة الـى الجنوب التونسى ينتظر تطور الاحداث والفرص لاستئناف الجهاد ضد المستعمرين ، وكون فى الجنوب التونسى انصارا واعوانا من ابطال تلك الجهات ، ولما سمع بثورة اولاد سيدى الشيخ فى صيف سنة ١٩٦٤ م جاء بطلنا الى ورقلة واتصل

فيها بالسيد سى العلاء من اولاد سيدى الشيخ وفى ٦ اوت ١٨٦٤ كانا معا على رأس جيش عظيم ١٥٠٠ فارس فى عين طاقين ووقعت فيها معركة عظيمة بينهم وبين القوم وعملاء المستعمر. وفى ٢١ اكتوبر ١٨٦٤ م . وصل ابن ناصر بن شهرة الى واد النساء جنوب بريزينة ، ووصل مع اولاد سيدى الشيخ ومرافقيه من الارباع الى سيدى الحاج الدين فى صحراء الساورة ، مارين بواد زرقون ومحيقن والقيمن وتاجرونة والماية ، وقد كانت ملاقاة هؤلاء الابطال فى وادى ميزاب قرب بنى يسقن وفى متليلى ونومرات مما ادى بالسلطة الاستعمارية الى ان يقرر الوالى العام فى نوفمبر ١٨٦٤ حجز جميع قوافل بنى ميزاب وحرمانهم من الحبوب التى تأتيهم من الشمال وذلك عقابا لهم ولئلا يساعدوا الثوار فى الصحراء .

وفى سنة ١٨٦٥ م . رجع ابن ناصر بن شهرة وسى العلاء الى مدينة ورقلة ، وفى ربيع سنة ١٨٦٦ م . توجه ابن ناصر بن شهرة وسى الزبير وابن اخيه سى أحمد بن حمزة من زعماء ثورة اولاد سيدى الشيخ الى مدينة المنيعة ومنها انتقل الى عين صالح لتجنيد المجاهدين من توات ومن اشعابنة ومن التوارق ، وقد دخلت ثورة اولاد سيدى الشيخ الى مدينة عين ماضى التى دخلها سى العلاء فى شهر جانفى سنة ١٨٦٩ م . ومعه سى قدور ابن اخيه واعلنت عين ماضى الثورة فتوجه اليها جيش فرنسى عظيم من مدينة الاغواط بقيادة الكولونيل دى سونى لمعاقبة شيخ الزاوية وسكان عين ماضى ، ولما سمع بذلك المجاهدون جمعوا فى اقرب وقت وبسرعة فائقة ٣٠٠٠ من الفرسان والف من المشاة واستعمل الجيش الفرنسى لاول مرة فى الجزائر أحدث الاسلحة فكانت الغلبة للتفوق فى التسلح ، وفى ١٠ فيفرى ١٨٦٩ اعتقلت السلطة الاستعمارية شيخ الزاوية ونفته الى بولوغين بالجزائر ومعه ١٨ من أعيان عين ماضى ، ثم نقلت شيخ الزاوية الى مدينة بوردو . وفى نفس هذه المدينة ظهر فى شهر مارس ١٨٦٩ م . ظهر فى صحراء توات ثائر وزعيم للجهاد جديد هو السيد شريف محمد بن التومى بن ابراهيم الغيشاوى المشهور بأسم بوشوشة واعلن انه سيجاهد ضد الكفار المسيحيين حتى يطهر منهم البلاد الاسلامية وتجند تحت لوائه كثير من ابطال الصحراء من التواتيين وشعانبة متليلى وشعانبة المواضى بالمنيعة ، واستولى على المنيعة وسجن قائدها من طرف الفرنسيين ، ولما سمع بذلك ابن ناصر ابن شهرة التحق به وشرعا فى اعداد الناس للجهاد والكفاح حتى اندلعت ثورة الحاج محمد المقرانى فكان من ابرز زعمائها وأبطالها ومن المنظمين لها كما سياتى بيانه .

ولذلك نقترح على السلطات المحلية أن يسمى حى (قصر البزائم) (حى ابن ناصر بن شهرة) ، وبناء نصب تذكارى تخليدا لهذا البطل فى مكان (تنيفيد) ، على الضفة اليسرى لوادى مزى . وتسمية قرية « المخرق » (ابن ناصر بن شهرة) .

دور ابن ناصر بن شهرة فى ثورة ١٨٧١ م .

شوه الكتاب الفرنسيون تاريخ ثورة ١٨٧١ م . التى اشتهرت بثورة المقرانى ابرز زعمائها وقادتها وابطالها الميامين . ولاسيما عند تحليل احداثها والتكلم عن اسبابها ونتائجها. وكل ذلك نضرب عنه صفحا ولا نحكى زورهم وبهتانهم ، ويرجع السبب الرئيسى لثورة ١٨٧١ م . الى عزم الشعب الجزائرى على محاولة التخلى مرة اخرى من المستعمرين الظالمين ، واراد اغتنام فرصة انكسار الجيوش الفرنسية امام الالمان ووقع ملكها الامبراطور نابوليون الثالث فى الاسر ، والانقلاب الذى وقع

من طرف اليساريين فاعلنوا الجمهورية الفرنسية الثالثة ، وانتقال الحكومة الى مدينة (تور) ثم الى مدينة (بوردو) . وقد صدرت من بعض هؤلاء الكتاب بعض الحقائق والعبارات التى تشير الى الاسباب الوطنية الشريفة فى اعلان الجزائريين لثورة ١٨٧١ م .

وقد وقعت السلطة الاستعمارية فى فوضى لا نظير لها وتطاحن الحكام المدنيون والعسكريون تطاحنا علينا ، راى فيه قادة الشعب الجزائرى الفرصة السانحة للخلاص ولطرد المستعمر الى البحر .

ولم يكن قرار منح الجنسية الفرنسية بصفة جماعية للاسرائليين الجزائريين الا جزئية من جزئيات آثار السياسة الاستعمارية ، بل راى فيه السكان تطورا جديدا فى هاته السياسة الرامية الى محاولة مسخ كل ما كان قبل الاحتلال من مظاهر ، (وعكس ما ادعاه مؤرخو هاته الثورة الفرنسيون) رأى الناس فى هذا القرار اعتداء على حرية الاديان فى الجزائر ، وخشى اهل النظر البعيد أن يكون ذلك خطوة نحو منح المسلمين هاته الجنسية بصفة جماعية واشار الى ذلك الكاتب لوى رين فى كتابه المذكور صفحة (٩٢)

(... ولكن البعض وهم المرابطون رؤساء الزوايا راوا فى ذلك دليلا على تسامحنا الدينى الذى حملنا على فرض قانوننا المدنى على الاسرائليين بدلا من قانونهم الدينى ، وكانوا يظنون بدون شك اننا يوما ما سنتصرف مثل هذا التصرف بالنسبة للقانون الدينى للمسلمين) ، ويعلق الكاتب مستغربا هذا الفهم قائلا — (وهذا دليل على التفسير الغريب من طرف الاهالى فى بعض الاحيان لبعض اجراءاتنا) . ويقول فى صفحة (٨٥) — (.. فى ذلك الوقت ومدة كامل شهر سبتمبر ١٨٧٠ م . انتشرت انباء مؤلمة عن انحدار جيوشنا النظامية وخصوصا من طرف بعض الجرحى فى معركة (ريشهوفن) من الجنود الجزائريين الذين نقلوا الى الجزائر وبالغوا فى تصوير انكسارنا وضعفنا واضمحلال دولتنا) .

وقال الاستاذ اوقيستان برنار Augustin Bernard فى الجزء الثانى المتعلق بتاريخ الجزائر من كتاب (تاريخ المستعمرات الفرنسية والتوسع الفرنسى فى العالم) صفحة (٣٨١) — (... خلاص الحكومة Khelass El Houkouma انتهت كل سلطة وشرعت القبائل والاعراش فى التسلح ، وصعب قبض الضرائب ، ووضعت المواشى فى مامن فى الجبال) . ولقد كون الشعب تلقائيا مجالس شعبية تتكون من ١٠ الى ١٢ عضوا لها جميع الصلاحيات وسميت الشرطية ، تراقب القياد وتفرض التغريم ، وتحجز املاك المخالفين والخونة للقضية العامة ، وتشترى الاسلحة ، والبارود ، والعتاد ، والخيل ، وتعيد النظر وتنقض احكام القضاة ومجالس التأديب الاستعمارية ، وكانت اول شرطية تاسست هى شرطية السحارى قرب بسكرة وشرعت فى اعمالها فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٠ م . يقول لوى رين فى ذلك (... وقد بلغ ببعض هاته المجالس الشعبية وذلك فى الوادى بسوف ان حكمت بالاعدام على السراق) .

واعتقد الناس فى كامل البلاد ان فرنسا امانها ستخرج من الجزائر أو تنسحب الى مدن الساحل
واثناء هاته الاستعدادات النشيطة فى الشمال وخصوصا بعد اعلان الجمهورية الفرنسية الثالثة فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م . كان الامير عبد القادر فى دمشق الشام الواقعة تحت حكم دولة الخلافة العثمانية حليفة الالمان ، يعلم جيدا حقائق الامور ، وراى ان الفرصة سانحة لاستئناف الجهاد لتحرير البلاد ، فارسل ابنه الثانى الامير محيى الدين ليلتحق باخوانه الثوار فى داخل الوطن ، وعزم الجميع على اعلان الثورة بمجرد انتهاء شهر رمضان المعظم سنة ١٢٨٧ هـ . الذى بدا فى ٢٤ نوفمبر وانتهى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٠م

يقول فى ذلك الاستاذ سعد الله فى ندوة ثورة ١٨٧١ م . العدد الثانى من مجلة (الاصالة) شهرمايو ١٨٧١ م . صفحة (٥٨) مايلى — (.. ففى احد الاصياف كنت فى سوريا والتقيت مع جماعة من احفاد الامير ومنهم حفيد كان كبير السن وجدته على الفراش ... وقد توفى الان ، ومما قال لى وانا اسجل هذا فى مذكراتى الخاصة بأن الامير عبد القادر هو الذى ارسل ابنه محيى الدين عن طريق طرابلس التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، جنوب تونس ، ودخل محيى الدين الى الجزائر عن طريق الجنوب الشرقى) .

جاء الامير محيى الدين الى تونس ولكن احتجاج القنصل الفرنسى بها لدى الباى حمله على الامتناع عن اى اتصال ، وادعى المرض ، وأعلن انه ينوى الرجوع الى سوريا عن طريق مالطة وابحر من تونس فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٠ ولكنه بعد ايام قلائل نزل بمدينة طرابلس ومنها توجه برا الىتوزر ثم الى مدينة نفطة . وفى نفطة التى كانت مركزا ومأوى للثوار الجزائريين وملجأ لكل الذين قد هاجروا اليها لالسبب كما يقول لوى رينفسه (سوى الرغبة فى العيش فى أرض اسلامية ورفض أن يكونوا رعايا للمسيحيين) . صفحة (٨٨) . وقد التقى الامير محيى الدين فى نفطة باخوانه فى الجهاد الثوار ابن ناصر بن شهرة ، ومحمد بوعلاق التونسى ، واولاد البطل الشعانبى السوفى بوطيب بن عمران وكانوا جميعهم فى ضيافة واكرام ومساعدة رئيس زاويتها الرحمانية الشيخ مصطفى بن عزوز الجزائرى .

بدا الامير باعداد الاعراش والقبائل وتسليحهم وتكوين القوم وشراء الاسلحة والعتاد ثم ارسل هو وابن ناصر بن شهرة اول رسالتيهما الى القبائل والاعراش ، وكانت رسائلهما ترسل اثنتين اثنتين ، الرسالة الاولى من ابن ناصر بن شهرة يعرف بها بحضور الامير محى الدين ابن الامير عبدالقادر والثانية من الامير محى الدين نفسه يدعو الناس فيها الى الاستعداد للجهاد واتخاذ كل الوسائل من اجل الكفاح . وهذه ترجمة الرسالة الاولى من ابن ناصر بن شهرة عن الفرنسية التى كانت مترجمة عن العربية والتى لم نعثر عليها : فى راس الرسالة ختم مربع قطع جانب منه ، معروف فى كامل الصحراء ، (ان مولانا الامير محيى الدين ابن الامير الحاج عبد القادر قد جاء بأمر من السلطان نصره الله ، انه يريد نصر الدين ، وان شاء الله سيذهب من هنا الى الجزائر ليلتحق بابيه الذى سيكون فى حاجة اليه . وان الجيش المرسل من طرف السلطان قد وصل الى طرابلس . فاذا عزمتم على القدوم نحونا (اذا كنتم تحبونه حقا) ، فأرسلوا له وفدا من طرنكم . والا فلا تلومن الا انفسكم لما سيحدث (وحامل هذا اليكم سيكمل لكم بصوت رفيع جميع المعلومات كتبه الامير ابن ناصر بن شهرة والسلام . ٦ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . (٣٠ ديسمبر ١٨٧٠ م)

اما رسائل الامير محيى الدين فكانت تحمل من فوقها ختما كبير مستديرا (قطره ٣٥ ملمتر) وهو حجم اميرى . وهذا نص الرسالة الاولى : (وما النصر الا من عند الله . من طالب العون من القوى القاهر ، الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر فى سنة ١٢٨٧ هـ . جئنا الى هنا قصد الدفاع عن الدين وحماية الوطن . اننا نعلم انكم ترغبون فى الجهاد (وباسم الدين نجد فيكم الاخ الحميم والمؤيد) . انالله قدسحق اعداءنا ولم يبق لهم لا وطن ولا جيش . كونوا مستعدين ليوم قدومنا نحوكم . وانكم تعلمون ان الدين لا يسمح الا للعاجزين عن القيام بالقتال . كل رجل صحيح يجب ان يشارك فى الجهاد ، سواء بنفسه اوبماله استعدوا اذن لرفع شأن الدين وانى اعرف ان ذلك دائما هو املكم وانكم كرماء ، ان وقتالذهاب قد حان ، وقت تحريركم قد قرب . فاستعدوا والسلام) .

ارسلت هاته الرسالة الاولى وكثير فى معناها الى جميع رؤساء القبائل والى جميع السكان . والتحق الارباع بقائدهم لما جاءتهم رسالته وكان برفقة الامير محيى الدين السيد ابن هلال احد كتاب والده القدماء والسيد سى محمد زروق ابن سيدى صالح احد الاشراف من ناحية بسكرة واحد ابطال معركة الزعاطشة والذى كان لاجئا فى طرابلس الغرب ، والسيد ابراهيم بن عبد الله مقدم الطريقة القادرية واحد ابطال ثورة ١٨٦٤ والسيد محمد بن الحشانى من قرية بوعزيز فى بسكرة والسيد سليمان سلطان تقرت سابقا .

وشاع فى الجنوب فى تلك الايام قدوم الجيوش التركية والمصرية لنصرة المسلمين فقد كتب السيد سى محمد زروق بن سيدى صالح من نفطة الى قائد بسكرة محمد الصغير بن قانة الذى احالها الى الادارة الفرنسية ، جاء فيها ما يلى — (ان مولانا الامير محى الدين ابن الامير عبد القادر قد جاء الى ابن ناصر بن شهرة ليقوم بالجهاد المقدس . ان سلطان اسطنبول قد ارسل جيشا الى طرابلس ، وجعل الايالة التونسية والجزائرية تحت امارة اسماعيل باشا نائب الملك فى مصر . عدة دول وافقت على التقسيم وبعضها لم توافق . والسلطان يريد ان يتخلص عرب الجزائر من عدوهم قبل ان يكثروا . وعندما اتفق مع سى محيى الدين ساعطيك اخبارا هامة فى هذا لشان .) يقول لوى رين — (ارسل الينا الرؤساء الموالون لنا عددا كثيرا من هاته الرسائل وقد تجمع لدى القائد العسكرى لناحية بسكرة نحو (٤٤) رسالة كلها محفوظة فى وثائق الولاية العامة وكان على بعضها ختم الامير محيى الدين وعلى بعضها ختم ابن ناصر بن شهرة ، وقد كانت مرسلة الى رئيس زاوية تماسين ، والى السيد على باى آغا تقرت وورقلة والى رؤساء واعيان الطرود بسوف ، والى الاغواط ، ومتليلى ، ومزاب ، والى الشريف بوشوشة ، والى المخادمة والشعانبة ، وسعيد عتبة بورقلة وغيرهم . .) ويقول رين ايضا : (وكل هاته الرسائل متشابهة فى القول والاسلوب ويظهر انها امليت على كتاب عديدين) .

وكانت السلطات الفرنسية تجهل اولا وجود الامير محيى الدين بجنوب الجزائر ثم كذبت الخبر واشاعت انه شخص آخر منتحل لاسم الامير ، ثم روجت اشاعة براءة الامير عبد القادر منه ونشرت عدة رسائل فى الجريدة الرسمية المبشر وفى الاسواق على انها من الامير يحذر فيها الناس من اتباع ابنه العاق ، وانه غير راض عنه ولا موافق على تصرفاته . والصحيح ما قدمناه من ارسال الامير لابنه للجهاد وقدارسل رسالة واحدة فقط الى حكومة بوردو بواسطة قنصلها العام فى دمشق يخفف من وقع الحادث ، وقال فيها: انه ارسل ابنه المريض للمعالجة بمدينة الاسكندرية ولتبديل الهواء هناك .

وكان اثناء هاته الاستعدادات قد قام البطل المجاهد محمد بن التومى الشهير باسم بوشوشة الغيشاوى باعلان الجهاد فى الصحراء واستولى على مدينة المنيعة وطرد قائدها جعفر ، ثم استقر بمدينة عين صالح فى شهر مايو ١٨٧٠ م وكون جيشا عظيما من قبائل الشعانبة المواضى ، وشعانبة متليلى وشعانبة طرود سوف ، واجتمع فى الصحراء ثوار اولاد سيدى الشيخ بزعامة سى الزبير وثوار الشعانبة بقيادة بوشوشة ، وثوار الصحراء الشرقية بقيادة ابن ناصر بن شهرة والامير محيى الدين وفى نفس الوقت كانت الثورة مشتعلة فى الشمال بقيادة المجاهد الحاج محمد بن الحاج احمد المقرانى ، والشيخ ابن الحداد رئيس الزاوية الرحمانية فى صدوق ، ثم تحت قيادة بومزراق المقرانى والسيد عزيز بن الشيخ الحداد وقد استولى الثوار على برج بوعريرج ومجانة ووصلت الثورة الى ناحية الاخضرية (باليسترو)

والى بنى مناصر قرب شرشال ، واستولى الامير محيى الدين على نقرين وتبسة وانتشرت الثورة من الساحل وفى الجبال الى اعماق الصحراءحيث استولى ابن ناصر بن شهرة على تقرت وورقلة وتحمس الناس للجهاد والدفاع عن العقيدة والوطن وكان المرحوم المقرانى قد استشهد فى ٥ مـاى ١٨٧١ م فى مكان سوفلات قرب عين بسام ، وفى ١٣يوليو ، جويلية سنة ١٨٧١ م القى القبض على الشيخ الحداد ، وتكبد الفرنسيون خسائر كبيرة واضطرو الى خوض اكثر من ٣٤٠ معركة اشتبكت فيها ثوارنا الابطال وجنودهم ضد الجيوش الفرنسية والعملاء الجزائريين الذين كانوا فى خدمة ركابهم ولعل وجود هؤلاء العملاء فى الشمال والجنوب هو السبب الرئيسى فى فشل ثورة ١٨٧١ م وعدم نجاحها رغم الاستعدادات زيادة على عدم وجود التنظيم العسكرى والقيادة الموحدة ، والتكوين السياسى للقيادة والشعب ، وكذلك مجىء الامدادات من العتاد والسلاح والجيوش من فرنسا بعد تفرغ جيوشها من حرب السبعين .

ولما انقلبت الحال فى الشمال قرر آل المقرانى الاعتصام بالصحراء فتوجه ركبهم نحو الجنوب على طريق المسيلة ثم واصلوا السير ووصلوا الى عقلة البيضاء على شط زاغز بعد ان مشوا ليلا اكثر من ٨٠ كلمترا وهناك اجتمعوا فى ١٠ اكتوبر ١٨٧١ م . ليقرروا مصيرهم ، وكان اغلبهم قد اشار بالاتجاه الى الايالة التونسية الشقيقة ومنهم الزعيم بومزراق وكان عددهم بين ١٥٠ و ١٦٠ من بينهم ١٧ رجلا من اعيانهم وكبرائهم وهم ، السيد احمد بومزراق ، السيد السعيد بن بوداود ، السيد على بوزيد ، السيد ابن عبد الله بن الحاج احمد ، السيد الشريف بن عبد الرحمن ، السيد دحمان بن القندوز ، السيد الحاج بن عبد الرحمن ، السيد الاخضر بن عبد الرحمن ، السيد محمد بن قويدر ، السيد الصغير بن بورنان ، السيد احمد بن بورنان ، السيد احمد بن عبد الله ، السيد احمد بن محمد بن عبد الله ، السيد عبد الرحمن بن القندوز ، السيد محمد بن عبد السلام ، السيد احمد بن الشلالى . وقرروا الدخول الى تونس عن طريق تقرت ، وسوف ، ونفطة ثم توزر ، ولكن جاءتهم الاخبار بأنه لايمكنهم الذهاب الى سوف لعدم الامن هناك ، فعدولوا عن ذلك وقرروا الالتحاق بابن ناصر بن شهرة فى ورقلة ، فمروا بقرية العلية قرب تقرت فأبوا ان يضيفوهم وامتنعوا حتى من بيعهم اللحم والتمر خوفا من انتقام بوعكاز ، بل قابلوهم ببرودة ، خلافا لعادات العرب فى الكرم والضيافة مما جعل لوى رين يتعجب من هذا التصرف ازاء ابطال وعظماء ، امثال المقرانى واقرابه وانصاره . ولما سمع بهم ابن ناصر بن شهرة ، والبطل بوشوشة ، والبطل سى الزبير من اولاد سيدى الشيخ ، وكان ذلك اليوم (٢٠ اكتوبر ١٨٧١ م .) يوما مشهودا بالغ الابطال فى الحفارة واكرام اخوانهم حتى انسوهم همومهم وقرروا البقاء فى الصحراء، بل وضعوا أنفسهم تحت رئاسة السيد بومزراق . وهذا الموقف الرائع الدال على الاخوة فى الاسلام وفى الجهاد يبرهن بكل وضوح على ان الشعب الجزائرى كان شعبا واحدا متآخيا متضامنا فى السراء والضراء لا فرق بين سكان شماله ولا بين سكان جنوبه ولا فرق بين العرب والامازيغ ووحدت الدماء بينهم،وهوبرهان على ان الاستعمار هو الذى احدث فى صوفنا العداوة والبغضاء والعقلية الجهوية ، وكانت مدينة بنى يسقن فى وادى ميزاب المستودع الحصين الذى وجد فيه الثوار السلاح والتموين والعتاد والسلاح والبارود (يقول الاستاذ اوقستن برنار) المذكور ، (فى سنة ١٨٨٢ م . باستلائنا على

المزاب قضينا على عش الثورة الدائم ، والمستودع الذى كان يجد فيه الثوار ضدنا الاسلحة والعتاد والتموين) . فبفضل مركز نقطة الهام ومركز وادى مزاب الممتاز تمكن الثوار من مصاولة الاستعمار والمحافظة على روح النضال والمقاومة فى نفوس شعبنا ، كما ان ذلك برهان على روح الاخاء بين اقطار المغرب العربى الكبير .

وبفضل ابن ناصر بن شهرة تمكن آل المقرانى من الدخول الى تونس ، ومنها اتصلوا بالباى الذى اشترط عليهم تحت ضغط فرنسا ان يتفرقوا فى البلاد وان لايسكنوا فى جهات الحدود الجزائرية وقد بلغ عددهم من بعد نحو ٥٠٠ لاجىء سياسى وبقوا بها الى ايام الاستقلال فمنهم من رجع الى الوطن العزيز ، ومنهم من بقى هناك . ولكن زعيمهم السيد بومزراق كان قد اتجه الى ناحية للبحث عن طريق اللحاق بتونس ، وكان يرافقه خادمه فقط ، فلم يهتد للرجوع الى الركب وبقى يمشى مدة ستة ايام بدون ماء ولا زاد الا الاعشاب حتى وصل الى ماء فى ناحية الرويسات قرب ورقلة وهناك عثر عليه الجيش الفرنسى مغميا عليهما هو وخادمه ، وذلك فى ٢٠ جانفى سنة ١٨٧٢ م . فنقله الجنرال لاكروا الى قسنطينة وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ثم نقل الى جزيرة كليدونى الجديدة التى كانت معتقلا لدى فرنسا . وفى ١١ جانفى كان قد حاول احد الخونة قتل السيد بوشوشة وتركه قريبا من الميت فعثرت عليه جنود الفرنسيين جريحا فى ناحية المليق قرب عين صالح ونقلوه الى سجن قسنطينة وحوكم بها كمجرم لا كثائر حربى ، وحكمت عليه المحكمة الاستعمارية بالاعدام ونفذته فيه صباح يوم **٢٩ جوان ١٨٧٥** م . على الساعة الخامسة صباحا فى معسكر الزيتون قرب قسنطينة . ومما قال للمحكمة ما اكثر ثرثرتكم وركاكتكم انكم قاتلى لا محالة فاسرعوا بقتلى وأريحونى من سخافاتكم ، اننا ثرنا وها انا بين أيديكم . وواجه الرصاص والموت بكل شجاعة رحمه الله .

وبلقاء القبض على قائد الثورة بومزراق ، والقاء القبض على زعيم الثورة فى الصحراء الغربية والشرقية ، بوشوشة وباستلاء الجيش الفرنسى على مدينة تقرت ثم ورقلة ، يئس الناس من نجاح الثورة ، وتفرق المجاهدون ، منهم من لجا الى طرابلس ومنهم من لجا الى تونس ، وبقى ابن ناصر بن شهرة وحده يقوم ببعض المناوشات يشنها من الجريد ونفزاوة . وفى شهر جوان لجا الى باى تونس الذى اذن له بالركوب من مرسى حلق الوادى الى بيروت وذلك فى يوم ٢ جوان ١٨٧٥م. وكان برفقته رفيقه فى الجهاد الشيخ الكبلوتى ، وفى بيروت استقر بجوار صديقه الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر الى سنة ١٨٨٣ م . هو والكبلوتى ، ثم توفى رحمه الله رحمة واسعة وجازاه هو وجميع اخوانه ممن ضحوا قبله ، او معه ، او بعده ، احسن الجزاء . .

احمد بن ابى زيد قصيبة .

القاضي

سعيد العقباني التلمساني

رابح بونار

تمهيد : لقد سجل القرن الثامن الهجرى بتلمسان وغيرها من مدن الجزائر ازدهارا كبيرا فى الدراسات الفقهية القانونية كما سجل نشاطا كبيرا فى مختلف العلوم كالتاريخ وعلوم اللغة والادب ومباحث الكلام والرياضيات وغيرها وقد كان لكتاب الدراسات القانونية والفقهية المقام الاول فى هذا العصر ، وكانت لهم الاسبقية والايثار على رجال الثقافة الذين يعاصرونهم واهم ما تنبغى ملاحظته هنا ان اعلام القانون فى هذا العصر لم يكونوا من النقلة الحفاظ لا غير ، وانما كانوا يميلون الى اعمال الراى الى الاجتهاد فى دائرة المذهب المالكى ومنهم المترجم سعيد العقبانى واذا رجعنا الى كتب التراجم وتصفحنا تراجم بعض الشخصيات الفقهية اللامعة وجدنا من بينهم ابنى الامام ابى موسى عيسى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وابا زيد عبد الرحمن (١) المتوفى سنة ٧٤٣هـ ومحمد ابراهيم الآبلى (٢) المتوفى سنة ٧٥٧هـ وابا عبد الله محمد بن احمد العوينى الشريف التلمسانى (٣) المتوفى سنة ٧٧١هـ .

وأبا عبد الله محمد بن احمد بن مرزوق بن مرزوق التلمسانى الشهير بالخطيب (٤) المتوفى سنة ٧٨٦ هـ ونجد الى جانب هؤلاء الفقهاء الاعلام شخصيات اخرى لا تقل عنهم شأنا فى الابحاث الفقهية والدراسات القانونية الواعية منهم عمران بن موسى المشذالى البجائى (٥) الذى هاجرها الى تلمسان وانتصب فيها للتدريس الى ان توفى سنة ٧٤٥ هـ ومنصور ابى على الزواوى المتوفى بعد سنة ٧٧٠ هـ (٦) وغير هؤلاء ممن كانوا بتلمسان او ببجاية وقد نبغ مترجمنا سعيد العقبانى فى تلمسان فى هذا العصر وكان فى طليعة اعلامه ممن يفتخر بهم عصره ، وتزدان بهم حاضرته تلمسان ، وقد حفزنى باعث التعريف به وبنشاطه العلمى على ان اخصه بهذه الترجمة وبدراسة مقتضبة حول بعض انتاجه العلمى .

ترجمته : سعيد بن محمد العقبانى التلمسانى ولد سنة ٧٢٠هـ وتوفى سنة ٨١١هـ (٧) والعقبانى نسبة لعقبان وهى قرية من قرى الاندلس التى يعود اليها اصله وقد هاجرت أسرته الى تلمسان واستقرت بها . يقول فيه معاصره يحيى بن خلدون : (٨) انه اول نجباء بيته وهو ذو نبل ونباهة ودراية وتفنن فى العلوم ومهارة فى الحساب والهندسة وأما صاحب الديباج فانه يذكر لنا شيوخه ومؤلفاته فيقول فيه انه أمام فاضل فقيه فى مذهب مالك متفنن فى العلوم .

شيوخه : اخذ عن ابنى الامام ابى زيد وابى موسى وتفقه عليهما واخذ الاصول عن الامام الابلى . ويذكر انه ولى القضاء ببجاية والعلماء يؤمئذ متوافرون كما ولى قضاء تلمسان وله فى القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة .

ويزيد صاحب نيل الابتهاج قائلا (٩) : ان اصله من الاندلس تجيبى النسب وهاجر الى

صفحة من رسالة العقبانى فى الموضوع

تلمسان ومن شيوخه الحافظ السطى الذى اخذ عنه الفرائض وكان يقال له رئيس العقلاء ونقل عن ابن صعد انه كان فقيها علامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان .

تآليفه : ذكر مترجموه له جملة مؤلفات فى موضوعات مختلفة :

١) ففى الفقه له شرح جليل على ابن الحاجب الاصلى .

٢) وفى الفرائض له شرح على الحوفى لم يؤلف عليه مثله

٣) وفى التفسير له تفسير سورة الفتح او الفاتحة أتى فيه بفوائد وزاد عليه صاحب نيل الابتهاج تفسير سورة الانعام (١٠)

٤) وفى الكلام له العقيدة البرهانية فى اصول الديـــن

٥) وفى اللغة له شرح بردة البوصيرى فىمدح النبى ص

٦) وفى الرياضيات له شرح التلخيــص فى الجبر والمقابلة لابن البناء وشرح قصيدة ابــن الياسمين فى الجبر والمقابلة ايضا .

٧) وفى المنطق له شرح جمل الخونجى .

تلاميذه : اخذ عنه طائفة من الاعلام كولـــده قاسم العقبانى ، والامام ابى الفضل ابن الامام، والامام الحجة ابـــن مرزوق الحفيـــد والـــولى العارف سيدى ابراهيم المصمودى والامـــــام العارف ابى يحيى الشريـــف والشيـــخ ابى العباس بن زاغو ، واخذ عنه بالاجازة الامـــام المحقق النظار محمد بن عقاب الجذامى .

قضاؤه : اشتهر الامام سعيـــد العقبانـــى بمهارته القضائية وبتفوقه فى المباحث القضائية وكان اول نجباء بيته كما يقول يحيى بن خلدون وقد شغل القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة كمـــا قدمنا . فتولى القضاء ببجاية ومراكش وســـلا ووهران وتلمسان وحمدت سيرته وكان فى عهد يحيى بن خلدون حوالى (٧٦٠ — ٧٨٠) يتولى قضاء الجماعة بتلمسان وامامة الجامع الاعظم فيها . وقد اكسبه القضاء ومهارته فىالرياضيات قوة على الجدل والمناظرات وصل فيـــها الى درجة الشريف التلمســـانى وكـــان كلاهمـــــا يستشرف الى درجة الاجتهاد المذهبى .

ونريد ان نذكر هنا صورة عن مناظر طريفة وقعت بين المترجم وبين الامام احمـــد القبـــاب الفاسى (١١) وكان علامة جليلا وهى تعطينا صورة جلية عن النشاط الفقهى والتعمـــق فى مباحثه ومحاولة الاجتهاد فيما لا نص فيه للايمة السابقين وكان اعلام القانون فى هذه الفتـــرة يستشرفون الى الاجتهاد المذهبى ومناقشة آراء الفقهاء السابقين كما نجد ذلك عند المترجم وعند الشريف التلمسانى وابن عرفة بتونس وابن لب والشاطبى بالاندلس وغيرهم وهذه المناظــــــرة التى دارت بين هذين العلمين من اعلام المذهب المالكى بعد منتصف القرن الثامن الهجرى تبدو فيها محاولة الاجتهاد واضحة جلية، لان موضوع المساجلة لم يتعرض له الفقهاء قبل ذلك ولـــم تكن هناك احكام سابقة تتضمن البت فيها هذا ما دعا الفقيهين سعيد العقبانى واحمد القباب ان يجتهدا فى استنباط الحكم الشرعى المناسب وان يستعمل كلاهما مختلف الادلـــة النقليـــة والعقلية لابراز الحقيقة وافحام الخصم .

ومن الطريف ان نذكر أن موضوع هذه المناظرة يتصل بضرب من ضروب **التامـــين الاجتماعى** وصلت اليه بعض النقابات الحرفية فى هذا العهد الاسلامى كما ورد فى مسألة المناظرة ولا يبعد ان يكون هذا النمط شائعا فى جميع حواضـــر المغرب الاقصى والادنى وتونس ولعل فى هذا النموذج ما قد يطلعنا على تنظيم محكم للتجارة والصناعة التقليدية وينمى معلوماتنا عن النشاط التجارى وانظمته الاجتماعية الدقيقة فى عصر ما بعد الموحدين .

وقد كان الباعث على احداث هذا النوع من التامين الاجتماعى للتجار هو ما كان ينصـــب عليهم احيانا من ضرائب تفرضها الدولة عليهم فكان هذا التنظيم موسيلة لتخفيف هذه الضرائب وتحمل اعبائها اما المنتجون من الحاكة وغيرهم فقد كانوا كما تبدو لنا حالتهم الاقتصادية مـــن خلال المناظرة قليلى الارباح ، عديمى الثروة ، واثمان منتجاتهم كانت لا تزيد على لوازم نفقاتهم ومعاشهم بخلاف التجار فانهم كانوا احسن منهم حالا ، واكثر اموالا .

موضوع المناظرة : جاء فى الدرر المكنونة فى نوازل مازونة (١٢) : ان جماعة من التجـــار بمدينة سلا بالمغرب الاقصى اتفقوا على اخراج درهم عن كل بضاعة يشتريها واحد منهم لتوضع عند **امير التجار** ، وعند الحاجة اليها فى دفــع الضرائب يستعان بــها ، واشتكى الحاكــة البائعون من ذلك واستفتوا سعيــد العقبانى وكان قاضيا بسلا فأجابهم بالجواز ثم استفتوا الفقيه أحمد القباب بالرباط فأجابهــم بالمنــع ووقعت مناظرة كتابية بينهما وعقبتها مناظرات اخرى جمعها القاضى العقبانى فى كتاب دعــاه (الباب اللباب فى مناظرة القباب) ووجهة نظر العقبانى تتلخص فى ان هؤلاء التجار قد اتفقوا فيما بينهم عن تراض على ان يجمعوا هـــذه الدراهم لوقت الحاجة وهى مملوكة لهم ملكيــة مشتركة فى صندوق اشبه ما يكون بصنـــدوق تضامن لهؤلاء التجار فهى لذلك جائزة ومشروعة

أما القباب فانه رأى فى هذا الاتفاق تواطؤا على الحاكة البائعين ولذلك افتى بأن الدراهم المجموعة هى ملك لاولئك البائعين لا للتجار .

ولاعطاء صورة واضحة عن هذه المناظـــرة الطويلة وبسط حجج الفقهيين معا بايجـــاز نوردها فى صورة حوار فيما يلى :

سعيد العقبانى : ان هذا الدرهم المخرج من ثمن السلعة المشتراة هل يستوجب نقصـــا لاثمان الحاكة أم لا وهل يتعلق للبائعين بذلـــك حق ؟ مع علمهم بما اقدم عليه التــجار اثنــاء التعاقد ، وأن البائع منهم لا يبيـــع الا بعــد أن يستوفى حقه من السلعـــة ، والمشتـــرى اذا اشتدت رغبته فقد يشترى بأكثر من الثمن الذى يدفعه فى حال فتور رغبته ، وعلى العكس من ذلك اذا كان البائع أحرص على البيع فقـــد يتساهل فى الثمن ، فما الذى يشوب بيعا وقع مستوفيا شروطه وأركانه ولو كان ثمن البضاعة غاليا او رخيصا ؟

على اننا نفرض ان المشترى لو تقاعس عن الزيادة فى السلعة لزهده فيها فان شراءه مـــن البائع المضطر يكون صحيحا لانتفـــاء عيوبـــه المبطلة ؟ (١٣)

وايضا فان فقه المسألة يظهر فى ان البائعين لا حق لهم فى ذلك الدرهم المخرج ولا فى منـــع التجار المشترين من توظيفه على انفسهم لان البيع وقع صريحا بثمن مسمى وعليه سلم البائع منهم بضاعته ورضى بذلك فلا حجة لـــه بعــد ذلك !

القباب : لا يجوز للتجار ان يتواطؤوا على ان لا يزيدوا على ثمن معين لان فى ذلك ضـــررا لهؤلاء الحاكة ؟ وكل اضرار بالمسلم حرام . وقد قال الاما ممالك : لا **ينبغى للنفر** ان يجتمعـــوا فيقولوا لا نزيد فى الثمن على كذا .

العقبانى : انه لا دليـــل على ان التجـــار تواطؤوا على أن لا يزيدوا فى السلع وذلك غير مسلم وانما اتفقوا على اخراج درهم من كـــل سلعة يشتريها أحدهم (١٤)

القباب : لا يمكن التسليم بعدم التواطؤ بـــل ان كل تاجر يضع حسابا للدرهم المدفوع عنـــد شرائه فيحاول أن ينقصه من ثمن السلعة وفى هذه مضرة واضحة للبائع (١٥) .

العقبانى : اذا سلمنـــا بمضـــرة البائعـــين فليتواطأ هؤلاء البائعون ايضا ليدفعوا هـــذا النقص عن انفسهم على أن لا يبيعوا الا بزيادة هذا الدرهم ما دام المشترون قد اتفقوا وكل من الطرفين حر مختار فى تعاقده واتفاقه .

القباب : لو سألنا أهل المعرفة فى هذه المسألة لقالوا أن التحامل يقع على الباعة دون التجار .

العقبانى : لا نسلم ذلك فقد نجد التاجر الشديد الحرص من هؤلاء قد يتحامل على نفسه فى شراء سلعة ويقدم على شرائها بثمن غال باهض فأين التحامل فى هذا ؟

القباب : ان التجار يعملون دائما على الحطيطة من ثمن البضائع المشتراة .

العقبانى : لاشك ان البائعين من الحاكة قد يعرضون سلعة بالسوق ويساومها غير التجار من المستهلكين ثم يتدخل التجار ويتزايدون فيها حتى يأخذوها بأكثر مما دفعه المشترى العادى فكيف يمكن الادعاء بعد ذلك من أن التاجر قد اخذها بأقل من ثمنها وانه لجأ الى الحطيطة .

ولنا صورة توضح لنا هذا الايراد وهى أن رب السلعة لو باع سلعته بـ ١٠ دراهم لمن لا وظيف عليه ولم يلتزم باخراج الدرهم من كل سلعة يشتريها ، ثم ان وكيلا له باع نظيرها بـ ٢٠ درهما من احد هؤلاء التجار الملتزمين لهذا الوظيف فهل فى امكان المعترض ان يقول ان الواجب على التاجر أن يزيد درهما على ٢٠درهما آخر مما يقدمه الى صندوق التضامن فان قال نعم فقد طلب ما لا يقبله عقل لان التاجر زاد على المشترى العادى نصف الثمن وان قال بأنه لا يزيد فقد نقض حجته من أساسها (١٦) .

القباب : ما قول المعترض فيما قاله مالك كما جاء فى كتاب ابن المواز لا بأس ان يقول الرجل للرجل كف عنى لا تزد على فى هذه السلعة ، وأما العامة اهل السوق فلا يجوز لهم ان يتفقوا جميعا على ذلك ، وفى عمل التجار ما يشبه هذا !

العقبانى : لا أسلم ان التجار يمتنعون من الزيادة والواقع انهم رغم التزامهم باخراج هذا الدرهم يتزايدون فيما بينهم واذن فأين الامتناع من الزيادة المزعومة ؟

اما مسألة الموازية فانما تشمل تمالؤ أهل السوق على ترك الزيادة ومسألة النزاع يوجد فيها هذا النوع من الاتفاق .

القباب : ان البائعين مضطرون للبيع وتواطؤ التجار ثابت فكيف نبيح لهم ذلك ؟

العقبانى : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلك السلع ؟ ! فان لم يكلفوا بشرائها وهذا ما تتطلبه عقود البيع والمعاملات ، فكيف يلزمون بثمن معين ؟ وانما أوجب الله على الاغنياء أن يواسوا الضعفاء وأما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها والبيع من شروطه الطوع والاختيار ، على اننا مع هذا نقول بانه لو تمالأ اهل الوجود من بائعين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان معطلا لامر البياعات لانها من لوازم الحياة الاجتماعية .

القباب : ان البائعين ضعفاء مضطرون للبيع بأى ثمن وجدوا والمشترين له مفضول أموال الا ما يوافق اغراضهم وبالاثمان التى يستيقنون منها جلب الارباح ، ومن بواعث المواساة التى دعا اليها الاسلام أن لا يجحفوا بحقوقهم فى البيع .

العقبانى : ان أمر المواساة شىء والبياعات شىء آخر الا ترى أن المسافرين قد يبيعون فى حالة الحاجة بأثمان رخيصة وتمضى عقودهم عند جميع الفقهاء ولا يقول واحد منهم ان المشترين قد ظلموهم وايضا لو تصورنا أن البائعين قد اتفقوا على اخراج درهم عن كل سلعة يبيعونها لتوظيفهم أفلا يكون المشترون ملزمين بشرائها بهذا الثمن الذى يريده

البائعون ؟ وهل يسلم المعترض فى هذه الصورة بأن الدرهم المخرج هو ملك المبتاع أم انه يزعم بانه ملك للبائع ، فان قال لاحق للمبتاع فيه فقد نقض حجته فى مسالة النزاع وان قال انه حقه فقد وافقنا فى وجهة نظرنا وهذا هو المطلوب : واخيرا يختم العقبانى مناظرته قائلا بأن العلامة القباب قد اذعن لحجته ، وسكت عن اثارة اعتراضات اخرى حول فتياه ، وقد حاول العقبانى ان يعطينا حلا لهذه المشكلة التى استعصت علي الانظار الفقهية ان تجد لها حكما قاطعا فقال : ان سر هذه المسألة ان ما يفعله التجار من مثل هذا الاتفاق ان كان غرضهم منه هو الاضرار بالحاكة البائعين فانهم يمنعون منه عملا بالمبدأ العام لا ضرر ولا ضرار ، وان كان غرضهم نفع أنفسهم والضرر انما جاء تبعا غير مقصود فلا معنى لمنعهم منه .

تعليق : واذا تتبعنا هذه المناظرة بتأن وامعان استشففنا منها النشاط الذهنى لفقهاء القرن الثامن والتحرر الفكرى الذى كانوا يمتازون به فى خوض مباحث جديدة لم يطرقها من سبقهم من الفقهاء ، ومحاولة الاجتهاد فى ايجاد سند قانونى لاباحتها او حظرها وهذا ما تقدمه الينا هذه المناظرة الطويلة التى لخصناها فى الصفحات الماضية وهى تظهر لنا كلا الفقيهين المتناظرين واسعى الاطلاع ، معتمدين على اعمال العقل غير اننا نجد العقبانى طويل الباع فى جدله ، واسع التصرف فى ايراد مختلف الحجج لتبرير وجهة نظره القانونية المحضة ونجد القباب من جهة اخرى يحاول ان يدخل العنصر الانسانى فى التعاقد حتى لا يقع اجحاف على المتعاقدين وهو لا يكتفى بصورة العقد الشكلية وانما ينظر الى الغاية والنتيجة هل تسلم من نتائج الاستغلال التى يحاربها الاسلام .

ويبدو لنا ان القباب كان يتصور بأن كل اتفاق يصدر من جماعة ما تتعامل مع جماعة اخرى قد يشوبه التواطؤ وتشمله الحرمة بالتالى ، ولكن العقبانى قد اوضح لنا بأن كل اتفاق لم يكن ضد الاخرين وانما كان لمصلحة المتفقين فهو جائز رغم ما قد يلحق أولئك من بعض الضرر غير المتعمد.

والعقبانى نجده فى هذه النتيجة يقترب من نظرية التعسف فى استعمال الحق وهى موجودة فى الفقه الاسلامى ولكنها لم تنسق مباحثها كما فعله كتاب القانون فى العصر الحديث وهذه النظرية تنقسم الى معيار شخصى ومعيار مادى (١٧) والمعيار الاول يرى اصحابه أن التعسف لا يوجد الا اذا توافر قصد الاضرار بالغير لدى صاحب الحق ، والمعيار المادى واصحابه يرون انه يتجلى فى الخروج عن الهدف الاجتماعى ، وقد استند العقبانى — كما راينا فى اتفاق التجار الى انهم لم يريدوا الاضرار بالحاكة وانما ارادوا نفع انفسهم وتخفيف وطأة الضرائب عنهم .

ولو ذهبنا الى البحث عن صور الغبن فى هذا التعاقد لوجدنا ان هذا النوع من الغبن الذى ينصب على الباعة المنتجين ليس فيه غبن بمعناه الفقهى المعروف لان الغبن هو عبارة عن تفاوت كبير بين التزامات أحد العاقدين والتزامات العاقد الاخر ناشىء عن استغلال هذا العاقد الاخر طيشا بينا وهوى جامحا لدى العاقد ، وحد الغبن لا يكون الا اذا بلغ الخمس (١٨) وهو ما لم يصل اليه الغبن الواقع فى قضية النزاع السابقة ، كما أن الاستغلال لا يوجد له اثر فى هذا التعاقد .

واذا جارينا بعض الفقهاء حول موضوع الغبن فانهم يقولون : ان الغبن الفاحش وحده فى العقود لا يعيب الرضا ما لم يصاحبه شىء من الخلابة وعلى هذا استقرت معظم الاجتهادات ذلك لان الغبن المجرد عن كل خديعة لا يدل الا على تقصير العاقد المغبون فى تحرى الاسعار ومعرفة حد البدل العادل ، ولا يدل على مكر

من العاقد الاخر ، ولكل انسان ان يطلب المزيد من المنفعة بالطريق الحر المشروع دون غش واحتيال (١٩) .

ولكن على شرط ان لا يضر ذلك بالجماعة كما فى الاحتكار ، وقد انتبه العقبانى الى ان التجار لو تواطؤوا على ان يشتروا تلك السلعة المعينة لحكم على اتفاقهم بالحرمة ، ولكن اتفاقهم انما انصب على اخراج نسبة مالية معينة كلما اشتريت وحدة سلعية لتوضع فى صندوق تعاونى احتياطى دفعا لمضرة متوقعة لهم لا ارادة الاضرار بالباعة رغم ما قد تنتج عنه مضرة تبعية غير مقصودة للباعة . وقد اهتدى القباب اخيرا الى ان جميع الاعتراضات التى اوردها على فتيا العقبانى لم تجد لها سندا قانونيا يدعمها ولذلك عدل عن متابعة الاعتراض كما اشار الى ذلك العقبانى فى آخر مناظرته .

على اننا رغم تقديرنا للعلاقة العقبانى فاننا نجد فى بعض حججه الطابع الجدلى الذى يستهدف افحام الخصم ، لا اظهار الحقيقة كما فىقوله : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلك السلع ؟ فان لم يكلفوا بشرائها ــ وهذا ما تقتضيه عقود البيع الرضائية فكيف يلزمون بثمن معين ؟ وانما اوجب الله على الاغنياء ان يواسوا الضعفاء واما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها ؟ وفى هذه الحجة طابع جدلى والا فكيف يتأتى لهؤلاء التجار ان يتفقوا على عدم الشراء وفى هذا اضرار صريح بالباعة ؟ وايضا يقول ان المواساة لهؤلاء الباعة لا تكون بطريق الشراء ؟ ولماذا لا تكون المواساة فىتعاقد يعتمد على التعويض والحديث « بع سمحا واشتر سمحا » يشير الى هذا النوع من المواساة ، وقد تكون المواساة مع منتج ضعيف ليست لديه قدرة على التسويق افضل من اللجوء الى مواساته عن طريق الصدقة والاحسان .

وايضا فقوله لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة ولو ماتوا جوعا ــ هو التزام حرفى لشكلية عقود البيع واغفال للعامل الانسانى الذى يستهدف التعامل فى الشريعة الاسلامية مما قد تدعو الضرورة ــ تحت تاثيره الى اغفال حكم ما عن التنفيذ كاغفال حكم السرقة فى عام المجاعة وكتضمين دية من وجد ميتا جوعا فى عرصة قوم الذى اخذ به الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكان سعيد العقبانى قد شعر بضعف ايراداته السابقة فاستدرك ان ذلك الافتراض لا يقع لانه لو تمالأ اهل الوجود من بائعين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان ذلك معطلا لامر البياعات لانها من ضرورات الحياة ، واخيرا نلاحظ ان هذه الخصوبة الفكرية فى الابحاث الفقهية التى لمسنا لمحات منها عند العقبانى والقباب ونلمس نظائرها لدى معاصريهم من الفقهاء كالشريف التلمسانى وابن مرزوق الخطيب وعمران البجائى والمشذالى والشاطبى وابن عرفة وعند من خلفهم من علماء القرن التاسع الهجرى قد تراجعت فى القرن العاشر وما بعده حتى صار الامثال من الفقهاء فيه هو من يحفظ النصوص من المختصرات لا غير ، واما الغوص عند دراسة الاحكام فى امهات الكتب والرجوع الى اقوال الامام مالك بدون واسطة ومحاولة الاستنباط من القرآن والسنة واعمال الفكر كما فعله العقبانى ومعاصروه فلم يكن يفكر فيه احد .

وقد تبدو الان حاجة طلاب الفقه والقانون شديدة لربط دراستهم الفقهية الحديثة بدراسات اعلام الفقه فى القديم كما قد يجدون لديهم ابحاثا طريفة وعميقة قد لا تقل او تفوق عن بعض ابحاث فقهاء العصر الحديث .

هوامش :

(١) احمد بابا السودانى التنبكتى : نيل الابتهاج . مصر ١٣٥١ هـ — ص ١٦٦
ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢٠ —
المقرى احمد : نفح الطيب ج ٧ ص ٤٤٤
يحيى بن خلدون : بغية الرواد ج ١ ص ٧١ — ابن مريم البستان ص ١٢٢
البستانى فؤاد افرام : دائرة المعارف بيروت ١٩٥٨ م — مج ٢ ص ٣٤٩
الحفناوى : تعريف الخلف برجال السلف الجزائر ١٩٠٦ م ج ١ ص ٢٠١ — ٢١٣

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٤٥ — شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢١ — ابن خلدون عبد الرحمن : التعريف تحقيق ابن تاويت ص ٣٣ — نفح الطيب ج ٧ ص ١٦٧ — جذوة الاقتباس لابن القاضى ج ٢ ص ٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٧

(٣) نيل الابتهاج ص ٢٥٥ — البستان ص ١٦٤ — ١٨٤ والتعريف لابن خلدون — تحقيق ابن تاويت القاهرة ص ٦٢ — وبغية الرواد ج ١ ص ٥٧

(٤) السيوطى : بغية الوعاة مصر ١٣٢٦ هـ ص ١٨ — ابن فرحون الديباج المذهب مصر ١٣٥١ هـ ص ٣٠٥ — نيل الابتهاج على هامش الديباج ص ٢٦٧ — نفح الطيب ج ٣ ص ٣١١— ٣١٩ — البستان ص ٣٠٥ — ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦٠ — ٣٦١ — كحالة عمر رضا : معجم المؤلفين ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧ . (٥) نيل الابتهاج ص ٢١٥ — ٢١٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٧٢ — نفح نفح الطيب ج ٧ ص ١٤٨

(٦) نيل الابتهاج ص ٣٤٥ — ج ١ ص ٧٤ — ابن خلدون شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٣٤

(٧) ابن مريم — البستان ص ١٠٦ — الديباج المذهب ص ١٢٤ — نيل الابتهاج ص ١٢٥ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — معجم المؤلفين لكحالة ج ٤ ص ٢٣٠

(٨) بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — (٩) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١٠) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١١) احمد القباب كان فقيها حافظا علامة تولى قضاء جبل الفتح ودخل غرناطة سنة ٧٦٢ هـ ومن تآليفه اختصار أحكام النظر لابن القطان اسقط فيه الدلائل والاحتجاج وشرحه على القواعد فى غاية الاتقان وله مباحث مشهورة مع الامام الشاطبى فى مسألة مراعاة الخلاف فى المذهب احسن فيه غاية ، ويذكر عنه انه لما حج واجتمع فى تونس بابن عرفة واوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصره الفقهى فقال له صاحب الترجمة ما صنعت شيئا فقال له ابن عرفة : ولم ؟ فقال لانه لا يفهمه المبتدىء ولا يحتاج اليه المنتهى ، فتغير وجه الشيخ ابن عرفة والقى عليه اسئلة اجابه عنها ، وهذا ما حمل ابن عرفة على بسط العبارة فى اواخر مختصره .

واشار صاحب نيل الابتهاج الى هذه المناظرة التى وقعت بينه وبين العقبانى وهناك مناظرات اخرى وقعت بينهما وقد جمعها العقبانى فى كتاب سماه بباب اللباب فى مناظرة القباب (راجع نيل الابتهاج ص ٧٣)

(١٢) المازونى : الدرر المكنونة فى نوازل مازونة مخطوط المكتبة الوطنية .
نسخ محمد بن الصديق المشرفى ١٢٤٥ هـ ج ١ الورقات ٤٧٣ — ٤٩٠

(١٣) الدرر المكنونة الورقة ٤٧٤

(١٤) المصدر السابق الورقة ٤٨٧

(١٥) المصدر السابق الورقة ٤٧٩

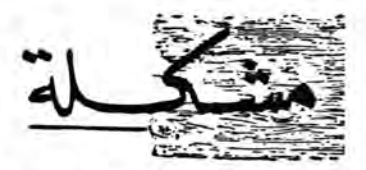
(١٦) المصدر السابق الورقة ٤٨٢

(١٧) هشام القاسم : المدخل الى علم الحقوق ، دمشق ١٩٦٥ ص ٢٧١

(١٨) هشام القاسم : محاضرات فى القانون المدنى : دمشق المطبعة الجديدة ١٩٦٨ م ١٩٦٩ م ص ١٤١

(١٩) مصطفى احمد الزرقاء : المدخل الفقهى العام بيروت . دار الفكر ١٩٥٢ م ج ١ ص ٤١٧

(٢٠) الدرر المكنونة فى نوازل مازونة المصدر السابق ج ١ الورقة ٤٨٢



الصّدق والكذب في الأدب

تعرض القدماء لهذه المشكلة فانقسموا الى ثلاث فرق احداهما تستحسن الكذب او الغلو والاغراق والثانية ترده وتميل الى الحقائق والثالثة تتوسط بينهما فتقبل الافراط بشرط .

د : رشيد مصطفاى

استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

من الفريق الاول قدامة بن جعفر الذى يقول فى نقد الشعر : « وهو انى رايت الناس مختلفين فى مذهبين من مذاهب الشعر وهما الغلو فى المعنى اذا شرع فيه والاقتصار على الحد الاوسط فيما يقال منه . »

ثم يقول بعد ذلك : « ان الغلو عندى اجود المذهبين وهو ما ذهب اليه اهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وقد بلغنى عن بعضهم انه قال : أحسن الشعر اكذبه وكذا يرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم ومن انكر على مهلهل والنمر وابى نواس قولهم المقدم ذكره فهو مخطىء لانهم وغيرهم ممن ذهب الى الغلو انما ارادوا به المبالغة وكل فريق اذا اتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم **فانما يريد به المثل وبلوغ النهاية فى النعت** وهذا أحسن من المذهب الآخر » .

لا شك ان قدامة وامثاله ممن يستحسنون الغلو نظروا فى شعر المحدثين فوجدوه كله يذهب مذهب الاغراق فى المعانى يقول الجرجانى صاحب الوساطة وهو من الفريق الذى يرفض الافراط ما يلى : « فأما الافراط فمذهب عام فى المحدثين وموجود كثير فى الاوائل والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل ومستقبح راد وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء فاذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته

الحال الى الاحالة وانما الاحالة نتيجة الافــراط وشعبه من الاغراق والباب واحد ولكن له درج ومراتب . » ولذلك يذكر قول ابى نواس :

واخفت اهــل الشرك حتى انــه

لتخافك النطف التى لـــم تخلق

ويراه « من المحال الفاسد وله باب غير هذا وكل هذا عند اهل العلم معيب مردود ومنفى مرذول وان كان اهل الاغراب واصحاب البديــع مــن المحدثين قد لهجوا به واستحسنوه وتنافسوا فيه وبارى بعضهم بعضا به ولسنا نذهب بما نذكره فى هذا الباب مذهب الاحتجاج والتحسين »

ويرد المعرى فى لزوميته هذا المذهب قائــلا : « كان من سوالف الاقضية انى انشات ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكــذب والميط » ويقول بعد ذلك : « فان جاوزت المشترط الى سواه فان الذى جاوزت اليه قول عرى من المين » .

اما الخفاجى صاحب سر الفصاحة فيتخذ موقفا وسطا فيقول بعد ما ذكر اختلاف الناس فى مذهب الغلو والافراط : « والذى اذهب اليه المذهب الاول فى حمد المبالغة والغلو لان الشعر مبنى على الجواز والتسمح لكن ارى ان يستعمل فى ذلك **كاد** وما جرى فى معناها ليكون الكلام اقرب الى حيز الصحة كما قال ابو عبادة :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كــاد ان يتكلما

ويذهب ابن رشيق فى العمده مذهبه فيقول : « واحسن الاغراق ما نطق فيه الشاعر او المتكلم **بكاد** او ما شاكلها نحو كان ولو ولولا وما اشبه ذلك مما لم يناسب ابيات ابى الطيــب المتقــدم ذكرها فى البشاعة الا ترى ما اعجب قول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

قوم بأحسابهم او مجــدهم قعدوا

فبلغ ما اراد من الافراط وبنى كلامه عــلى صحــة . »

ويلخص المرزوقى هذه المذاهب الثلاثة بقوله : « فمنهم من قال « احسن الشعر اصدقه » قال لان تجويد قائله فيه مع كونه فى اسار الصدق يــدل على الاقتدار والحذق ومنهم من اختار الغلو حتى قيل « احسن الشعر اكذبه « لان قائله اذا اسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف امتد فيمــا يأتيه الى اعلى الرتبة وظهرت قوته فى الصياغة وتمهره فى الصناعة واتسعت مخارجه وموالجه فتصرف فى الوصف كيف شاء لان العمل عنده على المبالغة والتمثيل لا المصادقة والتحقيق وعــلى هذا اكثر العلماء بالشعر والقائلين له وبعضهم قال : « احسن الشعر اقصده » لان على الشاعر ان يبالغ فيما يصير به القول شعرا فقــط فمــا استوفى اقسام البراعة والتجويد او جلها من غير غلو فى القول ولا احالة فى المعنى ولم يخــــرج الموصوف الى ان لا يؤمن لشىء من اوصافه لظهور

السرف فى آياته وشمول التزيد لاتـــواله كان بالايثار والانتخاب اولى »

نلاحظ ان المحدثين لما اختاروا الغلو والاغراق انما كانوا ينحون نحوا مثاليا فى وصفهم معرضين عن الوصف الواقعى الموضوعى الذى يحملهم على بناء شعرهم على الصـــدق ولا سيمـــا فى مدحهم للملوك وقد تعرضنا له فى محله من هذه الدراسة ورأينا اتفاق النقاد على استحسان الغلو والاغراق فى وصف الملوك .

ولذلك قال قدامة بن جعفر : « وكل فريق اذا اتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجـــود ويدخل فى باب المعدوم فانما يريد به المثل وبلوغ النهـــاية فى النعت وهـــذا احســـن من المذهب الآخر . »

ويرى رأيه المرزوقى فيقول : « . . . حتى قيل احسن الشعر اكذبه لان قائله اذا اسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف امتد فيما يأتيه الى اعلى الرتبة وظهرت قوته فى الصياغة وتمهره فى الوصف كيف شاء لان العمل عنده على المبالغة والتمثيل . » ويوافقهما على ذلك ابن رشيق فيقول ناسبـــا قوله الى الحاتمى الذى يكون قد نقل ما يلى عن قدامة بن جعفر : « وقالوا : اذا اتى الشاعـــر من الغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم فانما يريد به المثل وبلـــوغ الغـــاية فى النعت . »

تأخذ هذه المثالية عند البحترى شكلا خاصا اذ تحتوى عنده على حقائق ثابتة شبيهة بحقائـــق افلاطون او مثله العليا وعلى هذا تكون موصوفاته مظاهر تلمح الى هذه الحقائق وهكذا قوله بهـــا واعتقاده لها يحملان كلامه على الصدق كما حمل كذبه » اذ صار ما يراه غيره غلوا واغراقا حقيقة هى فى نظره ، احق من الحقيقة الواقعية لان الاولى جوهر والثانية عرض والاعراض متغيرة زائلـــة فوظيفتها عند الرمزيين والمثاليين ان تشير الـــى الحقائق الجوهرية الخالدة .

ثم يرى ان النفوذ الى هذه الحقائق المثلـــى لا يكون عن طريق التعقل والمنطق لانها لم تكن طريق امرىء القيس اليها وانما تكون عن سبيل الطبع او الوجدان والتلقى .

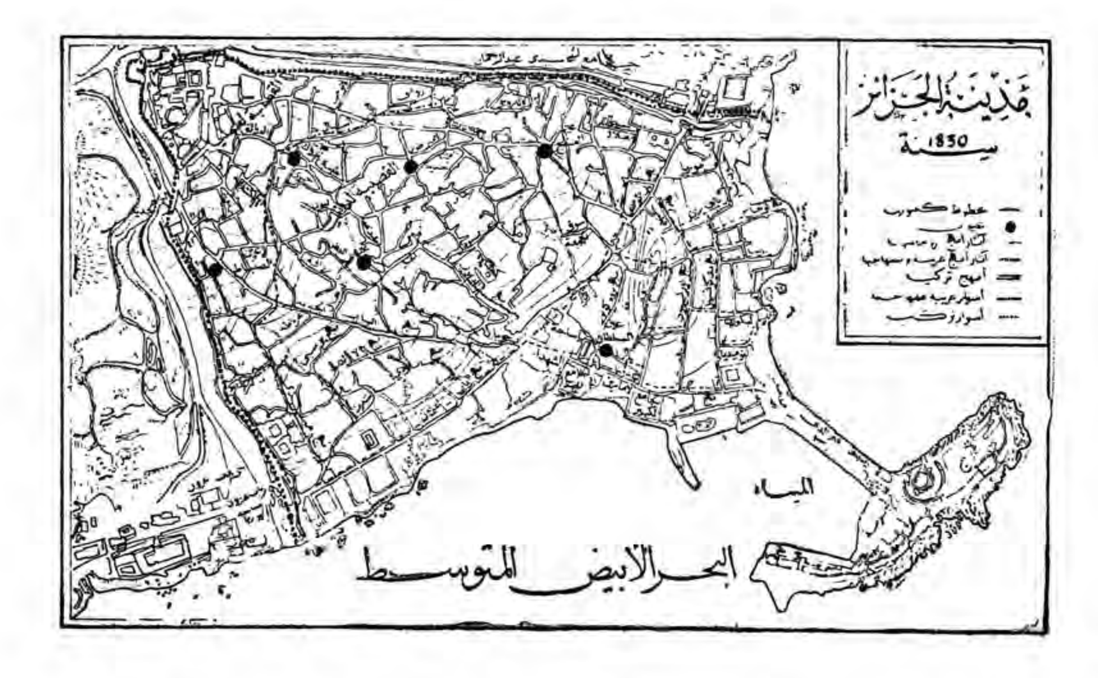
أثر التضاريس في

تخطيط مَدينة الجزائر

عبدالقادر حليمي

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

ان الموضع الذى بنيت عليه مدينة الجـزائر القديمة قبل الاحتلال الفرنسى ينقسم علـى اساس التضاريس الى منبسط ضيق على نحر البحر ، والى ربوة يزيد ارتفاعها عن المائـة متر تشرف على البحر . اما المنبسـط فهـو الموضوع الاول الذى خطط فيه الفينقيون الاولون المدينة العتيقة او ايكوسيم التى اندثرت وعفـا رسمها الى الأبد . وربما كانت تمتد ايكوسيم الفينيقية حتى الجزر القديمة،ولا ندرى عن انهجها وتخطيطاتها الا الشىء القليل الذى يزداد غموضا كلما تعمقنا فى التاريخ . اما الربوة فهى التـى



بنى فوقها الاتراك ومن قبلهم العرب حى القصبة. وتتالف الربوة من تكوينات الشيست اللاماع كانت تنحدر منها مسيلات وجداويل وشعاب عديدة نحو شارع باب عزون ـ باب الوادى او المنبسط، اهمها شعبة تنطلق من قمة ربوة القصبة وتمـر بالقرب من نهج ميدى Medée لتخرج فى باب عزون وبذلك تمثل هذه الشعبة الحد الطبيعى الغربى والجنوبى للمدينة ، ثم شعبة تنطلـق من قمة القصبة ايضا لكنها تنحرف الى الشمال لتمر بالقرب من نهج القصبة لتخرج فى باب الواد وبذلك تمثل الحد الطبيعى الشمالى للمدينة . والشعبتان المذكورتان اعطتا لمدينة للجـزائـر القديمة شكل المثلث المتساوى الاضلاع ، قاعدته تسير وخط الشاطىء ، وقمته تنطبق على قمة القصبة ، او تنطبق على النقطة التى كانت تنطق منها الشعبتـان .

وكانت مياه الامطار تتبع فى جريانها تلـك الشعاب وكذلك المسيلات على أن نسبةمن الامطار كانت تتسرب خلال الشقوق والفوالق لصخور الشست على الربوة قبل وصولها الـى البحـر فتتحول بذلك الى مجارى باطنية والى عـروق مائيـة باطنية لا تلبث ان تظهر من جديد فى شكل عيون عند مجارى البطون الدنيا للشعاب ، او عند ساحة الشهداء بالخصوص ، مثل عين السلطان قرب الجامع الكبير وعين العطش ، وعين السباط فى منخفض نهج البحر الاحمر ، وعين الشيـخ حسين فى منخفض نهج الزرافة ، والعين الجديدة فى منخفض نهج ريقار ، وعين العلج فى نهـج حيدرة . وهى عيون قد استفاد منها السكـان القدماء من اهالى وفينيقيين قبل نشأة السواقى .

وقد مرت مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى بانواع مختلفة من التخطيطـات منهـا التخطيط

الشطرنجى الذى يرجع الى العهد الرومانى ، ويتميز بشوارعه وانهجه المستقيمة والمتبعة فى اتجاهاتها لخطوط التسوية مثل شارع الكاردو، وشارع الديكيمانوس . ويظهر ان الشارع الاول او الشارع الرئيسى (كاردو) كان ينطبق فى امتداده من الشمال الى الجنوب على شارع باب عزون . اما الشارع الثانى (ديكيمانوس) فكان يمتد من الشرق الى الغرب وينطبق تماما على نهج لامارين الحالى . وتتصل بالشارع الاول والشارع الثانى انهج مستقيمة فى كل الاتجاهات تنتهى عند الاسوار .

ولقد سن الرومان لهذه الانهج والشوارع قوانين صارمة منها معاقبة الذين يرمون الاوساخ بها ، وكلفوا موظفين لاصلاحها وترميمها ومنع السكان من نشر الملابس فوق الشبابيك المقابلة لها .

والتخطيط الثانى هو التخطيط الاختباطى الذى حدث للمدينة فيما بعد العهد الرومانى فوق الربوة الى الاعلى من خط كنتور باب عزون — باب الوادى ، فيه تسلقت المبانى وتدخلت الانحدارات فى امتداد الانهج وتصنيف المنازل ، واتبعت الانهج فى امتدادها بطون الشعاب مرة ، والاذرع مرة اخرى ، ذلك ان هذا التخطيط الاختباطى لم يكن خاضعا لبرنامج معين او لتسطير مسبق ، بل ان العشوائية والحاجات الفردية كانت لها اليد العليا فى بناء المنازل ومد الانهج ، دون مراعاة للمستقبل وما يفرضه النمو العمرانى ، لذلك ساد التشابه فى التخطيط لهذه الفترة بين القرى الجبلية فى جبال الأطلس وبين حى القصبة فى مدينة الجزائر اى ان التخطيط كان قرويا بريا او جبليا معقدا اكثر منه مدنيا وحضاريا منظما . فالانهج اتبعت فى سيرها ، للمرحلة الاولى ، لما بعد العهد الرومانى ، خطوط ، الارداف اولا اى اصبحت تتقاطع وخطوط الكنتور بدلا من سيرها مع خطوط الكنتور . وفى المرحلة الثانية او فى العهد التركى عندما اشتد نمو السكان وعاقت الاسوار اتساع وانتشار المبانى التى زحزحت الانهج من الارداف الى بطون المسيلات واصبحت اسرة المسيلات والشعاب تصرف مياه الامطار الى جانب فضلات المنازل ، فهى قنوات طبيعية مزدوجة الصرف ، ثم خزنت قنوات لصرف أوساخ المنازل لتنتهى دائما فى الشعبات . ولما زاد عدد سكان المدينة ظهرت مشكلة السكن ، فرفعت لذلك المنازل حتى فى بطون الشعاب والمسيلات ، وعندئذ اضطر السكان على اطالة وتمديد قنوات الاوساخ المخزونة ، وانشاء مجارى باطنية للفضلات تسير والانحدار العام للمنطقة وتتبع فى اتجاهاتها انحناءات الشعاب لتصب فى البحر ، وكذلك الانهج اخذت تلتوى بالتواء الشعاب وهذا ما يفسر لنا كثرة الدروب والانهج الملتوية لمدينة الجزائر فى العهد التركى ، وحى القصبة فى الوقت الحالى ، وكذلك حى باب الجزيرة قبل الحرب العالمية الثانية ، وهى حرب خربت هذا الحى ثم اعيد بناؤه من جديد لكن على الطراز الحديث من شوار مستقيمة وواسعة ولم يبق من حى باب الجزيرة القديم فى الوقت الحالى الا خرقة صغيرة محصورة ومنعزلة على الشاطىء . ويلاحظ على دروب القصبة ان الكثير منها واقع فوق قنوات قديمة لصرف الاوساخ وانها كانت مرصوفة بالحجارة الجيرية الزرقاء حتى مطلع الاحتلال الفرنسى ثم أعيد ترصيفها بالحجارة وبناء الادراج بها ، فيما بعد ١٨٣٤،وهى الادراج التى تكثر فى دروب القصبة فى الوقت الحالى حتى يمكن ان نطلق عليها حى الادراج والسلاليم .

وعلى اساس التخطيطات المختلفة التى مرت بها مدينة الجزائر من العهد الفينيقى الى سنة ١٨٣٠ يمكن تحديد اتساعها فى العصور المختلفة. ومن المسلم به ان المدينة اعيد ترميمها وتجديدها

وتوسيعها عدة مرات . فاعاد العرب بناءها اولا فى الموضع الذى اختاره لها الفينيقيون والرومان من قبلهم لاسباب : منها ان الموضع توجد به شوارع وانهج قديمة لا تحتاج الى تخطيط جديد بل يكفى استصلاحها وترميمها لتؤدى وظيفتها على اكمل وجه ، ثم ان الموضع تتوفر به مواد البناء من حجارة كانت لاسوار ومنازل رومانية ، فاستعملها العرب فى بناء منازلهم ورفع اسوار المدينة من جديد . ومنها أن الموضع جيد للتجارة وقريب من البحر وهو النقطة الاولى للمواصلات بين البر والبحر ، تتوفر به مياه الشرب ، والخضر من بساتين وحدائق القصبة . ولقد ادى ازدهار تجارة جزائر بنى مزغنة الى زيادة عدد سكانها وحينئذ اخذ الشعور يزداد نحو توسيعها ، وكانت الاسوار العتيقة المحيطة بها تحول دون ذلك فاتجه السكان اولا ، نحو اعلى الربوة الواقعة الى الجنوب الغربى من خط كنتور شارع باب عزون — باب الوادى — واخذت المبانى والديار تحل محل الحدائق والبساتين ، ويظهر أن أول موضع اتجه نحو العمران فى العهد الاسلامى الاول هو الموضع الذى يوجد به جامع سيدى رمضان ، حيث توجد به عين السباط وتقل به الانحدارات وهو موضع ملائم تماما لامتداد العمران ويساعد عليه .

وفى اواخر القرن الخامس عشر للميلاد زادت هجرة الاندلسيين من اسبانيا نحو جزائر بنى مزغنة وبذلك زادت ضرورة التوسع العمرانى مرة اخرى وزادت حاجة الحضر الى المساكن . واختار الاندلسيون المواضع العالية من القصبة التى يظهر منها البحر جيدا . وبذلك اشتد ازدحام المبانى فوق الارداف ومتون الروابى وبطون المسيلات،ورفعت المنازل فوق السفوح وفى مواضع الحدائق . ولا شك ان منازل متون الروابى ظلت تحتل الميزة المطلوبة ، والقيمة المرتفعة لدى السكان نظرا لموقعها المشمس والجميل ، اذ من شبابيكها المطلة على البحر يمكن الاشراف على مساحة واسعة من البحر والبر ورؤية القادمين من بعيد .

وبعد سنة ١٥١٦ بدات الجزائر تستقبل افواجا من المهاجرين زيادة عن افواج الاندلسيين اذ جاءها هذه المرة عروج ومعه عدد من الاتراك وعدد آخر من سكان شرق الجزائر الذين آزروه وناصروه فى شرق البلاد ومنهم سكان قبيلة تكسانا Texana من جيجل الذين اوكل اليهم الاتراك تموين الانكشارية طيلة العهد التركى بالجزائر اما الاندلسيون فقد بلغ عدد منازلهم سنة ١٦٠٩ حوالى ٣٠٠ منزل . ونتج عن هذه الهجرات الضغط السكانى مرة اخرى على المبانى الواقعة داخل اسوار المدينة ، وهى اسور كانت ضرورية لحماية المدينة من حقد العدو المسيحى الذى هاجت عصبيته فى هذه الفترة بالذات . وحينئذ تعارضت مصلحة الحماية ومصلحة التوسع لمدينة الجزائر التى انتقل عدد سكانها من ٢٠ الف نسمة سنة ١٤٥٠ الى ٣٠ الف نسمه سنة ١٥١٨ ثم ٦٠ الف سنة ١٥٨٠ ثم ١٠٠ الف سنة ١٦٣٤ ثم الى اكثر من مائة الف نسمة سنة 1755 . وبدا عروج سنة ١٥١٦ مشروع توسيع المدينة الذى استمر طيلة ٨٥ سنة فيها مدت المبانى نحو الجهات العليا من القصبة وهى الجهات التى ما زالت تحمل اسماء اثرية للاتراك مثل نهج المماليك ونهج الانكشارية . وراى المخططون الاتراك ضرورة تشييد اسوار المدينة مرة اخرى واطالتها نحو الجهات الجنوبية الغربية بالخصوص بدلا من الجهات الشرقية التى يحميها البحر وبدلا من الجهات الشمالية التى تحميها الانحدارات الشديدة ، ثم ان الجهات الجنوبية الغربية بحكم شدة ارتفاعها تساعد اكثر من الجهات الاخرى على مراقبة سفن العدو ورغم هذا التوسع فان مشكلة السكن ظلت قائمة

لتكاثر السكان وتعقيد المنطقة اذ ليس من السهل ايواء عدد كبير من البشر فى منطقة محصورة وحمايتها من العدو الذى يتربص بهم الدوائر . ولذلك بدات المساكن تتزاحم واخذت الديار ترتفع فى كل شبر ممكن من المدينة ، فعمرت الحدائق والشعاب واسرة المجارى المائية. ثم تسلقت المبانى فوق بعضها البعض مثل حبات عنقود العنب بعد أن غزت حتى الانهج القديمة منها والحديثة ، ببناء طابق ثانى أوسع فوق الطابق القديم وركز الطابق الثانى على أضلاع مائلة مركزة على الطابق الواقع فى الاسفل بحيث تحولت معظم الانهج فى الاخير الى انفاق ودروب لا تظهر منها الشمس بمجرد قلب النظر الى السما الا بمشقة بل منها ما لاترى الشمس طوال اليوم . فعامل الحماية وتوفير المساكن دفعا بالاتراك الى بناء حى شديد التسلق والتركيب فوق القصبة العليا بدلا من القصبة الدنيا التى بناها بلكين سنة ٩٥٠ م . وبذلك نلاحظ قصبتين فى مدينة الجزائر قصبة بلكين وقصبة عروج .

أما قصبة بلكين فكانت تمتد فيما بين خط يتبع شارع باب الوادى — باب عزون ، وخط نهجبالى وانبال ، أى بين خطى كنتور ٢٠ و ٨٠ مترا تقريبا وكان السور المحيط بمدينة بلكين ينطلق من باب عزون مارا بالانهج التالية : Medée Centaure Palmiers Anibal - Ramadan des Dattes ثم ينحنى جنوبا ليخرج فى باب الوادى بالقرب من حديقة سيدى عبد الرحمان الحالية . والمتتبع لخط هذا السور يلاحظ انه كان لايسير فى استقامة واحدة بل كان عبارة عن خط منكسر يشبه اضلاع مثلث راسه عند نقطة التقاء نهج بالى ونهج انبال وهما النهجان الذان حلا محل السور الصنهاجى بعد ان هدم الاتراك سور بلكين لتوسيع المدينة الى هذه الجهات العلوية . ويظهر ان اهم انهج نشأت فى العهد الصنهاجى هى انهج المتون و الاذر المتقطعة مثل نهج الباب الجديد

ونهج القصبة حاليا اللذين تولدا عن سبل بسيطة كانتا تمثلان المدخلين الرئيسيين للمدينة من الجهات العلوية. ويظهر ايضا أن المنازل كانت فى اول الامر متباعدة عن بعضها تتخللها او تنفصل بينها مزارع وحدائق لتموين سكان المدينة بالخضر والفواكه، وتضمن لهم الارزاق اثناء الحصار. ولقد اختار بلكين لبناء قصبته موضعا يتشابه الى حد بعيد والموضع الذى انتقاه أبوه الامير الصنهاجى زيرى بن مناد فى القرن ١٠ للميلاد لبناء مدينة آشير ، ذلك ان البربر فى بنائهم للمدن كانوا ينتقون الروابى التى تتوفر بها مياه الشرب وتكثر بها العيون الجارية ، وتشرف على منطقة واسعة لاكتشاف العدو من بعيد والاستعداد له قبل الوصول وكانوا يراعون فى تخطيطاتهم للمدن أن تكون العيون داخل أسوار المدينة حتى اذا دهمهم العدو أو حاصرهم لا يمكنه أن يقطع عنهم مياه الشرب ، ويستحسن أن تكون العيون فى الجهات العلوية من المدينة حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقى لتموين السكان وادخال المياه الى المنازل ولهذا اختار زيرى لبناء مدينة آشير فى جبل تنبجس من اعاليه عيون غزيرة المياه مثل عين سليمان وعين تلة تيراخ . وكذلك فعل بلكين فى تجديده وتوسيعه لجزائر بنى مزغنة فاختار موضعا تتوفر به مواد البناء ومياه الشرب، قريبا من البحر ، على ربوة مشمسة ، يمكن الاشراف منها على مساحة واسعة من البر والبحر . ومن خريطة العيون القديمة لمدينة الجزائر نلاحظ أن الصنهاجيين اختاروا عين النزاوقة عند التقاء نهج بالى وهانبال والغزالة حدا غربيا لمد أسوار القصبة ، ولاداء تلك الوظائف السابقة ، اذ تنبجس هذه العين على خط ارتفاع ٨٠ م تقريبا وبالتالى يمكن ادخال المياه منها عن طريق الجاذبية الى المنازل الواقعة فى أسفل العين . ولا شك ان عين النزاوقة كانت تقع داخل أسوار المدنة مثلها فى ذلك مثل

بقية العيون التى كانت تمون سكان القصبة وحى البحرية مثل عين العطش وعين العلج وعين السلطان والعين الجديدة ، وكانت مياه هذه العيون تكفى لسد حاجات السكان قبل اكتظاظهم ثم حفرت الابار فى ساحات المنازل عندما زاد عدد السكان . وهذا يظهر ان الاختيارات الصنهاجية كانت موفقة فى توسيع مدينة الجزائر .

اما قصبة الاتراك فقد بنيت الى اعلى من القصبة الصنهاجية وفى موضع اكثر ارتفاعا من الموضع الذى اختاره الصنهاجيون من قبل اى فوق القمة الحقيقية لربوة القصبة . والذى دفع عروج الى ذلك هو ان الموضع الذى اختاره بلكين لتوسيع جزائر بنى مزغنة فى القرن العاشر للميلاد اصبح لا يؤدى وظيفته الكاملة فى القرن السادس عشر للميلاد عندما اشتد طمع الاسبان لاحتلال جزائر بنى مزغنة التى تحولت الى عاصمة البلاد ، وتدفقت نحوها موجات من الهجرة الداخلية والخارجية ، فالظروف التاريخية وعامل الحماية ، والنمو الدموغرافى املت على عروج ان يصعد بالمدينة نحو القلة اى القمة الاكثر ارتفاعا ، فاتسعت المدينة نحو الجبل بدلا من الشريط السهلى الشاطىء الضيق واتجهت المبانى نحو الروابى اكثر من اتجاهها نحو بقية الجهات ، وانشئت انهج اخرى ، زيادة على الانهج القديمة ، وينبغى أن نلاحظ ان اغلب الانهج لقصبة العهد التركى كانت تتبع فى سيرها بطون الشعاب على عكس اغلب الانهج فى العهد الصنهاجى التى كانت تتبع خطوط الذرى . وقد ادت زيادة المساكن وانحصارها بين اسوار القصبة للحماية ، الى التسابق نحو الجو واقتراب الديار من بعضها البعض وبالخصوص السطوح التى كثيرا ما تعانقت فى الهواء وغطت الانهج التى تحولت بطول الزمن الى انفاق مظلمة وضيقة مفروشة بالحجر الجيرى ، لا يزيد عرضها عن المترين الا نادرا ، بل ان بعض الانهج تحولت الى أزقة لا يمكن العبور منها الا الى أبواب المنازل وهى ابواب ضيقة ومتينة رصعت بالمسامير وشدت بالالواح السميكة ولا يمكن فتحها الا بمشقة ، وربطت اغلبها بحبال يتدلى منها ثقل يساعد على فتح الباب او غلقها آليا . وقد تبلغ عدد الازقة فى اواخر العهد التركى حوالى ١٥١ زقاقا ، لا يتسع الزقاق الواحد لمرور حملين فى اتجاهين معاكسين ، بل منها مالا تتسع لمرور جمل واحد نظرا للطوابق التى بنيت فوق النهج وبهذا كان لا ينطبق عليها القانون العربى القديم للعمران الذى ينص على ان النهج يجب ان يكون اتساعه يكفى لمرور جملين محملين على الاقل . ولم يسن الاتراك قانونا تخطيطيا يمنع السكان من البناء فوق الانهج بل تركوا الامر للسكان الذين رأوا فى ذلك حلا لمشكلة السكن من جهة ودرءا لخطر ضربة الشمس واشتداد الحرارة من جهة اخرى فى فصل الصيف .

فالازقة الضيقة والانهج الملتوية والدروب المغطاة تقى المارة من حمارة قيض الصيف وتجلب لهم الدفء ، ثم ان حاجة سكان القصبة فى العهد التركى لم تدع الى توسيع الانهج لان التنقلات كانت تقع اكثر ما تقع على الارجل ، ولا تدخل دواب تكفيها الانهج الضيقة ، اما الجمال والبغال دخلت اقتصرت على الحمير لنقل الاوساخ وهى دواب تكفيها الانهج الضيقة ، اما الجمال والبغال والخيل التى كانت تمثل اهم وسائل النقل فكانت تترك فى اسطبلات بالقرب من اسوار المدينة .

والى جانب تلك الانهج الضيقة بالقصبة كانت توجد بمدينة الجزائر فى العهد التركى انهج واسعة فى الجهات السفلى من المدينة واخرى تمتد بالقرب من لاسوار منها نهج باب عزون ، ونهج القصبة ونهج الباب الجديد ونهج باب الوادى ونهج باب البحر وكان اتساعها يزيد عن المترين ومنها

ما كان يصل الى اكثر من اربعة امتار مثل نهج الاسواق التى كا يزدحم فيها المارة كنهج باب عزون ونهج الجامع الكبير الذى كانت تتركز فيه عدة حرف مثل الصياغة والحدادة والرصاصة والنحاسة ، والنحاة والنجارة .

ومما تجدر الاشارة اليه ان اسماء الانهج والازقة الحالية لمدينة الجزائر العتيقة بما فيها حى البحرية وحى القصبة من وضع الاستعمار الفرنسى الذى جمعها واختارها لضبط الانهج لذلك نلاحظ عليها انها غريبة عن العربية ، لان الادارة الفرنسية انتقتها من بين اسماء لعظماء فرنسيين أو أوروبيين بصفة عامة ، أو هى اسماء ترجع الى مدن أوروبية مثل نهج تولون . وقليلا ما ضبطت الادارة الفرنسية النهج باسم الحرفة التى كانت سائدة فيه قبل الاحتلال . وفى العهد التركى ومن قبله فى العهد العربى ، كانت الانهج تعرف باسم الحرفة السائدة فيها أو باسم الطائفة التى كانت تسكنها او يطلق على النهج باب السور المجاور لها ، ومثال لذلك نهج السوق الكبير الذى كان يمتد من الجنوب الى الشمال على طول شارع باب عزون ـ باب الوادى الحالى ، وكانت المحلات التجارية والدكاكين المختلفة تصطف عن يمينه وشماله . وبالقرب من باب عزون كان يمتد نهج السمارين فى الموضع الذى يقع فيه المسرح الوطنى حاليا . وموقع نهج السمارين بالقرب من مدخل باب عزون يساعد كثيرا اصحاب الدواب والقادمين من الريف على ترك حيواناتهم لدى السمارين لاصلاح حدواتها بينما اصحاب الدواب يذهبون راجلين نحو داخل المدينة لقضاء مصالحهم . والمتنقل من باب عزون نحو ساحة الشهداء تعترضه أسماء لنهج سوق الرابعة ، ونهج خدم الخيل ، ونهج سوق الخراطين ، والمتنقل من نهج السوق الكبير نحو قمة القصبة تعترضه عدة انهج يطول ذكرها منها نهج ينطلق من الباب الجديد ، ويعرف هنا بنهج الباب الجديد ثم يمر بمسجد ابن شمون ويعرف هنا بنهج جامع ابن شمون ، ثم يخرج فى سوق السمن فيعرف بنهج السمن ثم ينتهى بسوق الكتان . ويلاحظ على هذه الاسماء أنها كانت كثيرة التغير ، لتغير عامل اشتقاقاتها ، فنهج بالمير فى عهد الاحتلال الفرنسى عرف بنهج القبائل سنة ١٥٦٣ ثم نهج سوق الملح سنة ١٦٥٠ ثم بنهج السوق الكبير فى مطلع القرن التاسع عشر وقبل الاحتلال الفرنسى .

أما اطوال الانهج الضيقة والشوارع فقد قدرت سنة ١٨٣٠ بحوالى ١٥ كيلو مترا واغلبها كانت لا تصلح لمرور العربات ولا زالت حتى الوقت الحالى تتقاطع وخطوط الكنتور وتكثر بها السلاليم .

المنعكس الشرطي في ضوء النظرية والتطبيق

مصطفى عباده

قبل ان نتطرق الى الحديث عن موضـــــوع المنعكس الشرطى كنظرية وكتطبيق لابد من تعريف المنعكس وكيف يحدث ؟

المنعكس هو ردود افعال بسيطة فى شكـــل سلوك آلـــى ويوجد بشكل فردى او بشكـــل مجموعات معقدة فى الافعال وفى مظاهر السلوك البشرى المختلفة وهذا التعريف يؤدى الى الكلام عن سلوك الكائن الحى،ويكون هذا السلوك عادة على نوعين سلوك ثابت موروث وآخر متغير مكتسب وعليه فالانسان مثل الحيوان يكون سلوكه مكتسبا وموروثا الا ان السلوك المكتسب اكثـر بكثير من السلوك الموروث .

وتزايد المكتسب يتماشى طرديا مع التقدم فى سلم التطور وكذلك فى زيادة التعقد والتخصص فى الجملة العصبية ، ويتبع هذا المدة المتزايدة فى مدة الطفولة فطفولة الحيوان قصيرة جدا حيث ان بعض الحيوانات تستطيع مواجهة الحياة منذ اللحظة الاولى لانها مجهزة بوسائل تعمل بشكل آلى فى حين ان الانسان والحيوانات الراقية وخاصة الانسان تحتاج لبعض الوقت لكى تتهيأ للحياة وتستعد للاعتماد على النفس .

كيف يحدث هذا المنعكس ؟ ان القابلية للتهيج هى مقدرة الكائن الحى للرد او للاستجابة على التنبيهات بطرق مختلفة من الحركات وبالوان متعددة من الانفعالات والسلوك اذ لا توجد حركة تلقائية على الاطلاق تحدث دون ان تكون مسبوقة بتنبيه وهذا التنبيه اما ان يكون داخليا او خارجيا والتنبه الداخلى سواء اكان فسيولوجيا عضويا ام معنويا شعوريا كالجوع والعطش ، وكالحاجة الى البحث والتنقيب يكون مصحوبا بحركة وهذه الحركة مستمرة ودائمة دوام المنبه واستمرارها يجعلها تستهلك الطاقة المخزونة فى الجسم وخاصة فى العضلات ، والحركات العضوية نفسها تؤدى الى تعويض هذه الطاقة المستنفذة ولا تنقطع هذه العملية الدورية عمليه الأيض « البناء والتهديم » الا بموت الكائن الحى .

اما التنبيه الخارجى فمصدره البيئة الخارجية والكائن الحى لا يكون أبدا مستقلا لاتمام الاستقلال عن البيئة الخارجية وعما يصدر عنها من تنبيهات شتى ونظرا لتمايز اعضاء الاستقبال الحسى وتعدد المراكز العصبية والمسالك تستتبع تلك التنبيهات حركات متميزة موجهة ولكن الجهاز العصبى ليس من الشروط الاساسية لاحداث ارجا عالحركية اى اعزاء الحركة الى مسالك عصبية ومراكز بدليل ان الاحياء التى يخلو بناؤها العضوى من كل عنصر عصبى مميز ترد على التنبيهات الخارجية من تماس أو حرارة أو تنبيه كميائى بحركات معينة يترتب عليها انتقال الحيوان فى محيطه الطبيعى ، فالاميبا مثلا تتوقف قابليتها للتهيج على التفاعلات الكيماوية التى لا تنفك تحدث فى جزئياتها « البروتوبلازمية » وعلى ما ينجم من هذه التفاعلات من تغير فى درجة التوتر الفسيولوجى وخاصة توتر سطح الغشاء الخارجى ، وتتخذ الحركة فى الاميبا شكلين متعارضين اما بسط واقدام او انقباض واحجام اما فى الحيوانات المتعددة الخلايا والتى يتركب جسمها من انسجة مختلفة وغير متجانسة فنشاهد تركز قابلية التهيج فى نسيج معين وهذا النسيج الذى يتصف بقابليته للتقلص او الانقباض يكون العضلات والغدد ويحدث الانقباض وبالتالى الحركة ردا على تنبيه خارجى استقبله النسيج العصبى الحاس ثم ينتقل التنبيه عن طريق العصب الحاس او المورد الى مراكز عصبية ومنها الى عضلة او الى غدة عن طريق العصب المحرك او المصدر وهذا الطريق المعين الذى يسلكه التنبيه حتى يتحول الى حركة يسمى بالقوس المنعكس والحركة الناتجة عن التنبيه تسمى بالفعل المنعكس والفعل المنعكس فى حد ذاته ينقسم الى قسمين اما فعل منعكس محض واما فعل ارادى ، ذلك اننا كلما ارتقينا سلم الحيوانات متدرجين من اللافقريات الى الفقريات ومن ابسطها تركيبا الى اعقدها تركيبا نلاحظ تعدد طرق التوريد والتصدير وكذلك تعدد المراكز العصبية وينتج عن هذا التعدد نماذج مختلفة من الاقواس المنعكسة ومن الافعال المنعكسة .

والجدير بالذكر انه كلما ارتقى الجهاز العصبى وتمايزت مراكزه وتفاضلت بحيث تخضع بعض المراكز لبعضها الاخر اخذت خاصية جديدة تظهر وهى مقدرة بعض المراكز كاللحاء على منح الحركة وكفها علاوة عن مقدرتها على تنظيم الحركة وتعديلها من اسراع وابطاء ، وتكون عملية

التعديل لا ارادية او ارادية ، ويمكن أن تكون الحركة نفسها فى شكلها الظاهر منعكسة أو ارادية مثلا اذا وضعت اصبعى على سطح ساخن جدا ارتدت يدى بسرعة وتراجعت وتكون الحركة فى هذه الحالة منعكسة ولكنى استطيع ان احاكى هذه الحركة وان اسحب يدى بمجرد لمس سطح معتدل الحرارة وفى هذه الحالة تكون الحركة ارادية فمن حيث الشكل الظاهر للحركة فلا فرق بين هذين الحركتين ولكن الفرق بينهما يرجع الى اختلاف المراكز العصبية المحركة التى تنبهت ومراكز الافعال المنعكسة مرتبة ترتيبا تصاعديا فى النخاع الشوكى والنخاع المستطيل وبعض النوى الدماغية الموجودة مباشرة تحت اللحاء من اهم هذه النوى التلاموس والجسم المخطط الذى هو مركز الافعال المنعكسة كحركات المشى الالى .

اما الحركة الارادية فلا تتم الا بتنشيط المراكز الموجودة فى القشرة الدماغية او اللحاء وهذه المراكز تسيطر الى حد كبير على المراكز السفلى وهذا ما يفسر لنا عملية الكف والمنع ، فمن المثل الاول الذى ضربناه يكون فى امكانى أن اتجلد ولا اسحب يدى مباشرة بعد الاحساس بالحرارة على الرغم من الالم الذى اشعر به وليس جميع الافعال المنعكسة مصحوبة بالشعور مثل الحركات التى تعترى حدقات العين عندما تتغير شدة الضوء .

وبعد الكلام على المنعكس كمنعكس وكيف يحدث هذا الاخير نأتى الى الحديث عن المنعكس الشرطى ، والمنعكس الشرطى كثيرا مايقترن باسم العالم الفسيولوجى الروسى بافلوف ١٨٤٩ ــ ١٩٣٦ ــ لانه اول من استخدمه بتوسع ، والمنعكس الشرطى هو الفعل الذى ينوب فيه المنبه الغير الطبيعى عن المنبه الطبيعى بعد اقتران الاول بالثانى لعدة مرات ، وقد انطلق بافلوف من دراسته للسلوك الحيوانى أو ما أسماه بالاجزاء العليا للجهاز العصبى المركزى وكانت له نظرية خاصه فى دراسته هذه والتى اسماها « بالنيوريزم » ويعنى بها التنظيم العصبى للسلوك ، او هيمنة الجهاز العصبى على كل مظاهر السلوك ، ومن دراسته للتنظيم العصبى للسلوك انطلق الى الفعل المنعكس بنوعيه الشرطى وغير الشرطى وهذا الفعل فى رايه يمثل **اللبنة** الاساسية للسلوك الحيوانى والبشرى وكرس قرابة خمسة وثلاثين سنة من حياته العلمية لدراسة السلوك او نشاط الاجزاء العليا للجهاز العصبى على هدى منهجه الجديد منهج الفعل المنعكس الشرطى وقام بتجاربه العلمية على العديد من الحيوانات واساسا الكلب ومن خلال تجاربه هذه نما فكره وتطور فهمه للجهاز العصبى .

ان الاستجابات الشرطية لوحظت منذ قرون لكن لم يفهم علماء النفس دلالتها النظرية والعلمية اى التطبيقية الا فى القرن العشرين ، والفضل كما ذكرنا سالفا يرجع الى بافلوف اذ هو اول من قام بدراسة منظمة لردود الفعل هذه واثناء دراسته للافرازات الهضمية لاحظ ان هناك افرازا يتم عندما يقترن منبه ما بتقديم الطعام ، ورأى ان اللعاب والعصارات الهضمية تفرز لرؤية الطعام بل وحتى لسماع خطوات مساعده الذى كان يعنى بالكلاب التى يجرى عليها دراسته ، وفى البداية سمى بافلوف هذه الافرازات « افرازات سيكولوجية » تمييزا لها عن الافرازات العادية التى كانت تحدث فى الاصل فى حالة وضع الطعام فى الفم،وبعد هذه الملاحظة قام بدراسة عمليةعلى ظاهرة التكيف نفسه فبعملية جراحية بسيطة فى خد كلب تنقل فتحة قناة الغدة اللعابية من داخل وجه الكلب الى خارجه حتى يمكن ان يرى سيل اللعاب ويقاس بدقة والمنبه الاصلى او غير المشروط الذى يحدث سيلان اللعاب هو فى معظم

الاحوال الطعام فتقديم منبه محايد « الجرس مثلا » مع تقديم الطعام لبضعة محاولات يصل الجرس او المنبه المشروط فى النهاية الى ان يقوم بدور البديل للطعام وينشأ عنه سيل اللعاب حتى ولو لم يقدم الطعام لانه يكون قد نشأ اتصال أو ارتباط او اقتران بين المنبه المشروط ونشاط الغدة اللعابية فسيل اللعاب الذى يثيره الجرس فى هذه الحالة هو استجابة جديدة تماما لهذا المنبه ، هذه الاستجابة هى الاستجابة اللعابية الشرطية أو المنعكس الشرطى اللعابى ، وقد وجد « بافلوف » وغيره « كبختريف » أثناء تجارب مختلفة ان اشياء كثيرة يمكن ان تستخدم كمنبهات شرطية كالصفارات ، والاضواء ، ولمس جانب الكلب والصدمات الكهربائية الخفيفة كما هو الشأن لدى « بختريف » .

كان بافلوف يضع الحيوان فى غرفة منعزلة ويقدم له الطعام بواسطة كوة صغيرة لكى يسجل العلاقة بين تكرار الصوت وتقديم الطعام من جهة وحجم افراز اللعاب من جهة أخرى ، عند تقديم الطعام للكلب يحدث منبهات صوتية او ضوئية يتحصل خلالها على اللعاب بواسطة فتحة فى خد الكلب بحيث يسيل اللعاب منها ويقيس كميته المفروزة ، وقد لوحظ أنه عندما كان الصوت يدق لاول مرة كان الكلب لا يفرز ومع تكرار هذا الى تسع مرات مع اقتران هذا التكرار بتقديم الطعام يؤدى الى سيلان ١٨ قطرة من اللعاب وبعد ١٥ مرة يقدم فيها الطعام كان المجتنى من اللعاب ٣٠ قطرة وبعد ٣١ مرة كان المحصول ٦٥ قطرة من اللعاب تسيل بمجرد رنين الجرس .

والجدول الاتى يوضح هذه العلاقة :

« تقديم الصوت والطعام »	« عدد قطرات اللعاب فى ٣٠ ثانية »
١	٠
٩	١٨
١٥	٣٠
٣١	٦٥
٥١	٦٩

ولقد حاول بافلوف أن يفسر عملية الاستجابة اللعابية لمنبه شرطى بقوله « ان هناك مسالك عصبية جديدة كانت تشق بين الاذن او الانف أو الجلد بحسب المنبه الذى كان يستخدمه أو الفم من جهة أخرى وكانت هذه المسالك فى رأيه تشرك اللحاء وللحاء دور اشرافى على قيام هذه المسائل العصبية المرتبطة بظهور المنعكسات الشرطية .

لذلك فقد وصف بافلوف ابحاثه بأنها تحريات عن الفاعلية الفزيولوجية للحاء ويمكن تعطيل الفاعلية الدماغية عند حيوان ما واحداث منعكسات شرطية عنده بمنبهات وقد أجريت هذه العملية التجريبية على حيوانات عطل فيها الدماغ وبقيت تكسب منعكسات شرطية .

لم يكتف العلماء بالناحية النظرية فقط للمنعكس الشرطى بل أخضعوه لبعض التطبيقات العملية من ذلك ان علماء الطب النفسى استخدموا ظاهرة المنعكس الشرطى لتفسير بعض الامراض النفسية وكثير من أنواع الشذوذ وهذه الامراض تتمثل فى الانحرافات وانواع الخوف كالهلع والنفور من بعض الاطعمة وانواع أخرى من السلوك العصابى هذا ولقد كتب بافلوف كتابه عن المنعكسات الشرطية والطب النفسى أو الفعلى فأوضح كثيرا أسباب الشذوذ النفسى وانواع العصابات والذهانات .

ثم ان الاشراط كثيرا ما يستعمل وسيلة للقضاء على السلوك الغير المرغوب فيه ولنضرب مثلا على ذلك فالتبول اللا ارادى له دلالة نفسية فهو نتيجة الشعور بالحرمان او الغيرة مثلا ، ويفسره علماء الفيسيولوجية بعدم تحكم الطفل فى مثانته ، ان الطفل الذى يبلل فراشه فى عمر يتجاوز العمر السوى لأمثاله بالنسبة لهذا الامر انما يبلل فراشه لان المثيرات الصادرة عن ضغط المثانة وهو نائم ليست من القوة بحيث توقظه فى الوقت المناسب « قبل التبول » ويمكن القول بأنه لا يملك حساسية كافية للاثارات الواردة من مثانته فهو لم يكيف للاستجابة لهذه الاثارات ان هذه الاثارات غير قادرة على ان تصبح ناجعة فعالة بواسطة المنعكس الشرطى ، ويتم ذلك بانامة الطفل على فراش فيه اسلاك رفيعة وما يكاد الفراش يبتل حتى ينطلق تيار كهربائى يقرع جرسا وتعطى التعليمات للطفل بأنه يتوجب عليه عند سماع الجرس أن ينهض من فراشه ويذهب الى المستراح سواء اكان بحاجة الى التبول ام لا وقبل الذهاب الى المستراح يقطع التيار بادارة زر كهربائى يوقف صوت الجرس وبعد مضى عدة ليال على هذا النحو يصبح ضغطالمثانة قادرا على ايقاظ الطفل قبل قرع الجرس ،

وهكذا فانه على الرغم من ضعف المثيرات الاتية من المثانة فان التكيف ساعده على التقاط هذه المثيرات والاستجابة لها .

وهناك تطبيق آخر للمنعكسات الشرطية يستعمل فى القضاء على المخاوف مثلا الاشخاص الذين يخافون من الامكنة المظلمة أو المصاعد او القطط او ما شابهها يمكن القضاء على امثال هذه المواقف التى تخيفهم بيد أنه لا بد من الملاحظة بأن هذه الطريقة يجب أن تستعمل بحذر شديد وذلك على اعتبار أن بعض الاشخاص تزيد مخاوفهم اذا قسروا او اجبروا على ممارسة المواقف التى تخيفهم بدلا من محوها .

وهناك طريقة ثالثة طبقها علماء النفس على بعض الطلاب اكتسبوا عادة قضم الاظافر — وهى ناتجة عن توتر عصبى — وغيرها من العادات غير المستحسنة عن طريق مبدأ المحو التجريبى ولقد تم العلاج بالفعل بواسطة الفصل بين التوتر العصبى وقضم الاظافر ، وذلك باجبارهم على قضم اظافرهم عندما تصدر لهم أوامر بقضمها ولما كانوا مجبرين على قضمها حتى عندما يكونون لا يشعرون بحاجة الى قضمها اذ ان هذه الحاجة هى نتيجة توتر عصبى ، ونتج عن هذه التجربة الفصل بين التوتر العصبى والعادة غير المتحسنة

كما يمكن استخدام المنعكس الشرطى للكشف عن وجود القدرات الحسية عند الطفل الوليد او الحيوان او المصابين بالتخلف الفكرى أو العقلى .

مثلا طفل يعتقد انه اصم فهو لسبب ما لا يستجيب لاى صوت اطلاقا اما حين يدغدغ اخمص قدميه فانه يسحبها ولذلك يعمد المجرب الى قرع الجرس عدة مرات قبل ان يدغدغ القدم فاذا صار الطفل يسحب قدمه ساعةقرع الجرس كان معنى ذلك ان جهاز السمع عند الطفل سليما وأن ثمة سببا نفسيا لعدم استجابته للمؤثرات الصوتية غير الصمم .



الثورة الزراعية وبعض مشاكل الفلاحين

جمال مصباح

ان مجرد زيارة الى اريافنا وقرانا يظهر لنا مدى تخلى الشبان عنها . وبالفعل يبدو ان المدينة تستقطب معظمهم بحثا هناك عن عمل قار يوفر لهم الاطمئنان والوقاية من الاحتمالات التى جرتهم الى هجرة البادية .

وفى الواقع ان هذه الظاهرة لم تكن حديثة العهد بل انها ترجع الى مايزيد عن ستين او سبعين سنة على الاقل . ان النظام الاستعمارى لم تكن له آثار سياسية وثقافية فحسب بل انه احدث ايضا آثارا مختلفة على مستوى الانتاج . ان المستعمر الى جانب الوسائل التقنية التى ادخلها على خدمة الارض التى اغتصبها قد حول الاقتصاد تحويلا آخر فوجه محاوره نحو المدن ثم جعله تابعا للعاصمة الفرنسية أضف الى ذلك انه ادخل اساليب جديدة راسمالية فى التعامل الاقتصادى وفى طريقة الانتاج لانه اولا هو المشرع الذى يسن القوانين التى يجب ان تتمشى بمقتضاها المعاملات الاقتصادية والتجارية على مستوى القطر وثانيا ان الرغبة فى تحقيق اغراضه تجعله مضطرا الى البحث عن اليد العاملة الزهيدة الامر الذى يدفعه الى تحويل انظاره نحو البوادى ويجعله يقضى على الهياكل التقليدية لكى لا يصبح فى وسع الفلاح الاستغناء عنه .

ان التوازن الذى كان موجودا قد انقطع اذ ان المساحات الشاسعة التى كانت تؤدى دورا معينا مثل التموين فى الحبوب قد غيرت وظيفتها واصبحت تؤدى اغراضا اخرى لا يستفيد منها الا الاستعمار ، ان هذا من شأنه أن يحدث تغييرا فى العلاقات التقليدية وان يدفع الفلاحين الى تغيير انماط معيشتهم وايجاد وسائل اخرى لتنظيم اقتصادهم . الا أن المنطق الاستعمارى لم يسمح لهم بالابتكار وانما يفرض عليهم حلين لا ثالث لهما اما الرضا بتدهور معيشتهم والاستسلام الى القضاء والقدر ، واما الهجرة من الريف الى المدينة او نحو مزرعة المعمر .

وبالفعل فان الفلاح سيتخذ السلوك الاول احيانا وتارة السلوك الثانى ولكن وان كان قد نجح فى الاحتفاظ ببعض من قيمه فان مقاومته فى المجال الاقتصادى ستكون اقل توفيقا . وتراه ينجر تدريجيا الى خدمة الاقتصاد الاستعمارى وتوابعه والتخلى عن أوضاعه التقليدية . واذا عاد الى الريف فانما يعود للاستراحة ، او الزيادة او بعد ان يستنفد منه الاقتصاد الراسمالى طاقته الانتاجية .

ان اندلاع الحرب التحريرية قد عمق الوضع ولا سيما ان مدار الثورة المسلحة قد كان فى البوادى والجبال . ان اصحاب الاراضى الفقيرة سوف يهملونها لمساندة الثورة او عندما يطردهم المستعمر منها ويفرض عليهم اماكن للاقامة ظنا منه ان ذلك سوف يعزل الشعب عن الثورة .

وعندما يأتى الاستقلال تكون الاراضى قد اهملت وتكون المزارع قد اتلفت وتعرضت للحرق والفساد . فلم يبق فى وسع الذين ليس لهم امكانية احياء اراضيهم سوى البحث عن العمل فى المدن او فى الاراضى المسيرة ذاتيا ، او عند كبار الملاك الذين لهم القدرة على استخدام وسائل جديدة واحيانا عصرية لخدمة الارض .

ان الامر الذى يدفع الشبان الى تجنب العمل فى الريف هو عدم الاطمئنان الى المستقبل . لان الضمانات التى كان آباؤهم يجدونها أصبحت اليوم مفقودة . ان عدم الارتياح ينبع اولا من العوارض الطبيعية التى احيانا تكون مواتية واحيانا أخرى غير مواتية . ومن الصعب ان يشاهد المرا عمل سنة كاملة ، لا يعول صاحبه ولو شهرا واحدا . ومن الصعب ان ينتج المنتج وهو يعرف انه لايجد فى السوق من يأخذ عنه بضاعته ، التى سوف تقدم له الثمن الذى سوف يمكنه من سد المصاريف الاخرى ما عدا الاكل . ثم ان الامكانيات قليلة وزهيدة بالقياس للعمل الذى يجب القيام به من اجل احياء الاراضى وذلك على الرغم من المساعدات التى تقدمها الدولة لبعضهم . واخيرا ان كبار الملاك اصبحوا يسيطرون اكثر من السابق على الميدان الفلاحى فانهم يعرضون عليه العمل عندهم ولكن بدون الضمانات الاجتماعية التى يجدونها فى المدينة .

وهكذا سيصبح العمل فى المدينة هو المصدر الاساسى للرزق بينما يبقى العمل فى الريف مجرد ملء للفراغ ثم ان العمل فى المدينة يضيع طاقة العامل مدة معينة من الوقت ويتركه حرا يهتم باشغال اخرى خارج ذلك الوقت فليس له ان يهتم بمصير انتاجه فما عليه الا انتظار آخر الشهر لاخذ راتبه .

ولكن ما كل متوجه الى المدينة يجد فيها عملا . اذ ان سوق العمل ضيق ومع ذلك يعود الفلاح الى ارضه ويستمر الكد فيها ونادرا ما يفعل ذلك ان انقطاعه الطويل عن خدمة الارض يجعله يفضل اى عمل آخر على عمل الارض . بل انه كثيرا ما يتوهم بانه قادر على النجاح فى التجارة ، وبعد ان يحصل على راس مال زهيد يشترى بضاعة معينة ويجول فى الطرقات لبيعها . وهكذا يصبح

ماشيا لا يعمل فعلا لافى التجارة ولا فى الفلاحة ولا فى الصناعة ، فهو نصف بطال مقنع بشبهعمل

واذا حاول الاندماج من جديد فى الريف يجد صعوبات مختلفة تجعله غير مطمئن الى مستقبله وعلى فرض انه وجد عملا هناك يبدو او يتصور له ان ذلك العمل لن يدوم الا بمقدار دوام صحته وان حاول الاندماج فى المدينة افتقر الى عمل منتظم قار يوفر له الاطمئنان .

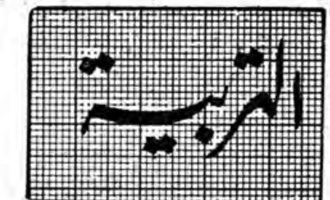
فمن الناحية الفكرية يصبح قلقا مذبذبا سريع التغير والانقلاب . فلا يستقر على راى اوعلى حال فاحيانا يظهر فى ثوب المتدين القانت واخرى يكون فى طريق الجحود والقنوط .

ان علاقات جديدة اخذت تظهر فى الريف تزيد من وضعية الفلاحين سوءا وذلك على الرغم من القروض التى قدمتها لهم الحكومة فى فترات مختلفة ولكن تلك القروض كانت موجهة بالخصوص الى اولئك الذين مازالت لهم القدرة على المواجهة والصمود . واما الذين يئسوا فانهم لازالوا ينتظرون حلا لمشاكلهم ولعل ذلك الحل سوف ياتى حالما يتم تنفيذ مقررات الثورة الزراعية الذى سوف يحدد من مساحة الملكية الكبيرة .

وفى الواقع ان الثورة الزراعية ضرورة اقتصادية تقنية واجتماعية فى نفس الوقت . ان ضرورتها الاقتصادية ترتبط بانجاز متطلبات المخطط الرباعى ، وضرورتها الاجتماعية تتعلق بتحسين وتنظيم احوال واوضاع الفلاحين وتخفيف الضغط الملحوظ على المدن .

واما جوانبها التقنية فانها ترجع الى تسهيلها ادخال الوسائل التقنية الحديثة على الريف . بحيث ان نظام التعاونيات والتعاضديات من شانه ان يدخل الالة الى الريف لتنمية الانتاج وفقا لاساليب عصرية وعقلية . ان المهندسين الشبان الذين تكونوا بعد الاستقلال فى مختلف جامعات العالم متفقون على ذلك ان رايهم يخالف راى الذين يتذرعون بتجربتهم للتخويف من تطبيق الثورة الزراعية والواقع أن هؤلاء قد اكتسبوا تجربتهم ضمن اطار معين هو الاطار الاستعمارى انهم تعودوا العمل والتفكير ضمن ذلك الاطار فلاغرابة ان تخوفهم بالدرجة الاولى كل محاولة لاحداث علاقات جديدة . واما الثورة الزراعية فانها عامل مساعد على استغلال المياهوعلى تحسين الاراضى وعلى تمكين الفلاحين فى التعاضديات والتعاونيات من استصلاح مساحات اخرى اوسع الامر الذى يعجز عنه الفرد الواحد .

ان الثورةالجزائرية تواجه فى نفس الوقت مشاكل مختلفة ولكنها لن تنسى الاهتمام باولئك الذين كانوا قاعدتها الاساسية .







كانت مرحلة التعليم الابتدائى فى جميع دول العالم يجرى التعليم فيها باللغة القومية وحدها لان هذه المرحلة هى مرحلة تكوين الـــذات اوالشخصية لدى الاطفال الصغار . واللغـــة القومية هى الاداة الصالحة لبنـــاء شخصياتهم بناء متكاملاً وسليما من جميع النواحى . هذا كله فيما يخص العامل الاول فى بناء الشخصيـــة القومية للافراد وللامم على السواء وهو اللغة وقد اطلنا الحديث فيه لانه العامل الرئيسى الذى تقوم عليه سائر العوامل الاخرى او تستند اليه كل العوامل الاخرى فى بناء الشخصية القومية .

2

تركي رابح

ثانيا — التاريخ المشتــرك :

والعامل الثانى : فى بناء الشخصية القومية هو التاريخ المشترك فالذكريات التاريخية التى يشترك فيها ابناء الامة الواحدة تحملهم عــلى الشعور بأن اجدادهم واسلافهم قد قاموا بدور عظيم فى التاريخ الانسانى وادوا رسالة عظيمة للحضارة البشرية نستحثهم على ان يبذلـــوا اقصى الجهود لتكملة ما قام به هؤلاء الاجداد والاسلاف .

فالتاريخ المشترك هو الوسيلة الفعالة التى تجعل من ماضى الحيــاة حافــزا لحاضرهــا ومستقبلــها .

هذه الذكريات التاريخية بما فيها من انتصارات وهزائم . وبما فيها من عزة ومذلة ، وبما فيها من نجاح أو اخفاق ، كلها تغذى افراد الامــة بالوعى الاجتماعى ، وتدعم شعورهم بالوحدة والتماسك وتشحذ عزائمهم بالقوة والصلابة .

وتحفزهم على الوقوف صفا واحدا فى ساعة الخطر المحدق بهم وبوطنهم غير أن الاعتزاز بالتاريخ المشترك ينبغى أن ينظر اليه بحــذر واحتراس فكما يستطيع التاريخ المشترك مثلا أن يدفع الحاضر ، ويتطلع للمستقبل ويحمل ابناء الامة على مزيد من التقدم والتطور ، فهـــو يستطيع ايضا ان يكبل الحاضر بأغلال ثقيلــة ويجعله دائم الالتفات الى الماضى ، فحيث تفخر الامة بحاضرها وتتخذ من ماضيها دافعا لها فقط فى الحياة ، ودافعا فقط لها الى التقدم فى سلــم الحضارة والرقى، فهى فى صعود وتطور، وحيث يتراكم هذا الماضى حتى يثقل كاهلهــا فانهــا تبدأ فى الهبوط والتدهور والانحلال بــدون أن تشعر بذلك .

ومن هنا فان علينا أن نجعل دائمــا ماضينــا يعيش فى حاضرنا لا أن نجعل حاضرنا يعيش فى ماضينا فان هذا يعتبر هروبا من مواجهة الواقع الى العيش فى احلام الماضى الوردية . كما يهرب الفاشل فى الحياة ، ومن خابت آماله فى حاضره الى ذكريات الماضى الجميلة يعيش فيها ويجترها فى شبه غيبوبة ، مستعيضا بها عن تعاسة وشقاء حاضره وهو ما يعبر عنه علماء النفس بأحــلام اليقظة لذلك فالتاريخ عامل هام مــن عوامــل المحافظة على الشخصية القومية لكل شعب ولكن بشرط أن يبقى دائما كعامل يدفع الى الامام ، ولا يتحول الى عامل يجذب الى الوراء او الى الماضى الذاهب فقط .

ومن هنا تجب العناية بالتاريـــخ القومى فى مختلف مراحل التعليم وبالخصوص فى المرحلة الابتدائية والثانوية حتى يشب ابناؤنا وبناتنا على الاعتزاز بتاريخ أمتهم ووطنهم اعتزازا ايجابيــا يحفزهم الى مواصلة رسالة الشهداء الامجاد فى الدفاع عن الوطن والعمل على بنائه وازدهاره فى سائر المجالات الحيوية .

ثالثا — الثقافة المشتركة :

أما العامل الثالث فى بناء الشخصية القومية فهو الثقافة المشتركة بين ابناء الامة الواحــدة والوطن الواحد ، وقد سبق أن ذكرنا تعريف الثقافة لغة واصطلاحا فى بداية هذه المحاضرة اما الآن فاننى سأتحدث عن خصائص الثقافة العربية التى هى ثقافتنا القومية فما هى هذه الخصائص ؟ هناك مجموعة من الخصائص المميزة لثقافتنــا العربية الاسلامية التى حفظت كياننا وشخصيتنا من الذوبان فى غيرنا ، وجعلتنا امة متميزة بــين الامم الاخرى يمكن تلخيصها فى الخصائص الاربعة التاليــة :

اولا : ان هناك ثقافة عربية تشكــل اللغــة العربية اطارها العام، وهى لغة ذات تاريخ عريق متصل الحلقات . وقد سايرت الحضارة ونظمها ،

وكانت اداة طيعة فى الزيادة من انتاجها الثقافى فى ميادين الادب ، والعلم والفلسفة ، والموسيقى، والفن ، فى عصور الازدهار الثقافى للامة العربية

ثانيا : ان التراث الفكرى لهذه الثقافة تراث خصب غنى اتسعت آفاقه لثمار الثقافات القديمة التى احتك بها العرب فى ايام نهضتهم الفكرية ما بين ثقافة اغريقية ورومانية وفارسية ، وهندية وآشورية وفرعونية ، وقد دام العصر الذهبى للثقافة العربية حوالى خمسة قرون منذ بزغ فجره فى اوائل القرن التاسع الميلادى حتى أفل نجمه فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد أضاء نور هذا العصر الذهبى جميع الممالك التى فتحها العرب المسلمون فى شرق الوطن الاسلامى وفى مغربـــــه .

ثالثا : لم تكن حواضر البلاد العربية مراكــز لحركة النقل والترجمات عن الآثار والثقافـــات المختلفة للحضارات القديمة فحسب ، وانمـــا اصبحت تلك الحواضر ينابيع للفكر والنبـــوغ العربى وموردا خصبا للثقافة العربية بكـافـــة مظاهرها فتاريخ الحضارات الانسانية لم يعـــرف حركة للانتاج الثقافى والفكرى اشـــد واعظـــم واخصب من تلك التى نشأت فى الاقطار العربية ، والديار الاسلامية فى عصرها الذهبى مثل بغداد ، والكوفة والبصرة ودمشق ، والقاهرة ، وقرطبة ، والقيروان ، وبجاية ، وتلمسان ، وفاس والرباط.

ففى المساجد الاسلامية وهى جامعات المسلمين وكلياتهم الكبرى كان يجتمع عدد عظيم ممن سحر عقولهم التعليم وجذبهم التثقيف فجاءوا ليستمعوا الى محاضرات الاساتذة الكبار كالامام الاسفرانى، والغزالى ، وابن رشد ، والكندى، والامام مالك ، وابى حنيفة ، والشافعى ، وابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والكسائى ، وسيبويه وغيرهم من عباقرة الفكر والدين والادب والفلسفة والعلوم .

رابعا : ان لهذه الثقافة العربية آدابها وفنونها وآثارها التى انطبعت بطابعها الخاص وتأثـــرت بظروفها ومزاجها وترجمت عن اطوار حياتهـــا وتاريخها وهذا واضح لدينا فى عدة اصول ومظاهر لهذه الثقافة . فالفكر العربى كما هو معروف قد تاثر اولا اشد التأثر بالقرآن الكريم الذى يعتبر اساسا لجميع العلوم الاسلامية كما كان اساسا لجميع ما كان يعلم فى حلقات التعليم فى المساجد والمدارس سواء اكان نحوا اوصرفا ومنطقا وعروضا او لغة وبلاغة او فقها واصل تشريع او فلسفة وحكمة او فلكا وطبا الى آخر العلوم والفنون فهذه الثقافة العربية ــ كانت ولازالت من اقوى العوامل فى المحافظة على الشخصية القومية لاقطار الامـــة العربية ومنها الجزائر . ولذلك تجب العنايـــة بالثقافة العربية فى مناهجنا الدراسية والعمـــل على بعث هذه الثقافة بعثا جديـــدا بواسطـــة الدراسات الجامعية الحديثة والمناهج العلميـــة الحديثـــة .

فالتراث الثقافى العربى فى الجزائر هو التراث الوحيد الذى لا يزال يعيش فى المخطوطات تحت اكوام من التراب والعنكبوت ولذلك نرجو مـــن شبابنا الجامعى ان يتجه الى تراث بلاده فيعمل على التنقيب عنه اولا ثم جمعه ثانيا ثم دراسته دراسة علمية منهجية فى المرحلة الاخيرة وبذلك نقوم بواجبنا نحو ثقافتنا القومية ونعمل فى نفس الوقت على ازدهار واثراء شخصيتنا القوميـــة ازدهارا واثراءا يتناسب مع دورنا العظيم فى اثراء وازدهار هذه الثقافة فى العصور الماضية . ان العناية بتراثنا القومى عملية ضرورية لبقاء كياننا وشخصيتنا بين الامم وهو عملية تربوية بالدرجة الاولى ثم هومن ناحية ثانية عملية ضرورية باعتبار اننا لا يمكن ان ننجح فى معركة التحرر من التبعية الفكرية للثقافة الفرنسة اللاتينية التى نخوضها اليوم بدون ان يكون هذا التراث القومى او الثقافة القومية موضع اهتمامنا وعنايتنا وحرصنا عـــلى

سيادتنا الفكرية تجنبا للتبعية للثقافات الاخرى التى تعنى فيما تعنيه طمس هذا التراث والاندماج أو الذوبان فى الغير كما أشرنا الى ذلك من قبل . ان مدارسنا العليا وجامعاتنا الثلاث مدعوة للقيام بهذا الدور التاريخى العظيم دور جمع التراث ودراسته دراسة علمية منهجية تمهيدا لبعثه من جديد فى ثوب عصرى يتمشى مع التطور الفكرى والحضارى للتراث العالمى .

رابعا : الوطن المشترك :

والعامل الرابع والاخير فى تكوين الشخصية القومية هو العامل الجغرافى او الوطن المشترك الذى نسكنه ونعيش تحت سمائه وننعم بمناظره ونأكل منخيراته ونتغذى بحبه منذ الصغر فأصبحنا نحبه حبا فائقا ونحن اليه اذا نحن تغربنا عنه ونغار عليه ان مس احد كرامته بسوء ونعيش من اجل خدمته ونموت فى سبيل الدفاع عنه وحمايته ضد كل عدوان من أى مصدر كان .

ولذلك فان العامل الوطنى او الجغرافى لا يقل اهمية عن العامل اللغوى والعامل التاريخى ، والعامل الثقافى ، فى تغذية الروح القومية بين الاطفال ومن هنا فلابد للناشئين من ان يعرفوا جغرافية وطنهم معرفة جيدة لانه من العبث أو السذاجة ان ننتظر منهم أن يحبوا وطنهم والحال انهم لا يعرفونه ويرون بعيونهم ما يدره عليهم من منافع وخيرات ونظرا لمكانة هذا العامل فى بناء شخصية الفرد بناء سليما كان الاستعمار يحرم على ابنائنا تعلم جغرافية بلادهم ويعلمهم بدلا منها جغرافية فرنسا بتوسع كبير كى يضعف فيهم الروح الوطنية ، هذه بصفة اجمالية هى العوامل الرئيسية التى ينبنى عليها الكيان القومى او الشخصة القومية لشعبنا كما يتفق على ذلك رجال التربية واغلب الباحثين الاجتماعيين .

اما الامام عبد الحميد بن باديس رحمه الله فهو يرى أن العوامل التى تقوم عليها الشخصية القومية للشعب الجزائرى هى ثلاثة عوامل رئيسية فقط يلخصها لنا فى الشعار المنسوب اليه وهو « الاسلام ديننا — والعربية لغتنا — والجزائر وطننا » فهو يرى الاسلام عاملا جوهريا من عوامل بناء الشخصية الجزائرية وحفظها من كل عوامل المسخ والتشويه التى قد توجه اليها — وانا شخصيا من انصار ابن باديس فى هذا الاتجاه بالنسبة للجزائر لظروفها الخاصة . فالدين الاسلامى فى الجزائر يعتبر احد المقومات الاساسية لشخصيتنا القومية لانه لولا الاسلام لكانت الجزائر اليوم غير الجزائر بالامس ، فالاسلام هو الذى جعل الجزائريين يصمدون هذا الصمود الرائع العظيم فى وجه سائر محاولات الابادة والمسخ التى سلطها الاستعمار الفرنسى على الشخصية الجزائرية طوال ١٣٢ عام .

دور التربية فى المحافظة على الشخصية القومية :

اذا تساءلنا بعد هذا كله عن دور التربية فى المحافظة على مقومات الشخصية القومية التى ذكرناها ؟ فان الاجابة عن هذا السؤال هى ان التربية تلعب دورا بالغ الاهمية فى المحافظة على الكيان القومى ، والشخصية القومية لكل شعب . فالمدرسة كما ذكرنا منذ قليل هى قبل كل شىء مؤسسة اجتماعية انشاها المجتمع لكى تقوم نيابة عنه بتربية أبنائه وفق فلسفته الخاصة ، أو بعبارة اوضح وفق عقيدته أو آيديولوجيته الخاصة .

وقد كانت رسالة المدرسة فى بلادنا فى عهد الاحتلال مثلا هى العمل على تنفيذ خطة واسعة النطاق لنشر الفرنسية بين ابناء الجزائر، وتحريف التاريخ الجزائرى ، وطعن الثقافة العربية ، والعمل على تحطيم كيان الشخصية الجزائرية ، اما اليوم فقد تغيرت رسالة هذه المدرسة تغييرا جوهريا فاصبحت رسالتها هى العمل على بناء الشخصية القومية او هكذا يجب عليها ان تكون وبناء على ما ذكرنا تجب العناية بالامور التالية :

اولا : العناية الكافية بتعليم اللغة القومية لابنائنا فى مختلف مراحل التعليم حتى يتقنوها اتقانا جيدا قراءة وكتابة وتذوقا ادبيا ، ومن هنا ينبغى العمل بكل سرعة على تعريب التعليم وخاصة فى المرحلة الاولى تعريبا شاملا وذلك بترجمة تقرير لجنة اصلاح التعليم الخاص بتعريب التعليم الذى نشر فى الصحافة الوطنية فى هذه الايام الى خطط وقوانين رسمية . لان هذه المرحلة هى اخطر مراحل التعليم على الاطلاق لانها مرحلة تكوين الذات او الشخصية لدى الاطفال ، ولذلك فان هذه المرحلة يجرى التعليم فيها باللغة القومية وحدها فى سائر دول العالم كما سبق ان ذكرنا .

ثانيا : ضرورة العناية بتدريس التاريخ الجزائرى والتاريخ العربى لابنائنا فى سائر مراحل التعليم خاصة حتى يشب هؤلاء الابناء على محبة وطنهم وقوميتهم . والاعتزاز بدور امتهم الحضارى ومساهمتها الفعالة فى ترقية العلوم والآداب والفنون وازدهار الحضارة الانسانية طيلة قرون عديدة .

ثالثا : العناية بدراسة المجتمع الجزائرى بصفة خاصة والمجتمع العربى بصفة عامة وكذلك العناية بتدريس مادة التربية الوطنية فى مختلف مراحل التعليم حتى يعرف ابناؤنا مجتمعهم الجزائرى معرفة جيدة فى مشاكله الاجتماعية ، وفى عاداته وتقاليده وفى طموحه وتطلعاته الى التقدم والرخاء والسعادة والازدهار .

رابعا واخيرا : العناية بتدريس جغرافية الجزائر بصفة خاصة ، وجغرافية الوطن العربى بصفة عامة حتى يتمكن ابناؤنا من معرفة وطنهم الذى يعيشون فوق اديمه معرفة جيدة ، ثم معرفة الوطن العربى الكبير الذى يعتبر وطنهم الصغير جزءا لا يتجزأ منه ، معرفة جيدة كذلك سياسيا ، واقتصاديا ، وطبيعيا ، وبشريا . وليس معنى هذا اننى ادعو الى عدم الاهتمام باللغات الاجنبية فى التعليم او عدم الاهتمام بالتاريخ العالمى او بالثقافات الانسانية ، او بجغرافية العالم كلا والف كلا . فنحن جزء من العالم الكبير الذى نعيش فيه. كما ان تراثنا الثقافى والحضارى يعتبر هو الآخر جزءا لا يتجزأ من التراث الثقافى والحضارى للانسانية قاطبة ولكننى انبه فقط الى ضرورة العناية بالامور الجوهرية فى بناء الشخصية القومية لابنائنا وبناتنا ولكافة المواطنين فى هذا الوطن المناضل حتى لا نستمر فى هذا الاندفاع الجارف فى العناية بكل ما هو اجنبى عنا لغة وثقافة وحضارة وموضة الى آخره دون الاهتمام الكافى بتراثنا الثقافى والحضارى لاننى اخشى ان يجرفنا هذا التيار اذا لم نعمل على التحكم فى مجراه بكل سرعة ومهارة وحذق وتبصر . ولعل تفسير بعض مظاهر القلق والحيرة وتفسير بعض مظاهر البلبلة التى تبدو فى تصرفات البعض من شبابنا وفى شخصياتهم وسلوكهم العام انما يعود معظمها الى ان هؤلاء الشباب قد تكونوا عندما كانوا صغارا تكوينا اجنبيا غريبا عن بيئتهم الاجتماعية — وغريبا عن ثقافتهم القومية ، وبعيدا عن جذور شخصية امتهم العربية المسلمة . لذلك نراهم اليوم فريسة سهلة لكل التيارات الفكرية والعقائدية الوافدة علينا من الخارج ، حيث لا يجدون لديهم الحصانة الكافية من ثقافة قومية ، ولغة وطنية وعقائد او آيديولوجية وطنية تقيهم من مخاطر تلك التيارات الهدامة وتجعلهم فى مناعة كافية ضدها .

وفى ختام هذه الكلمة .. اريد ان ابدى ملاحظة تتصل باعمال ونشاط اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم .

(يجب وضع حد للتعليم التبشيرى فى الجزائر) :

لقد قامت هذه اللجنة الموقرة فى وقت قصير نسبيا بعمل جليل وهام للغاية من اجل تقييم نظامنا التربوى ونشرت تقارير ضافية بخلاصة عملها فى صحافتنا الوطنية فى هذه الايام وقد

قرأت ــ تلك التقارير بكل امعان وبالخصوص تقرير اللجنة الفرعية للتوجيه ، وتقرير اللجنة الفرعية لديموقراطية التعليم ــ ولم اجد اشارة واحدة فى التقريرين المذكورين الى مسألة « التعليم التبشيرى » الذى لاتزال تباشره الهيئات التبشيرية فى الجزائر بكل حرية ، واصبح الكثيرون من موظفى الدولة يرسلون ابناءهم وبناتهم الى التعليم فيه بدل ارسالهم الى مدارس الدولة الجزائرية كى يتلقوا فيها تعليما وطنيا كبقية ابناء الشعب الآخرين .

ان التعليم التبشيرى الذى يجرى فى المدارس التبشيرية المختلفة ليس تعليما خالصا لوجه الله وليس تعليما خالصا لوجه العلم للعلم كما يظن بعض الناس الطيبين ، ولكنه بكل تأكيد وسيلة سيطرة ونفوذ ومحاولة خبيثة من الاستعمار الجديد للعودة الى البلاد مرة اخرى عن طريق النافذة بعد ان طرد من الباب . انه نوع من الاستعمار الفكرى والثقافى يحاول ان ينفذ الى اعماق وجدان اطفالنا الصغار كى يبسط عليهم سيطرته ونفوذه الفكرى والتوجيهى .

لقد جرت عملية فرنسة مدارس التعليم العربى الحر وثانويات التعليم المزدوجة اللغة منذ عام ١٩٦٤ بدعوى توحيد المدرسة الجزائرية ، وكانت هذه العملية غلطة لا تغتفر فى حق اللغة العربية والثقافة القومية وقد تنبهنا الى هذه الغلطة فى المدة الاخيرة كما اشار الى ذلك تقرير اللجنة الفرعية لتعريب التعليم لاننا قضينا بهذا القرار على المنبع الوحيد الذى كانت تستقى منه مدارس المعلمين وبعض الاقسام المعربة تلامذتها والمتعلمين فيها .

والغريب اننا بعد ان فرنسنا المدارس الحرة والثانويات المزدوجة رجعنا الآن الى محاولة تعريبها من جديد والاغرب من كل ذلك هو اننا قمنا بفرنسة مدارس التعليم العربى الحر التى انشاها الشعب فى ايام الاحتلال والتى ادت دورا كبيرا فى المحافظة على اللغة العربية والثقافة العربية من عام ١٩٣٠ ، وفى نفس الوقت تركنا المدارس التبشيرية تواصل عملها فى بث سمومها فى عقول ووجدان اطفالنا الصغار .

لقد تعجبت كثيرا بعد قراءتى لتقارير لجنة اصلاح التعليم الوطنية من عدم الاشارة الى ذكر هذه المدارس مع انها اشارت فى اكثر من موضع الى وجوب توحيد المدرسة الجزائرية ــ ووجوب اشراف الدولة على التعليم اشرافا كاملا .

لذلك نرجو ان يتدارك اعضاء اللجنة الوطنية الموقرة هذه المسألة الخطيرة فى اقرب وقت كما نرجو مخلصين ان يوضع حد للمدارس التبشيرية او على الاقل تشدد الرقابة عليها وعلى كل ما يدرس فيها ومايجرى بداخلها من اعمال ونشاطات مما لا يخفى علينا جميعا الهدف من ورائها .

وهكذا . . لاحظتم من خلال هذا الحديث مدى العلاقة الوثيقة بين التربية من ناحية وبين الشخصية القومية سواء على المستوى الفردى او على المستوى الاجتماعى من ناحية اخرى . مما دعا احد المربين فى القرن السادس عشر الى القول « سلمنى ادارة التعليم فترة من الزمن وانا اتعهد اليك بقلب وجه العالم باسره » كما دعا الزعيم الالمانى المعروف « بسمارك » الى القول كذلك « ان الذى يدير مدرسة يدير مستقبل العالم » .

ومما لاشك فيه ان للتربية شأنا عظيما فى تغذية النهضات القومية وبناء شخصيات الامم والمحافظة على ثقافتها وتراثها القومى ولذلك فان البلاد التى يغتصب استقلالها ولكن يترك بيدها امر تعليم ابنائها لا تلبث ان تستعيد ذلك الاستقلال اما البلاد التى تنال استقلالها ولا يكون بيدها زمام امر تعليم ابنائها فانها لا تلبث ان تفقد هذا الاستقلال ويؤول امرها الى السقوط مرة اخرى تحت سيطرة الاحتلال الاجنبى ماديا بعد ان سقطت تحت سيطرته ثقافيا وفكريا .

دراسات تاريخية

العلاقات بين الجزائر وإيطاليا



سلفاتور بونو

ترجمة : ابو القاسم
بن التومى

القى الدكتور سالفتورى بونو استاذ بجامعة فلورانس محاضرة بالجزائر عنوانها « العلاقات بين الجزائر وايطاليا خلال العهد التركى » .

والاستاذ بونو متخصص فى تاريخ المغرب له فى نلك عدة كتب منها « قراصنة المغرب Corsari Barbareschi

ونظرا لقيمة المحاضرة من حيث المصادر الايطالية والمعلومات والتفاصيل والموضوعية عربنا القسم الاول منها على امل تعريب القسم الثانى ونشره .

ان الموضوع الذى ساطرقــه اليــوم هــو « العلاقات بين ايطاليا والجزائر ، من القرن السادس عشر الى اوائل القرن التاسع عشر » والحديث عن هذه العلاقات يستلزم الحديث عن جملة من الاحداث التاريخية التى تمتد على ثلاثة قرون ، اى من ١٥١٦ الى ١٨٣٠ ... واطــار هذه الاحداث هو البحر الابيض المتوسط الذى طالما كان مسرحا للمآسى والصراعات والمعارك البحرية والقتال والغزو ، وما ينتج ذلك من الاسر والفــديــة والتجــارة .

ولكن على اى اساس ، ومن اية زاوية تاريخية سوف نتناول هذه الفترة ؟ وكما هو شأن كــل مؤرخ ، ، فان موقفنا سيكون مستمدا مـــن الواقع الملموس ، ومن مثلنا ومعتقداتنا . وقــد ادى بنا استعراض الاحداث التاريخية الى ان نضرب صفحا عن العداوة المتأصلة والصــراع المستمر بين نمطين من الثقافة ازدهرا فى منطقة البحر الابيض المتوسط ، وهما الاسلام والمسيحية وتلك العداوة هى التى سيطرت على الاذهان طيلة قرون ، واثرت المؤرخين مــن حيث الاراء والاحكام وهاهو ذا الواقع يكشف لنا اليوم ، بعد عدة قرون من الكفاح ، وبعد سنوات من سوء التفاهم والخلاف والصراع والبغضاء ... هاهو ذا الوقع يكشف لنا بجلاء أن الشعوب والافراد على قدم المساواة فى الكرامة والاباء ، ويدعــونا الى ان نتجرد من العجب والاعتقــاد الباطــل بالتفوق على الغير ، وان نتخلى عن كــل فكــرة سخيفة فى استعباد الشعوب .

وكذلك الامر فيما يتعلق بالاحداث الغابرة للبحر الابيض المتوسط من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى يدور حولها موضوعنا ، فالمسألة فى نظرنا ليست عبارة عن صفين متصارعين : الصف المتمسك بمبادىء الشرف من جهة ، والصف المتوحش من جهــة اخرى ... صف الحق ، وصف الباطــل ... الواحد منهما صاحب الايمان بالعقيدة الصحيحة والاخر صاحب الخرافات والاباطيل . اننا على العكس من هذا نرى بأنه يوجد من كلا الطرفين رجال كانوا ، علــى حسب صروف الدهــر ، يتعاونون فى الكفاح أحيانا ، ويحاربون بعضهم بعضا احيانا أخرى ، فكانوا بذلك رجالا اكفــاء بــأتم معنــى الكلمة .

سوف يكون اهتمامنا فى ثنايا هذا الحديث بالرجال ، اى بالجزائريين والايطاليين ، اكثــر من الاهتمام بدولتى الجزائر وايطاليا وحكومتيهما خاصة أن هذين البلدين لم يكن كل منهما فى ذلك الحين يشكل وحدة سياسية حقيقية على الصورة التى نعرفها اليوم .

ان هذه التجارب الانسانية الغنية التــى سوف اتعرض لها ، لا يمكن أن تفهم على حقيقتها ــ كما اشرت الى ذلك آنفا ــ الا اذا درست فى اطار تاريخ البحر الابيض المتوسط الشامل . فهذا البحر اصبح ، منذ ان آل الامر الى الاتراك فى المغرب اى منذ القرن السادس عشر الــى السبعينات منه ، اصبح هذا البحر مســرحا لصراع كبير بين المسيحية والاسلام اللذين تولت الدفاع عن كل منهما دولة هابزبورج Habsbourg ودولة الاتــراك .

وفى بداية القرن السادس عشر جاء القرصان التركى عروج لحماية مدينة الجزائر بعد ان هددها الاسبان الذين احتلوا مدينة تقع مواجهة لهــا وهى بينون Penon فاستطاع أن يستولى على الجزائر وان يطورها بسرعة وبكيفيــة عجيبة حتى انه جعل منها مركزا من اكثر المراكز تنظيما وثراء بالنسبة الى نشاط القــرصنــة الذى كان سائدا فى البحر الابيض المتــوسط كله وقد وضعت الجزائر ، مع بقية الحــواضر المغربيــة امكانيات اسطولها النشيط القــوى

الى جانب الاتراك ، فى العقد لاول من القرن السادس عشر ، وفى سنة ١٥٤١ نظمت حملة كبرى اشترك فيها اكثر من ٥٠٠ سفينة ، ضد الجزائر التى كانت محور القوة التركية المتحالفة مع البربر فى المنطقة الغربية من البحر الابيض المتوسط ، وقاد الحملة الامبراطور شارل كان (الخامس) بنفسه واشترك فيها كذلك الجنود والسفن التابعة للامارات الايطالية المتحالفة مع الامبراطور .

وهكذا تجابه الايطاليون والجزائريون . وقد تولى الدفاع عن الجزائر حسن آغا الذى كان يحكم المدينة من قبل خير الدين حكما ــ كما يقول المؤرخ « هايدرو » ــ بعيدا عن كل شغب وفى ظل الامن الشامل والعدالة الحقة .

وكان حسن هذا من مسيحيى (سردانية) اعتنق الاسلام ، وهو ينتمى الى تلك الفئة من الاوروبيين الذين ارتضوا لهم الاسلام دينا ، فأطلق عليهم العالم المسيحى لقب مرتدين Renégats وقد وقع وهو فى سن الشباب مع كثير من أمثاله من الشباب أسيرا فى يد خير الدين اثناء غارة شنها على قرية ساحلية من جزيرة (سردانية) ، فأبدى ــ على حد تعبير المؤرخ الانف الذكر ــ ذكاء مفرطا فى كامل الشؤون التى كلفه بها سيده ، حتى وان هذا الاخير ، عندما صار حاكما على الجزائر ، عينه كاهية له وولاه ادارة جميع أملاكه .

ونزل الى البر عدد كبير من القوات المسيحية يقدر بأكثر من عشرين الف جندى احتلوا هضاب الجزائر ، واصبحت المدينة مهددة من طرف العدو الذى اقترب من أبوابها . وفى هذه الساعات الرهيبة ، كان حسن آغا ــ بعد أن رفض فى اباء محاولات « شارلكان » الذى اغراه بخيانة وطنه الجديد ــ يجوب المدينة التى انهارت معنوياتها ممتطيا جواده ، وهو يشجع الناس ويمطئنهم

وبعد الانتصار ، ولما اخذت السفن الباقية للعدو تبتعد عن الجزائر عفا حسن آغا عن عدد غير قليل من الاسرى المسيحيين فبقوا ينعمون بالحياة .

لم تكن هذه الحادثة فريدة فى نوعها ، ولا هى حالة طارئة ، ففى ذلك العهد وخلال القرون التى تلت ، وجد كثير من الايطاليين والمسيحيين بصفة عامة الذين وقعوا فى الاسر من جراء حروب القرصنة ، فسيقوا الى الجزائر ، وهناك اعتنقوا الاسلام واندمجو فى المجتمع الجزائرى . وآخرون من الاوروبيين ــ وهم كثيرون ــ غادروا بلادهم الاطلية عن طيب خاطر وقصدوا الاراضى الجزائرية واصبحوا مسلمين ، ذلك ان العالم الافريقى ومدينة الجزائر الغنية القوية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانا يقدمان لهؤلاء كل الامكانيات للحصول على الثروة بسرعة والارتقاء فى السلم الاجتماعى واحتلال اعلى المناصب السياسية والعسكرية هناك .

والجدير بالملاحظة أن النازحين الى الجزائر فى ذلك العهد قدموا من بلاد مثل ايطاليا حيث كان أصل الفرد هو الذى يكيف الحياة الاجتماعية وحيث كان النبلاء والاغنياء وذووا السلطان يتمتعون بامتيازات ترفعهم عن باقى طبقات المجتمع التى لم تكن تصلح الا للطاعة والخضوع لهؤلاء الاسياد . وقد انضم الى هذا الاضطهاد الاجتماعى السيطرة الاجنبية التى كانت تخنق البلاد ، فلا عجب ان يرى هؤلاء الجزائر الارض الذى يسود فيها التسامح والمساواة والحرية .

وبعد اندماجهم فىصميم الحياة الاجتماعية الجزائرية ، يفكرون فى اتخاذ مهنة تفتح امامهم آفاقا مغرية ، فيختارون غالبا القرصنة فى البحر حيث يجدون المجال فسيحا لاستثمار مواهبهم فهم يجيدون ترتيب الخطط للهجومات وشن

الغارات والنزول فى السواحل الاوروبية التى يعرفون مواقعها .

ان لدينا بعض المعلومات عن عدد المسيحيين المعتنقين للاسلام الذين استوطنوا الجزائر فى مختلف العصور ، وكان اكثرهم من البلاد الاوروبية ، وخاصة ايطاليا واسبانيا وفرنسا والذى يهمنا على الاخص هو ماذكرته بعض المصادر التى تعرضت لبيان الدور الذى لعبوه فبناء على ما ذكره المؤرخ الاسبانى Diégo Haedo الذى الف كتابا عن « طبوغرافية » الجزائر وتاريخها العام وهو تأليف أساسى لمعرفة الجزائر فى العهد التركى ، فان هؤلاء المعتنقين للاسلام من المسيحيين هم الذين كانت بأيديهم السلطة والنفوذ الادبى والحكم والثراء ، وكانوا يشغلون هم وعائلاتهم ٦٠٠٠ منزل او اكثر ويروى الاب الثالوثى Dan فى تاريخه النفيس عن البلاد الجزائرية ان فى غضون سنة ١٦٣٠ كان بالجزائر ٨ آلاف من المسيحيين المسلمين بالاضافة الى ١٢٠٠ امرأة اغلبهن أسبانيات وبرتغاليات وايطاليات ويونانيات وانكليزيات ، ويؤكد صاحب الكتاب ان هؤلاء قد وصلوا الى درجة من القوة عظيمة ، وكانوا احسن رجال الحرب فى البر والبحر واكثرهم عددا . وقد حفظ التاريخ اسماء عدد ضئيل منهم ولم يستطع اثبات موطنهم الاصلى ، فلا يمكننا فى المرحلة الراهنة من بحوثنا ان نحدد بدقة عدد المسلمين الذين هم من اصل ايطالى ، ولنكتف على سبيل الاستشهاد بايراد بعض أسمائهم .

فمن بين ملوك الجزائر (وهو الاسم الذى اطلقه « هايدو » على الباشوات الذين تولوا حكم هذه المدينة) نجد حسن آغا الانف الذكر ثم رمضان باشا وهو من سردانية ايضا تولى الحكم سنة ١٥٧٤ . اسر وهو شاب فى سردانية فعنى سيده — وكان تاجرا تركيا — بتعليمه لما أنس فيه من مواهب وذكاء . ونظرا لخصاله عين « قائدا » فى عدة مدن ، وخلال السنوات الطويلة التى تولى فيها المناصب الادارية ، اكتسب ثروات طائلة وحصل على الجاه والسمعة الطيبة واشتهر عند الناس بالعدل والاستقامة ودماثة الاخلاق والحلم . وكان عهد ولايته على الجزائر عهد سعادة وازدهار .

وكان حسن باشا الحاكم الثانى والعشرون من مسيحيى البندقية ، وكان وهو فى سن الطفولة كما يروى « هايدو » يتنقل على ظهر سفينة تدعى Esclavon أو Ragnsain يعمل بها كاتبا للمؤرخ ، وفى احدى المعارك استولى على تلك السفينة Dragnt Rais ملك طرابلس ، وبعد وفاة هذا صار ملكا لعلج على الذى عينه عندما صار باشا على الجزائر امينا عاما للخزينة وأسند اليه فى سنة ١٥٧٧ ادارة المدينة ، وشغل هذا المنصب حتى سنة ١٥٨٠ . وقد اشتهر بالدهاء والحزم والقساوة والطموح .

اما علج على فقد كان كلبريا من اسرة تحترف صيد السمك ، ومغامراته العجيبة الخلابة تستحق أن نشير اليها باختصار ، وكأنها تشكل رمزا لمصير اولئك المسيحيين الذين استوطنوا الجزائر واعتنقوا الاسلام . فى شهر افريل من سنة ١٥٣٦ أثناء غارة على شاطىء خليج Squillace قام خير الدين بمهاجمة قرية صغيرة تدعى Le Castella وأسر أهاليها ومن بينهم شاب يبلغ السادسة عشرة من عمره اسمه Giovani Dionigi Galeni أو Jean-Denis Galeni باعه فى سوق العبيد بالقسطنطينية سيده جيافر ثم حمل كقداف على متن بارجة كانت تجوس خلال البحار الشرقية .

اننا لا ندرى على وجه التحقيق السبب الذى دفع هذا الرجل الى اعتناق الاسلام واتخاذ لقب علج على ولا الظروف التى صيرته من قرصان

البحر الذائعى الصيت . وعلى اثر وفاة Dragnt فى الهجوم على جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ عين علج على باشا على طرابلس ثم فى سنة ١٥٦٨ باشا على مدينة الجزائر التى كانت حينذاك تجتاز فترة من تاريخها مفعمة بالنشاط والازدهار واستغل علج على ضعف اسبانيا التى كانت فى وقت ما مضطرة لمواجهة ثورة عنيفة قام بها Les Moricas لتحقيق هدف عظيم هو غزو كامل بلاد المغرب ، وفى سنة ١٥٦٩ احتل فعلا مدينة تونس ، وشارك على راس الاسطول الجزائرى فى معركة Lapante التى خرجت منها القوات البحرية الجزائرية سالمة رغم الهزيمة الشاملة التى لحقت المسلمين ، واعترافا بجميل صنعه عينه السلطان قائدا اعلى للاسطول التركى ، فأعاد علج على تشكيله بأقصى سرعة وانطلق الاسطول العثمانى سنة ١٥٧٤ تحت قيادته لاسترجاع تونس لحضيرة الامبراطورية العثمانية ، وكان الاسبان وحلفاؤهم قد استولوا عليها منذ سنة مضت . وبفضل احتلال الاتراك لتونس تأكدت هيبة الامبراطورية العثمانية من جديد ، وكانت قد تزعزعت على اثر هزيمة Lapante وعاود القلق والهلع قلوب

المسيحيين الا انه لم يحصل تصادم مباشر وعظيم بين الاسلام والمسيحية ، فان انتباه وجهود الباب العالى كانت متجهة نحو الشرق بسبب الحرب القائمة ضد الفرس ودولة اسبانيا التى اتحدت مع البرتغال منذ عام ١٥٨٠ كانت بدورها قد حولت أنظارها نحو الغرب ، نحو المحيط الاطلسى والعالم الجديد ، فحدث نوع من التوازن فى البحر الابيض المتوسط الذى اصبح — على حد تعبير Fernand Brandel — خارج نطاق الاحداث التاريخية الكبرى ، ومن ذلك الحين وفى ظرف قرنين ونصف اخذت القرصنة البحرية تهيمن على الحياة اليومية للمحيط الكبير يقول المثل « من تصدى للقرصنة لقى قرصانا ونصفا » وهو مثل يجد مصداقه من صميم الحياة داخل البحر المتوسط. فقد تعرض للقراصنة الجزائريين اول الامر قراصنة اوروبيون لا يقلون عنهم جراة ومهارة ، وهم لم يكونوا على اعمال دفاعية ضد المسلمين فحسب ، بل كانوا يبدون نشاطا قويا اذ ينهبون سفن وسواحل البلاد الاسلامية . ونحن لا نعرف شيئا كثيرا عن الاعمال التى كان يقوم بها قراصنة اوروبا فمؤرخونا لم يكن لهم متسع من الوقت للبحث عن نشاطاتهم وكادوا لا يذكرون عنها شيئا ، ولم يكن الشأن كذلك بالنسبة للاعمال البطولية التى حققها اشخاص آخرون تواترت أخبارهم فى أوروبا زمنا طويلا حتى لقبوا بحماة العقيدة والحضارة ضد الوحشية الاسلامية ، وما هم فى نظرنا — ونحن نسعى لمحو الاساطير والخرافات وطرح الكلام المنمق — الا قراصنة ماهرون وجريئون ، وأعنى بهم « فرسان مالطة وسانتتيين Saint Etienne » . فلنستعرض هنا بعض وقائعهم :

فى سنة ١٥٧٩ هاجمت اربع سفن حربية بقيادة نائب قائد الاسطول Vice-Amiral Marc Antonio السواحل الجزائرية قرب مدينة القل واختطفت ٣٦ شخصا .

وفى شهر افريل من سنة ١٦٠٤ كلفت حكومة طوسكان Toscane ضابط البحرية الانكليزى Robert Giffort (روبير جيفور) بتنفيذ مخطط مجازف ، وهو اضرام النيران فى سفن « مراد رئيس » وغيره من القراصنة الراسية بميناء الجزائر . وقد كان لنجاح هذه العملية صدى بعيد فى الآفاق كما تشهد بذلك الاخبار الكثيرة التى نشرت عن هذا الحادث ، وقد شهدت العقود الاولى من القرن السابع عشر عمليات مختلفة قام بها القرصان الطوسكانيون Toscans وقطع من أسطول البلاد الايطالية ضد مدن

ساحلية من ارض الجزائر ، وكان ضحايا هذه القرصنة الرجال والنساء ، والاطفال الـذين يتخذون عبيداً في البلاد المسيحية ، وهكذا كـان الشأن على السواحل الاطالية من جراء القراصنة الجـزائـريين .

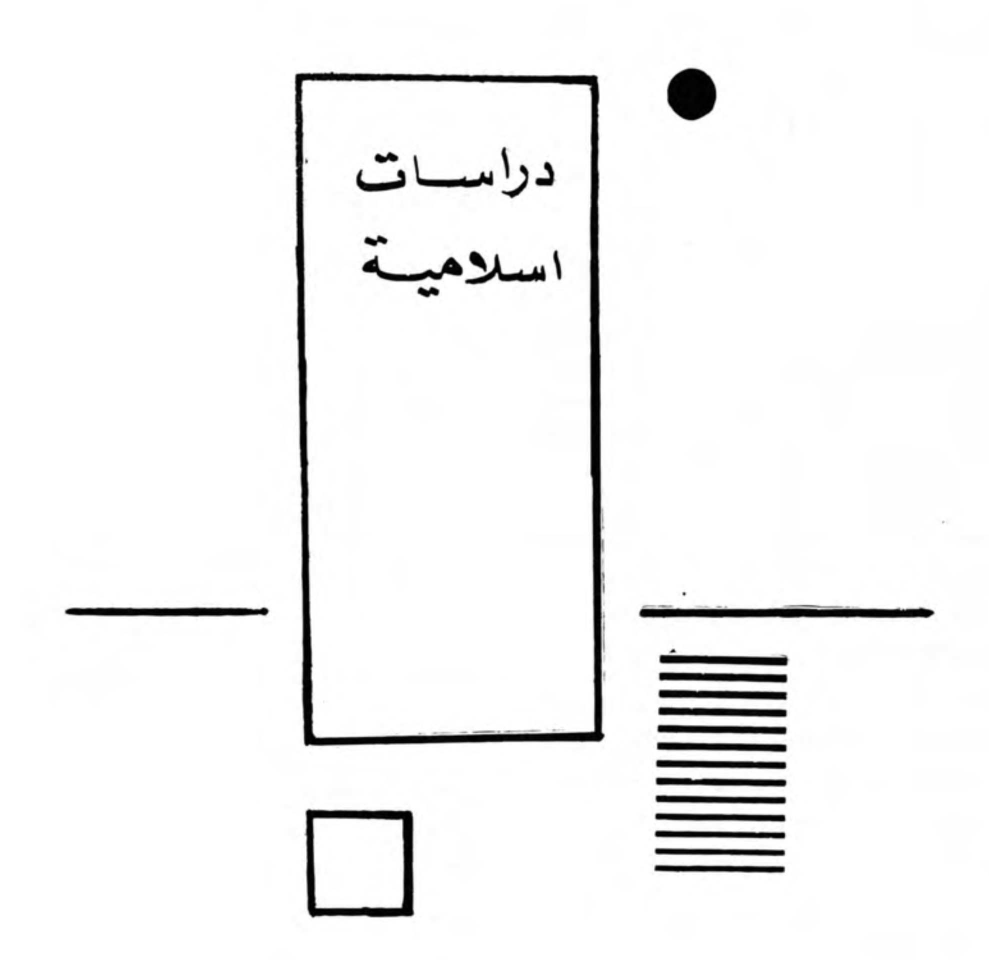
وفي ١٦ سبتمبر سنة ١٦٠٧ اخذ فرسـان Saint Etienne من مدينة عنابة ١٥٠٠ شخص زيادة على عدد وافر من الغنائم . ونجد هـذا العمل الحربي مرويا في عدة تقارير حـررت في ذلك العهد ، وقد اشيد فيما بعد في قصيـدة عنـوانها Bona Espugnata . وفي قـريـة على بعد ٩٠ ميلا غربي الجزائر اختطف الفرسان الطوسكانيون في صيف ١٦١٠ ٥٠٠ شخص .

وفي سنة ١٦١٣ انزلت ثمان بوارج صقليـة بقيادة Ottavio d'Aragona جالها على الشواطىء الجزائرية ، وفي شهر جوان من تلك السنـة نهبت سفن غراندوق طوسكان قلعة ارزيـو وحررت ٢٠٠ رقيق من المسيحيين واسرت عددا مماثلا من الجزائريين .

وكانت المعارك بين الجزائريين والايطاليين تدور احيانا في مناطق بعيدة عن بلادهم . ففي افريل سنة ١٦١٦ هاجمت سفن فرسان Saint Etienne في ميـاه Negropont عمارة بحرية للقائد الجزائري مراد رئيس كانت ـ فيما يبدو ـ تقل باشا الجزائر الجديد القادم من الاستانة ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف طويل ومريب انتهـى بالاستلاء على سفنتين مسلمتين هما اكبر وحدات الاسطول العثماني . وفي سنة ١٦١٩ اسر القائد الجديد لجمعية رهبان Saint Etienne الكـونت Giulio Barbolani سفينة القيادة الجزائرية في بحر الشرق ... وفي سنة ١٦٢٤ احرز القائد المذكور على انتصارات جديدة ضد الجزائريين ففي شهر ماي من هذه السنة فاجأ قرب جزيرة سان بيار Saint Pierre في بحر سردانيـة غليونا (وهو سفينة حربية تجارية) للقرصـان « حميتو » من ازمير كانت قاعدته في الجـزائر وفي اكتوبر من تلك السنة وفي ذلك البحر نفسـه بمساعدة سفـن Saint Etienne تمكنت سفن اخرى للبابا وحكومة نابولي من الاستيلاء على عمارة بحرية كاملة تضم ست سفن للرئيس الجزائري « حسن خليفة » .

والجزائريون ـ ونحن نعرف اي دم كـان يجري في عروق من يرفعون على سفنهم العلـم الجزائري ـ كانوا من جهتهم اكثر نشاطا وجراة واسعد حضا في ممارسة القرصنة البحريـة فكانوا يهاجمون السفن من كل حجم وينزلـون في شواطىء ايطاليا وغيرها وياخذون المئـات والالاف من الاسرى المسيحيين يحملونهم الـى الجزائر . ولا زالت صوامع الحرسة التي شيدت لدفع غارات القراصنة قائمة على سواحـل ايطاليا بعضها سالم والبعض الاخر في حالـة انهيار . وتوجد كثير من الوثائق المتضمنة للوقائع التي جرت بالمدن الايطالية والاوراق القديمة التي وردت فيها عدة انباء عن تحرشات ومهاجمـات القراصنة الذين ينسبون غالبا الى الاتراك او البربر ، الامر الذي يجعلنا لا نستطيع أن نجـزم هل هم جزائريون أم تونسيون او غيرهم ، وسواء احصلت الهجومات والاستلاء على السفن مـن هذا الجانب او ذاك فقد كانت النتيجة المؤلمـة تزايد عدد العبيد المسيحيين او المسلمين عـلى ضفتي البحـر المتـوسط .

يتبـع


دراسات
اسلامية



محمد الصالح الصديق

من الحقائق الاولية ، ان الاسلام لا يمثل حضارة خاصة بعهد من العهود ، تتجلى فى عمران ذلك العهد ، وفى آثاره ومختلف صوره ومعالمه ولما مضى ذلك العهد مضى معه الاسلام ولم يبق الا على لسان التاريخ ، يردده كما يردد الحضارات البشرية المختلفة التى مرت بهذا الوجود كاليونانية والرومانية وغيرهما ، وهذا اعتقاد كثير من المستشرقين المتعصبين و (انصاف) المسلمين الذين اخذوا من العلم وهما وظنوه حقيقة ، وقشورا حسبوها لبابا .

ان الاسلام دين حى ، ورسالة خالدة ، سيظل يمد بطاقته الحية كل عهد من عهود التاريخ وكل مجتمع من مجتمعات الانسان ، وكل طور من اطوار البشرية مايفى بالحاجة فى الاوان دون تأخر أو قصور ، لانه دين الله الحق ، الذى يساير الحياة فى نموها ، وتطورها ، يراقبها فى تقلباتها ، ويميدها الى الجادة عند انحرافها وزيغها ، ويرشدها فى مشاكلها ، ويعارضها فى اتجاهاتها الفاسدة .

واذا كان الاسلام قد انتشر فى مختلف أرجاء العالم انتشارا مدهشا لم يعرف التاريخ مثله لدين من الاديان ، وكتب له هذا الخلود بفضل نظمه وأسسه وتشريعاته التى سادت بها البشرية قرونا طويلة فانه سيبقى كذلك ما بقيت الحياة لانه الدين الذى تلتقى تعاليمه مع الفطرة وتأخذ طريقها الطبيعى الى النفوس . اليس دينا لا يفرق بين عنصر وعنصر ، ودينا يؤدى بالمجتمع الى مستوى أفضل ، ويأمر بالايمان بسائر الكتب المنزلة ، وبجميع الانبياء والرسل ويأمر بالسلوك الحسن مع أهل الديانات الاخرى ؟

اليس فى حقائقه الباقية الخالدة ، وفى نظرته الى الكون ، وفى تقديره لمصالح الناس وحقوقهم وطلبه الايمان عن طريق التأمل والعقل ، وفى رفعه الحرج وتوخيه اليسر ... اليس فى كل هذا ما يدل دلالة قطعية على ان الاسلام دين عالمى ، دين الانسانية جمعاء ؟

ودين هذا طبعه ، وهذا زاده فلا بد ان يتعلق به الناس اذا هم نظروا فيه بعقول سليمة وفطر هادية ، وتجردوا من الاهواء والنزعات..

ولعل من الدلائل الواضحة أيضا على بقاء الاسلام ، يواكب الانسانية فى مختلف تطوراتها انه الدين الوحيد الذى استطاع ان يصمد اربعة عشرة قرنا أمام غارت هوجاء ، وهجمات قاسية متتالية ، ومؤثرات وتدليسات وثورات داخلية وخارجية ، فردية وجماعية لا تستطيع ان تواجهها الاديان الاخرى . فكم من ديانات تلاشت وتبخرت امام هجمات أقل اضعافا ، من تلك الهجمات وبقى الاسلام كما هو ، وكم من حضارات سادت ثم بادت كأن لم تغن بالامس وظل الاسلام بروحه وشخصيته كما كان ، وفى هذا يقول الاستاذ أبو الحسن الندوى فى احدى محاضراته بكلية الشريعة السورية حول حركة الاصلاح فى تاريخ الاسلام سنة ١٩٥٦ :

(لقد كانت الباطنية بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطرا على روح الاسلام النقية وعقائده الصافية الواضحة ، تتهدد وضع الاسلام الحقيقى وكذلك كانت الغارة الصليبية ثم هجوم التتار — ذلك الجراد المنتشر — صاعقة نزلت على الاسلام والامة الاسلامية وكانت جديرة بأن تقضى على الاسلام وتقصيه من ميدان الحياة ومصاف الامم ، فلو كان غير الاسلام من الديانات للفظ نفسه الاخير وأصبح اسطورة من الاساطير)

ولكن الاسلام تحمل كل هذه الصدمات ، وكل هذه الصواعق ، واستطاع ان يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكف أنه عاش وبقى يلعب دوره بل انه شق طريقه الى الامام وفتح فتوحا جديدة فى ميدان العلم والعقل والسياسة .

وما ذلك الا لانه دين الله الحق ، الذى أعلن عن شكله النهائى وطوره الكامل يوم عرفة بقوله **« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .**

والدارس للقرآن ، والمتبع لنصوصه بتفهم تتجلى له خصائص الاسلام التى اهلته لان يكون عالميا ، ، وبالتالى ليبقى ما بقى الانسان . وتلك الخصائص يمكن ايجازها فيما يلى :

« ١ — وفاؤه بحاجة الانسانية جمعاء فيما يصون وحدتها ويرعى انسانيتها ، ويحمى افرادها فى العاجل او الاجل .

٢ — تشريعاته التى تضمن قيام الانسانية كلها فى محيط واحد لا تنزع معه الى عصبية دم او اختلاف لون او فرقة جنس ..

٣ — اتساقه مع حقائق الكون وخصائص الوجود بحيث لا يتعارض مع مايثبت من حقائق العلم أو يختلف مع منطق الفكر .. »

بالاضافة الى ان معجزة الاسلام الباقية لم تعتمد على خوارق العادات شأن الاديان

الاخرى ، كاحياء ميت أو تحرك عصا ، بل اعتمدت على النظر ، والتأمل ، والعلم ، والمعرفة ، وشتان بين معجزة لا يتأثر بها الا من رآها أو عاش فى عصرها ، ومعجزة باقية بقاء الحياة تفد عليها اجيال واجيال ، فتقف ناظرة متأملة ، متأثرة ، ثم تمضى لتفد اجيال واجيال اخرى وهى ثابتة خالدة مع الزمان والمكان يستضىء بها الوجود الانسانى فى طريق الحياة ..

ماذا تنشد الانسانية فى هذا الوجود ؟

اذا كان الامن والطمأنينة وحماية العقل والعرض والمال والنسل ، ففى الاسلام ضالتها واذا كان التعاون والوحدة والعدل والايثار ففى الاسلام مطلبها ، واذا كان الكرامة والحرية والمساوات وحل مشاكل العيش والاقتصاد ، ففى الاسلام بغيتها ، واذا كان التكافل والتضامن وانس الفكر بالكون وتسخير الطبيعة لمصلحة الانسان والسفر الى القمر والكواكب ففى الاسلام ما يشجع على ذلك ويدعو اليه ... اليس هذا الكون الهائل كله بمن فيه وبما فيه مسخر للانسان ؟

(الله الذى خلق السماوات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سالتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) .

اوليس اول آية نزلت من القرآن : **(اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ..)** ؟

ثم اليست نقطة انطلاق الدين رحلة النبى محمد طلى الله عليه وسم الى الملا الاعلى ؟

ان دينا يفى بحاجة الانسان مهما تطور ، ومهما تنوعت هذه الحاجات لهو — لعمرى — دين الانسانية جمعاء ودين باق بقاء هذه الانسانية..

وايضا فى شخصية رائد هذا الدين ما يدل على عالمية الاسلام فان فيها ماتفرق من الخصائص والميزات والسجايا فى رواد الاديان الاخرى السماوية ، ففيه ما كان فى نوح من الشدة والغيظ على الكفار والمشركين ، وما كان فى ابراهيم من الثورة والجهاد فى تحطيم الاوثان والاصنام وما كان فى موسى من العمل على سن السنن الصالحة والشرائع الحكيمة ، وما كان فى عيسى من خفض الجناح والحدب والمحبة ، وما كان يمتاز به ايوب من الصبر على المكاره والشدائد ، والشكر على النعمة والعافية بعد الابتلاء وما امتاز به يوسف من الصبر على الاغواء والدعوة الى الحق وما اشتهر به يعقوب من الثقة بالله وطرد اليأس وقد استحكمت حلقاته .

وفى هذا اوضح الدلائل على ان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وانه رسول الانسانية جمعاء (**وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) .**

اما مايتشدق به بعض المستشرقين ، والمغرضين من ان الاسلام ليس دينا عالميا حيث بدات رسالته فى الجزيرة العربية وفى امة ابعد ما تكون عن الحضارة والتمدن بالنسبة الى الامم المتحضرة كالفرس والرومان فزعم باطل اوحاه ضيق العقل والافق ، واملاه التعصب الدينى ، الذى يتجنى على العلم والعقل والتاريخ ، فى حين ان البحث العلمى يجب ان يكون منطقيا بريئا من كل تاثر ومن كل نزعة ولعل الحقائق التالية التى دحض بها هذه الشبهة من عنى بهذا البحث من المفكرين والتى يؤيدها الواقع والبحث العلمى التجريبى كافية فى الرد على اولئك ...

١ ــ طبيعى ان القوم الذين يضطلعون بالدعوة العالمية يجب ان تتوفر فيهم صفات تناسب عبء مهمتهم وخطورة رسالتهم من صبر وتحمل للمشاق ومخاطرة ، وشجاعة ووفاء وحرص على الشرف والسؤدد وتمرن على الهجرات والتنقلات وعدم التبرم بحياة التقشف الى غير ذلك من الصفات النبيلة . وقد اثبت التاريخ ان العربى مضرب المثل فى هذا المجال وانه ايضا يمتاز بتوقد القريحة وصفاء الذهن ورجاحة العقل ، وقوة الحجة والفصاحة والبيان ، وهى امور ضرورية لمن يقوم بنشر الرسالة العالمية .

٢ ــ اللغة العربية التى كانت اللغة الرسمية لهذه الدعوة ، فهى فى غزارة ماديتها وضروب بيانها وملاءمتها لكل مطالب الحياة وتمشيها مع التطور ما يرشحها لتكون لسان الرسالة العالمية .

٣ ــ عهدت الجزيرة العربية فى تاريخها الطويل انواعا من الرسالات ، فهود فى الاحقاب جنوب الجزيرة وصالح فى ثمود شمالى البلاد وشعيب فى مدين عند خليج العقبة ، وموسى الذى ناداه ربه بجانبى الطور على حدود الجزيرة ، وابراهيم الذى بنى البيت العتيق ...

٤ ــ كانت الاديان الموجودة فى العالم ممثلة فى بلاد العرب فى ذلك الوقت فكان فيها **اليهود والنصارى والمجوس والصابئة والوثنيون** وعبدة الجن وعبدة الملائكة الخ وجاء الاسلام الحنيف ليظهر عليها كلها ويكتسحها ، وكان انتصاره على الذين يدينون بها فى الجزيرة العربية انتصارا على كل من يدين بها خارجها .

٥ ــ للجزيرة العربية التى انبثق منها الاسلام صلاحية كبيرة لانطلاق الدعوة الى العالم اجمع لانها فىمكان وسط يتصل بآسيا وافريقيا واوروبا ، وهى القارات التى اخذت اذ ذاك حظا من النضج يؤهلها لتلقى الرسالة ..

٦ ــ فى الجزيرة العربية اول بيت وضع للناس وبناه ابراهيم ابو الانبياء ، وهو البيت العتيق التى تدين له جميع الديانات .. وبديهى ان هذه العوامل وهذه الامكانيات تساعد الجزيرة العربية على النهوض بالدعوة الاسلامية فى اطارها العالمى .. كما قدمنا ...

واذا كانت الثورة من اجل التحرر وتغير الاوضاع الفاسدة التى لا تستقر معها حياة الفرد والمجتمع ، والانطلاق نحو حياة افضل ــ من ابرز مميزات هذا العصر الذى نعيش فيه الى حد اننا نفخر بأنه عصر الثورات ، والثورات الهادفة بالنسبة الى الامم والشعوب التى تقع فيها ، بمثابة عملية تلقيح وبعث وانطلاق من جديد فى طريق الحياة ــ قلنا اذا كانت الثورة من مميزات هذا العصر فان من ابرز مميزات الاسلام عن الاديان السماوية الاخرى هو طابع الثورة ... فبينما نرى رسالات الاديان كلها تهدف الى اظهار المعبود الحقيقى وهو الخالق ونشدان الخير للانسان ، نرى الاسلام دينا ثوريا منذ بدايته وسيبقى ثوريا الى الابد ، وهذه الخاصة ــ الفعالة ــ فيه من اهم العناصر التى تجعله دينا عالميا وبالتالى تضمن له مواكبة البشرية فى مختلف مراحلها وتطوراتها ايضا .. وبنظرة عجلى من الباحث المنصف الى (العمل الجازم) الذى غير به الاسلام مجرى التاريخ فى امد وجيز تتجلى ثورية الاسلام التى جعلته ينتشر فى مختلف اصقاع الارض انتشارا مدهشا لا عهد للتاريخ به ...

وليست (ثورية) الاسلام مازعمه ومايزعمه اولئك الذين يتحدثون عن الاسلام بدافع من التعصب الدينى أو التأثر بالاهواء الخارجية مما لا يقوله العاقل فى دين شعاره (لا اكراه فى الدين) بل ثورية الاسلام تتجلى وتتمثل فى تلك الاساليب القرآنية العجيبة التى واجه بها الاسلام حالة العالم السوأى ...

لقد كان العالم وقت ميلاد الاسلام تتوزعه دولتان كبيرتان ، ظالمتان ، دولتا الفرس والرومان وامتد نفوذهما على العالم اجمع وكان شغلهما الشاغل، وهمهما الاوكد الوحيد، امتلاك الشعوب والسيطرة على مقدراتها واستغلال امكانياتها لصالح الامبراطور وطائفة من قواده وانصاره واتباعه فأصبحت ترزح تحت كابوس ثقيل من الذل والهوان ... وفى الجزيرة العربية يعيش العرب فى حالة اجتماعية وسياسية وعقائدية تفوق كل تصوير : حروب لا تنقطع بين القبائل لاتفه الاسباب ، وعادات مستحكمة فى النفوس لا اقبح منها ولا اشنع كواد البنات ولعب الميسر ، والانصاب ، والازلام وزجر الطير للنحس والسعد ... وسطوة القوى على الضعيف وعنجهية التكبر والتجبر .. فحدث عن البحر ولا حرج .. كل هذا الى اصنام تعبد ، واوثان تقدس .... ولما جاء الاسلام ووجد هذه المفاسد النكراء التى تتخبط فى حماتها البشرية والتى لا يصلح معها مجتمع — واجهها بأساليب ثائرة لا لين فيها ولاهوادة ونلاحظ هذه الثورة التى لابد منها لبعث الحياة فى الوجود فى الاساليب التى استعملها القرآن فى تغيير الوضع الذى اصابه الانهيار ، وفى طريقته للدفع بالانسانية الى الانطلاق من الاسار ، فهو يهدد **(ذرنى ومن خلقت وحيدا)** (١) وينذر **(سارهقه صعودا)** (٢) ويدعو بقطع اليدين **(تبت يدا ابى لهب وتب)** (٣) ويزجر **(كلا انه كان لاياتنا عنيدا)** (٤) ويستفهم للسخرية وينبه للقوة **(واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه فى التراب الا ساء ما حكمون)** (٥) و يستهجن عقيدتهم الجائرة فى جعل الملائكة اناثا **(وجعلو الملائكة الذين هم عند الرحمن اناثا اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسالون)** (٦) ويعرض بأخلاق المراة الجاهلة عنطريق التنويه بفضائل المراة المسلمة ومحاسنها **(محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان)** (٧) وسفه أحلام عبدة الاصنام ويؤكد عجزها المطلق الدائم فى تهكم وسخرية **(ان الذين تدعون من دن الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذونه منه ضعف الطالب والمطلوب)** (٨) ويشبه الكافرين بالانعام **(والذين كفروا يتمتعون وياكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم)** (٩)

وبهذه الاساليب الثورية واجه الاسلام عناد الكفار وتعصبهم فى الضلالة والغواية واستطاعت دعوة الاسلام فى امد وجيز ان تنشل الانسانية من وهدة الانحطاط الفكرى والعقيدى وتنقل الاجلاف العرب من هوة الصغار والضياع الى خير **امة اخرجت للناس)**

وتهدأ ثورة الاسلام عندما يخاطب المسلمين الذين شبوا على الجاهلية .. فيجمع لهم بين الشدة واللين والتأدب والتهذيب حتى **يألفوا** حياة الاسلام الجديدة ويطبعوا بطابعها ، فتراه يلفت نظرهم الى نعمة الاسلام ، نعمة تاليف القلوب وراب الصدوع ، تلك النعمة التى حولت شتات العرب فى جاهليتهم وحدة وعداوتهم فى الجاهلية مودة ، ويدعوهم الى الاعتصام بحبل الله من خطر الفرقة ، ومن التيه فى متاهات الشهوات والعداوات والحزازت ، **(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفى حفرة من النار فانقذكم منها ٠٠)** وينصحهم بالتخلى عن بقايا عاهات الجاهلية ومساويها **(يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا**

---

(١) المدثر (١٩ — ٢)

جيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيــرا منهــن ..) (ياأيها الذين آمنوا انما الخمــر والميســـر والانصـــاب والازلام رجــس مــن عمـــل الشيطــان فاجتنبـــوه لعلكم تفلحــون) ويهديهم وفق ما تتطلب الحياة من ضرورة التعاون ودوام الصفاء ونبذ الفوارق الطبقية وجعل معيار المفاضلة الطاعة والتقوى **(ياأيها الناس انا خلقنكم من ذكر وانثى وجعلنكم شعوبا وقبائل لتعارفو اناكرمكم عند الله اتقاكم)**

ونلمس هذهالثورة القرءانيةنفسهافى رائدالاسلام محمد صلى الله عليه وسلم عندما توسط عمــه أبو طالب بينه وبين المشركين فاندفع فى صــدق وايمان وفى لهجــة قويــة صارمــة وقال قولته (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقــمر فى يسارى ما تركت هذا الامر او اهلك دونه) ولما حطم بيده آخر صنم للمشركين فى الكعبــة **يوم فتح مكة هدأت ثورته ولان اسلوبه ...**

من تلك المدرســة القــرآنية الكبرى ، التى كان يعلم فيها محمد صلى الله عليه وسلم تخرجت افواج من الرجال الصادقين الذين فتحوا الدنيا وعمروها وكانوا فيها سادة العالم تدين لهم رقاب الجبابرة وتنحنى لعظمتهم هامات المتغطرسين..

وبذلك الاسلوب الحكيم فى الدعوة : ثــورة وسلم ، وشدة ولين انتصرت دعوة الاسلام ، ولو لم يحمل الاسلام هذا السلاح لمــا انتصر .. وسيظل ينتصر بثوريته وعمق ارشاده وسماحة تعاليمه ، وسيبقى المنهج القويم لتربية البشريــة وتوجهها خير توجيه الى معالم الحيــاة المثلــى

والنتيجة التى يمكن الانتهــاء اليها بعـــد هذه الملاحظات السريعة العامة انه لابد للبشرية من دين يحفظ التوازن الانسانى لكى تواصــل البشرية سيرها بنظام فى طريق الحيــاة .. وان الدين الوحيد الذى يكفل هذه المهمة هو الاســلام لانه الوحيد ــ كما قدمنــا ــ الذى يفتح ابوابه للبشرية على قدم المساوات الكاملة ، وعلــى اساس الشعور الخاص ، ويساير الحيــاة فى تجددها وتطورها فى حين ان الاديان الاخرى لم تعد لها وظيفة ايجابية فى حياة المجتمع الانسانــى لان النظم التى قامت على اساسها قد ترنحت وتداخلها تبديل وتغيير ... والواقع يشهـــد بأن المجتمع (قد انعزل عن روح المسيحية فى البلاد المسيحية نفسها وقامت اسسه علــى افكار مــاديــة محضة بعضها مستمد مــن التقاليد الرومانية القديمة وبعضها مستمد من المذاهب الفكريةالمادية الحديثة) بالاضافة الــى ان المسيحية مثلانحلة محلية جاءت تكملة لليهودية الاولى وليس هذا مجرد زعم منا يفنده الواقــع بل هو حقيقــة نص عليهــا المسيح نفســه ولقد قال (لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة) (١)

والحقيقة التى لا يمارى فيها الجاهل والمتعصب هى انه : ما من فكرة ، أو نظام ، أو مــذهب عرفتها البشرية حتى اليوم فى تنظيم العالم كوحدة انسانية وفى تنظيم المجتمع كوحدة بشــريـــة الا وفكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان اكبر منها واعظم قابلية للنمو والتجديد واقدر على التــوفيق والتنسيق بين قوى الحياة وطــاقــات الانســان وحاجات البشريــة .

وتجارب البشرية الطويلة الدائمة لطبيعــة الاســلام ، وتجاربها لطبائع الاديــان الاخــرى ولكــل مــذهب أو نظــام أو فكــرة تــؤدى دورا فى عالم الحضارة ــ هذه التجارب كفيلــة بأن تؤكد يوما بعد يوم صلاحية الاســـلام لكل زمان ومكان وعدم صلاحية تلك لقصور اهدافها عن شمول مطالب الانسانية المادية والروحيــة معا . وحاجة البشريية المتارجحة اليوم ــ الى

---

(١) انجيل متى : الاصحاح ١٥ ــ آية ٢٤ .

الاسلام — لينقذها من الهلاك ، لا تقل عن حاجتها اليه منذ اربعة عشر قرنا ...

ان الحالة التى تعيشها البشرية اليوم لا تقل سوءا وتدهورا وخطرا عن تلك الحالة التى كانت تتخبط فيها الانسانية قبل مجىء الاسلام مع اختلاف الاسباب فقط ...

بديهى ان العصر الذى نحن فيه قد فاق جميع العصور السابقة فى الرقى المادى والاكتشافات العلمية ، والاختراعات الباهرة ، حسبك أن الانسان اصبح يحقق من حين لاخر ما كان خيالا بالامس ... وجد كل شىء فى متناول يده ... يفعل ما يشاء ويختار ... كهرباء ، بخار ، غازات سامة ، غواصات ، طائرات ، صواريخ مراكب فضائية ... وجد انسان اليوم كل هذا واكثر ... ولكن فقد شيئا هو كل شىء .. فقد الشعور بالحياة ، فقد هدوء القلب ، وطمأنينة النفس وراحة الضمير ، وانفلت من الدين الصحيح لذى يشعره انه ليس ذرة تافهة تائهة فى هذا الوجود لا اصل لها ولا قرار ، وانحرف عن النظام الانسانى الذى يميزه عن الالة والحيوان فأين تلك المشاعر الانسانية الدافئة التى يستروح فى ظلها من هجير حياته الدائبة الصاخبة من اجل حياته المادية البحتة ... ؟

ولقد زار كاتب عربى امريكا منذ سنوات وشاهد الناس هناك كيف ياكلهم القلق العصبى الشامل ، القلق الفردى والعائلى والاجتماعى بالرغم من الانتاج الضخم والثراء الفاحش واللذئذ المتنوعة والمباحة ، وبالرغم من مظاهر النعمة والترف ووسائل الراحة ، وبالرغم من المرح الكثير والضحكات المتعالية فى الهواء هنا وهناك وبالرغم من الوثبات فى الطريق ... فكتب يصف حالهم تلك فى دهشة مما راى وسمع وقال عنهم بالخصوص :

(.. انهم آلات تتحرك فى جنون وسرعة وهياج لا يقر لها قرار وكثيرا ما كان يخيل الى ان الناس هناك فى طاحونة دائرة لاتنى ليل نهار .. تطن بهم ويطنون ، لا يهداون لحظة ولا يطمئنون الى انفسهم ولا الى الحياة من حولهم — ان كاكنوا يحسون ما حولهم — ليست هناك لحظة للتأمل ولا حتى للشعور بالحياة ذاتها وهى تدور ...)

اما راحة الضمير وهدوء البال ، والتجاوب النفسى ، والاهتمام بالوشائج الوثقى فى الاسرة فشىء لا وجود له فى قاموس حياة الامريكى ...

ولقد ادرك علماء النفس والطب والاجتماع خطورةهذهالحال ، التىتقود البشرية (المتحضرة) الى الضياع ، ولاحظوا فى دهشة ازدياد المصابين بالعقد النفسية والامراض العصبية ، وكثرة الانتحار ، وتفشى القلق والاضطراب سيما فى الشعوب المتحضرة ، ولقد كان فى امريكا وحدها تسعة ملايين شخص مصابين بأمراض عقلية اى بنسبة واحد فى كل ١٦ (وهذا فى احصاء سنة ١٩٥٣) والانحراف الخلقى الذى بلغ درجة مريعة لا يفتأ يزحف بالمسخ والتشويه على الانسان هناك ...

ولقد وقف المفكرون تجاه هذه الحضارة التى كانوا يتوقعون انها ستغمر الناس بالسعادة نتيجة الاكتشافات العلمية الباهرة .

اذن فالحضارة الغربية التى تمثل اليوم أرقى حضارة فى العالم ، لم تستطع ان تكفل السعادة للانسان — بدليل الواقع التجريبى — ولذا فلا بد من حضارة اخرى تأخذ بالانسان الى حياة روحية بجانب تلك الحياة المادية لكى تحفظ التوازن بين الحايتين المادية والروحية ، وفى ذلك سعادة الانسان ، واذاطغتاحداهما علىالاخرى تكدر صفوه وعجز عن القيام بالدور الحضارى الذى تتطلبه الانسانية فى هذا الوجود ، والحضارة المتكاملة هى الحضارة الاسلامية لانها حضارة جسد وروح ..

وفى هذا المعنى يقول السيد قطب فى مقال تحت هذا العنوان (المستقبل للاسلام) نشرتـــه (المسلمــون) سنــة ١٩٥٢

(... فاذا انتهت الشيوعية — ولا بـــد أن تنتهى لانها الخطوة الاخيرة فى خط سير الحضارة المادية — فان البشرية ستعود الى نوع مـــن الاعتدال والتوازن لا تجده فى روحانية المسيحية الخالية ولا فى مادية الشيوعية الجامدة ، ولكن فى فكرة وسط عن الحياة فكرة تحتضن الروحيـــة الصافية الصادقة ، وتحتضن الواقعية الماديـــة المعتدلة ، وتصوغ منها عقيدة للضمير ، ونظاما للحياة واحلاما دائمة للبشرية كلما حققت منهـــا حلما ارتفعت فى الافق الى حلم جديد ، والفكرة الوحيدة التى عرفتها البشرية وتتحقق فيها هـــذه السمات هى فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانســـان) .

ويقول المؤرخ الانكليزى الشهير (ارنولـــد توينبـــى) فى فصل (الاسلام والغرب والمستقبل) من كتابه (الحضارة فى الامتحان)

(نستطيع ان نستخلص من الاسلام مبادىء معينة قد يكون لها اذا ما طبقت فى الحيـــاة الاجتماعية عند البروليتارية العالمية الجديـــدة آثارا مستحبة هامة على المجتمع الكبير فى مستقبل قريب . هناك مصدران واضحان من مصـــادر الخطر احداهما نفسى والاخر مادى فى العلاقات الحالية بين هذه البروليتارية العالمية والعنصـــر المسيطر فى المجتمع الغربى المعاصر ، همـــا . الشعور العنصرى والمشروبات الكحوليـــة وان لروح الاسلام فى كفاح هذين الشرين فضـــلا كبيرا تؤديه ، وقد يبرهن اذا ما طبق انه يشتمل على قيم خلقية واجتماعية سامية . ان من ابـــرز ما حققه الاسلام انعدام الشعور العنصرى بيـــن المسلمين وان واقع العالم اليوم فى حاجة صارخة الى الدعوة للفضيلة الاسلامية ، ويحق لنـــا ان نرى فى روح الاسلام مددا ياتى فى ابانـــه فيفصل فى هذه القضية لصالح التسامح والسلام)

على أن هذه الفكرة ، فكرة قيام الاسلام بـــدور حضارى جديد قد تقابل بالاستخفاف او علـــى الاقل بالاستبعاد ، سيما من أولئك الذين سلبتهم الحضارة الغربية ثقتهم بأنفسهم وبأمتهم وبدينهـــم فأصبحوا يعدون حتى حماقاتها وسفاسفهـــا تقدما و (مودة) .

ونحن نقول ما قاله المفكرون الاجتماعيـــون (من أن انهيار الحضارة الغربية وانتقال الـــدور الحضارى الى الاسلام لا يتم فى عشرين سنة او نصف قرن مثلا فلقيام الحضارات وانهيارها سنن طبيعية لا تتخلف واذا بدا الخلل فى قاعدة قلعة حصينة فقد يبدوا للعيان امدا طويلا انها فى ذروة قوتها وهى مع هذا آخذة فى الانهيـــار)

بيد ان الاسلام بالرغم من عالميته وبالرغـــم من قدرته على البقـــاء — يلبى الفطرة البشرية تلبية كاملة — تواجهه خلال حياته الطويلـــة محاولات متنوعة فى الداخل والخارج لتشويهه

ان الاسلام وان كان كالحياة كلاهما دائـــم الشباب دائب الحركة مستمر النمـــو لا يعـــرف الركود ولا يصيبه هرم او تعطل لما فيه من حيوية لا تنفد ومادة لا تفنى ومن ثم فهو لا يتخلف عـــن ركب الحياة ولا يعجز عن مسايرتها مهما انتقلت من طور الى طور — تواجهه خلال حيـــاتـــه الطويلة محاولات متنوعة من الداخل والخـــارج لتشويهه والخروج به عن مفاهمه والانحـــراف بهعن طريقه ، والبعدبه عن روحه والتاريخيشهد بأن الاسلام كان عرضة لانتحال المبطلين ، وتحريف الغالين ، وتأويـــل الجاهلين ، وداخلته بـــدع وخرافات وتسربت اليه الوثنية عن طريـــق التقليد والجهـــل وفشت فيـــه — وما تزال — مفاهيم منحرفة مضطربة ومنكرات جاهلية ومن ثم كان التجديد وكان المجددون فى كل عصر للتذكير بقيمه الاساسية والكشف عن جوهره الحقيقى وايقاظ القلوب حوله ، وتخليصـــه من البـــدع

والخرافات والشوائب التى الحقت به وهو منها برئى حتىيعودالى منبعه الاصلى . وبذلك يتجدد الاسلام وتعود اليه قدرته فاذا به روح جديــد قوية تنطلق من جديد فى طريق فسيح تعطى الحياة البشرية غذاءها وتدفع بها الى الحركة واليقظة والبناء مثله فىذلك مثل (المجرى الطويل مـــن النهر حين يترك مندفعا لاتحوطه وسائل الحماية من شواطىء عالية أو سدود تحول بينه وبيــن ان يفقد مجراه الاصلى) ومن هنا كان ظهــور المجددين للفكر الاسلامى امرا ضروريا للحيلــولة بينه وبين التوقف او ترك مجراة الاصلــى .

وكانت فكرة التجديد انشودة كثير من رجـــال الفكر الاسلامى ، فى مختلف عصوره ، وبلغت العناية بها الى حد ان افردت بالتأليف والمقالات والابحاث المستفيضة ، فهذا الامام السيــوطى الذى توفى فى أوائل القرن العاشر الف منظومة فى بيان اسماء المجددين الى عصره سماهـــا (تحفة المهتدين فى بيان أسماء المجددين (ووضع كتابا فى التجديد والمجددين سماه (التنبئة بمن يبعثه اللـــه على راس كل مائة) وهذا المراغى الجرجاوى من علماء القرن الرابع عشر يكمــل منظومة السيوطى باسماء المجددين بعد عصــر السيوطى ، ويشرحها كما شرح منظومته المكملة الى الان وسماها (بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين) وجاء الاستاذ امين الخـــولى فوضع كتابه (المجددون فى الاسلام) الذى طبعه سنة ١٩٦٥ على اساس الكتابين المذكوريـــن (التنبئة للسيوطى ، والبغية للجرجاوى)

وليس من قصدنا ان نستقرئى اسماء من كتبوا قديما وحديثا فى التجديد وانما نريد فقط ان نسجل اهمية هذا الموضوع ومـــدى عنايـــة الباحثـــين به كما نريد ضمن ذلك ان نلفت النظر الى اننا لا نطمع ان نفى الموضوع حقه فى هذه العجالـــة فذلك مالا نطمح اليه لانه يتطلب وقتا متسعـــا وجهودا خاصة وانما هى لمحة خاطفة قد تنير جانبا من جوانب الموضوع ..

وما زال الحديث يؤكد ناموس التجديد للاسلام فقد قال طى الله عليه وسلم (ان الله يبعث لهذه الامة على راس كل مائة سنة من يجـــدد لهـــا دينهـــا)

وقد اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح وممن نص على صحته من المتأخرين الحافظ ابو الفضل العراقى والحافظ ابو الفضل ابن حجر فى مناقب الشافعى . أما المتقدمون فقد ذكر السيوطـــى فى كتابه (التنبئة ...) انهمجميعا لجهوا بذكرهذا الحديث .

وسواء اكانت فكرة التجديد مبكرة أم متأخرة فانها قضية معروفة خاضتها أفكار الباحثـــين واقلامهم مما يجعل المتحدث عنها اليوم فى أمـــن مـــن الحـــرج ...

ومن الحقائق البديهية التى قد يعرفها كل مـــن لـــه المـــام بتـــاريخ الاســـلام ان سلسلـــة الاصلاح والتجديد متصلة الحلقات بحيث لا توجد فترة من الزمن لم ترتفع فيها صيحة الحق تعارض التيار المنحرف ، وتكافح الفساد الشامل ، وتدعو الى تصحيح المفاهيم وتصون المجتمع من الانتكاس وتفتح نوافذ جديدة فى التفكير ، وهذه الثـــورة الضخمة وهذا الرصيد الشامخ الهائل ، الـــذى نعتز به ونفاخر الامم والاديان ، والذى يتمـــثل فى العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة ، والايمان القوى ، والسنة الخالصة ، والاخلاق القويمـــة والفقه والتشريع كل ذلك واكثر ندين به لاولئك المصلحين المجددين الذيـــن ظهـــروا فى مختلف العصور الاسلامية ، فوقفوا انفسهم لخـــدمة الاسلام على انه اصلاح للحياة ، واحكام للصلة بينه وبين قافلة الحياة حتى يشرف على سيرها .. قال صلى الله عيه وسلم (لا تزال طائفة مـــن امتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتـــى تقـــوم الســـاعة)

ولا يتسع الا مجلد لذكر كل من ساهم بجهود مخلصة فى سبيل بقاء الاسلام حيا خالدا دائم التطور ، دائم الشباب ، فاذا علمنا ان الصحابة المجتهدين بلغ عددهم ــ كما نص على ذلك الامام السيوطى ــ مائة الف واربعة عشر الف مجتهد وان كل واحد منهم قد وضع لبنة فى هذا الصرح الشامخ ، ادركنا ان استقراء المجددين فى مختلف العصور الاسلامية شىء لا يطمع فيه .

وحسبنا أن نستعرض اسماء طائفة قليلة منهم دون التعرض لتحديد عصورهم ، ودون التدخل فى مناقشة العلماء فيما اختلفوا فيه من تعدد المجددين فى كل مائة سنة ، وفى تقديم هذا على ذاك واعتبار هذا دون ذاك ...

وقد ظهر المصلحون المجددون فى القرون على الاسلام جدته وشبابه عمر بن عبد العزيز ــ الامام محمد بن ادريس الشافعى ــ ابوا العباس ابن سريج ــ أبو سهل الصعلوكى ــ أبو الحسن الاشعرى ــ القاضى الباقلانى ــ ابو نصر الماتريدى ــ ابن حزم ــ الغزالى ــ ابن تيمية ــ وغيرهم كثير ...

وقد ظهر المصلحون المجددون فى القرون الاخيرة عبر العالم الاسلامى من امثال محمد عبد الوهاب (نجد) الشوكانى (اليمن) شبلى النعمانى (الهند) البيطار (سوريا) القاسمى (دمشق) محمد بن العربى (المغرب) جمال الدين الافغانى ومحمد عبده (مصر) الطاهر بن عاشور (تونس) وعبد الحميد بن باديس (الجزائر)

وكان دعاة الاصلاح والتجديد فى هذه الفترة احد رجلين : (مفكر) يحمل القلم يصحح المفاهيم ويكشف عن جوهر الاسلام و (مصلح) يحمل لواءالاصلاح بالتوجيه ، وحفز الهمم لرد العوادى عن الاسلام وكيان المجتمع عن طريق الاقتناع والمواجهة فى النوادى والمعاهد والمساجد وفى مختلف المناسبات ...

والملحوظ ان المصلحين المجددين يواجهون فى كل عصر مقاومات وخصومات ، ويبدوا ان ما واجهه المصلحون فى الفترات الاخيرة من التاريخ اعنف واخطر ذلك لانهم بالاضافة الى خصومات العامة الذين يفضلون ابقاء الحال على ما كان عليه من ركود وجمود ، قد واجهوا مقاومات اشد واعنف من قوى الاحتلال والاستبداد التى كانت تعمل من اجل ان يظل المسلمون على مفاهيم جامدة اتصلت بدينهم من اسرائيليات ووثنيات وشبهات فلسفية وبدع وخرافات ، ... زيادة على الافكار السامة التى يبثها الفلاسفة الماديون امثال نيتشة ولوريس ، وديوى ، وفرويد وليم سميث وداروِن ، وماركس ودر كايم ... اولئك الذين لا يسلمون بوجود الروح ولا القوى الغيبية ولا يرون أن (القيم الاجتماعية العقلية والتعاليم الروحية باقية) .

ولكن بالرغم مما يلاقيه المصلحون المجددون فى طريق دعوتهم من عقبات كاداء ، وعراقيل متنوعة ، فهم المنتصرون لانهم يملكون ايمانا قويا جديدا وسموا روحيا وتفانيا فى المبادىء والعقائد ، ومستوى عقليا وعلميا بعيد الحدود ولانهم قبل كل شىء يمشون بنور الله فى الناس فكانوا اجلاء بجلال الحق اقوياء بقوة الايمان عظماء بعظمة الاسلام ...

ذلك هو الاسلام فى عالميته وتجديده، وخلوده وسيبقى عالميا ومتجددا وخالدا يحمل الشعلة للضالين فى متاهاة الحياة ، ويمد الانسان ثراء لا يغيض ، ويراقب سيره فى الحياة حتى لا ينفصل عن السماء فيتردى فى حضيض المادية المطلقة

فيصاب بالجفاف والخواء وهو فى عالميتـــه وتجدده ينتظر دوره لقيــادة الحضارة الانسانية مــن جــديــد ...

واننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبــة ــ كما قال يوما الدكتور مصطفى السبــاعى ــ لن نتخذ من الوصول الى (القمر) دليلا علـــى انكار وجود الله ، وان نتخذ من الصـــواريـــخ عابرة القارات ذريعة الـــى تهديـــد الامـــم ، والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولن نتخذ من الاذاعة وسيلة للتضليل ولا من السينمـــا آلة للاغـــراء ولا من المراة متعة للجسم ولا من التقدم الحضارى اداة لاستغلال الشعوب المتخلفة واستثمار خيراتها واذلال كرامتها ...

بل لنحقق للانسان قسطا كبيرا من الامـــن والطمانينة والحياة الانسانية المستقرة

محمد الصالح الصديق

مــراجع البحث

الطبقات الكبــرى لمحمد بن سعد

الامـــم والـــرسالة للشافعى

المحلـــى لابن حـــزم

تاريـــخ الخلفـــاء للسيوطى

اعـــلام المـــوقعـــين ابن القيم

القيم الاســـاسيـــة انور الجندى

المجددون فى الاسلام امين الخولـــى

التنبئية بمن بعثه الله على راس كل مائة السيوطى

مجلة (المسلمون) العدد ــ ١٠ ١٩٥٣

عددان من (منبر الاسلام) ١ ١٩٦٦/٥ ١٩٦٤

المنتقـــى فى التـــربية ج السادس (م) محمـــد الصـــالـــح الصـــديـــق





المجابهات الثقافية

في الجزائر المستعمرة

من 1830 إلى 1880

تأليف : د. تورين

تقديم : بوعمران الشيخ

استاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر

كان الاستاذ مولاى بلحسين قد تولى تقديم هذا الكتاب فى العدد السابق وصادف أن تناول نفس هذا الكتاب الاستاذ الشيخ بوعمران ، ونحن ننشر تقديم الاستاذ بوعمران لنفس الكتاب لانه تناوله من زاوية مختلفة .

موضوع هذا الكتاب هو المجابهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة وخاصة فى المدارس والطب والدين ويشمل فترة خمسين سنة من ١٨٣٠ الى ١٨٨٠ الفته الاستاذة « ايفون تورين » التى تدرس التاريخ فى جامعة الجزائر وكانت تدرس سابقا فى جامعة الرباط وجامعة باريس وقد اهتمت كثيرا بالمغرب العربى فى عهد الاحتلال ولها مؤلفات كثيرة — ويمتاز البحث باعتماده على وثائق هامة كانت سرية قبل اليوم واصبحت الان فى متناول الدارسين ، قسم منها بباريس وقسم آخر بمدينة ايكس .
غير ان هذه الوثائق كلها من مصادر فرنسية وينبغى ان تقارن بمصادر جزائرية واجنبية لنختبرها اختبارا علميا موضوعيا ومهما كان من الامر فان هذا الكتاب اتى بمعلومات مفيدة جمعتها الاستاذة ورتبتها بعد جهد كبير وصبر طويل والقى بحثها اضواء جديدة على وقائع كنا نعرفها جملة وعلى احداث يقصر المامنا بها على جوانب هامشية ، وحاولت ان تشرح مواقف كل من المستعمرين ومن الوطنيين ووضعت صراعهم الطويل فى ظروفه التاريخية ، ونعرض هنا باختصار وضعية التعليم والثقافة فى بداية الاحتلال ثم استعمال الطب لاغراض سياسية واخير المجابهات التى قامت فى هذه المجالات .

١ — وضعية التعليم والثقافة فى بداية الاحتلال

بين الكتاب ان المدارس والمؤسسات الثقافية كانت منتشرة فى كافة انحاء الوطن وان مستوى التعليم العام فى بلادنا لم يختلف عما كان عليه فى المدارس الفرنسية . وذلك باعتراف « دوماس » (ص ١٢٧) ووردت فى البحث ارقام واشارات مبعثرة هنا وهناك نرتبها حسب المدن والمناطق فيما يلى :

* **عنابة** — المدارس : ٣٩ ، المساجد : ٣٧ ، الزوايا : زاوية سيدى بن عبد الرحمن وزاوية سيدى عبد القادر ، بعد الاحتلال لم يبق الا ٣ مدارس و ١٥ مسجدا (ص ١٣٤) .

* **قسنطينة** — المدارس ٨٠ المعاهد ٧ المساجد : ٣٥ ، فى المنطقة : ٣٠٠ مدرسة وزاوية شطابة ، وبعد الاحتلال بقيت ٣٠ مدرسة (ص ١٣٥) .

* **تيزى وزو** — عدد غير محدد من المدارس والزوايا يتردد عليها تلاميذ وطلبة كثيرون (ص ١٣١)

* **العاصمة** — المدارس : ٢٤ ، فى المنطقة : ٢٩٩ مدرسة و ٥٥٨٣ تلميذا (ص ٢٤٣)

* **مازونة** — معهد للدراسات الفقهية مشهور يأتيه الطلبة من عدة جهات (ص ٢٤٨)

* **وهران** — مدرسة الشريعة (ص ٢٢٠)

* **تلمسان** — المدارس : ٥٠ ، المعاهد : ٣ ، الزوايا : ٣٠ ، فى المدينة ٢٠٠٠ تلميذ و ٦٠٠ طالب ونظام داخلى فى المعاهد يحتوى التدريس فى المرحلة الاولى على الكتابة والقراءة والنحو والحساب والقرآن ، وفى المعاهد والمساجد يدرس الادب والتاريخ والفقه والتوحيد .

والجدير بالذكر ان الدولة لم تنفق على المؤسسات ولم تخصص لها ميزانية وانما كانت الاوقاف تتولى ذلك ، وكان رجال التعليم والثقافة يتمتعون بمكانة ممتازة فى المجتمع (ص ٨٣) وتذكر المصادر ان العلاقات بينهم وبين البلاد العربية كانت متواصلة ، وكان الطلبة يذهبون الى تونس والمغرب الاقصى والى المشرق ليستكملوا تعليمهم (ص ١٢٢ — ١٢٩) وبعد التحصيل فى المدارس والمعاهد كانوا يشتغلون فى الوظائف المختلفة ، الامر الذى لم يتحقق فى عهد الاحتلال .

٢ ــ سياسة الاستعمار الثقافية :

تتلخص اهداف هذه السياسة فى القضاء على الثقافة الوطنية ونشر التعليم الفرنسى مكانها ، وكان الغرض من هذا التعليم ان يتحول المجتمع الجزائرى تحويلا كليا يجعله يخدم مصالح المستعمر (ص ٧٣) ، ولهذا انتهجت السلطة الفرنسية سياسة ــ الاندماج ــ

وارتأت ان التعليم هو احسن وسيلة لتحقيق تلك السياسة ، وارادت أن تزيل « الافكار المتخلفة » المتفشية بين الاهالى ومعنى هذا القضاء على ثقافتهم ولغتهم وشخصيتهم ــ وهكذا تتمكن الدولة المحتلة من السيطرة على الوضع ويتركز نفوذها فى البلاد ، وفى النهاية ــ يتقبل السكان النظام الجديد ويرضون به ولا سيما فى المدن (ص١٦٤) وجاء فى تقرير احد المسؤولين « ان بناء مدرسة افضل من فيلقين لاقرار الامن » (ص ١٦٥) .

وتخيل للمستعمرين أن التعليم يستطيع مزج العناصر البشرية المختلفة بفضل اختلاط الاطفال فى المدارس وبهذه الصورة تتكون وحدة شاملة من شعبين متضادين (ص ٢١٣) وبدا العمل على تطبيق هذه السياسة فى مراحل تضمن لها النجاح وتجعل الاهالى لايتفطنون الى ابعادها وتنحصر المرحلة الاولى فى مراقبة التعليم الاصلى ومؤسساته ورجاله مع محاولة « توجيهية » نحو اغراض المستعمر ، والتدريج ضرورى حتى لايثار « التعصب » والمفهوم من هذه الكلمة ان السلطة الاجنبية كانت تخشى معارضة الشعب لخطتها (ص ٧٢) ، وبعدما تبين لها انه لايمكن اقناع الكبار بنزاهتها صرفت جهودها نحو الاطفال الصغار ليتلقنوا التعليم الفرنسى ويتقربوا من الذين حملوا اليهم « الحضارة » (ص ٧١) وهكذا شرعت المدارس الرسمية فى بث الدعاية الاستعمارية ، وعلى سبيل المثال ننقل هنا «حكمة» وردت فى كتاب مدرسى للاخلاق يقول : « ان الرجل الحر من بين كافة الناس هو الذى يستطيع ان يبقى حرا حتى فى حالة الرق » (ص ٦٤) وهكذا أصبح التعليم يحاول عبثاتبرير الاحتلال والاستبداد

اما المرحلة الثانية فتتلخص فى الاستيلاء على التعليم الوطنى وانشاء تعليم رسمى يقوم مكانه ويحقق للمستعمر تنفيذ سياسته مباشرة ، وبرزت هذه السياسة فى مصادرة « الاوقاف » التى كانت تمول المدارس والمساجد والزوايا وتنفق على المعلمين والطلبة . وقد تم ذلك سنة ١٨٤٣ وكانت النتيجة الحتمية اغلاق الكثير من المدارس والمعاهد وتفقير رجال التربية والثقافة وتشريدهم واهمال التعليم العربى (ص ٢٢٣) ، ولم تكتف السلطة الاستعمارية بذلك فضايقت المعلمين واضطهدتهم لانهم كانوا يحرضون على محاربتها فقررت وزارة الحرب الفرنسية مراجعة المؤهلات العلمية ونظمت « اختبارات » جديدة فرضتها على رجال التعليم لتمنع الكثير منهم من التدريس بدعوى انهم «مشبوهون» (ص ٢٠٨) وطردت «الاجانب» منهم وخاصة المغاربة والتونسيين (ص ١٩٢)ــ وادى الاضطهاد بالكثير من أهل العلم والثقافة الى مغادرة الوطن فتفرقوا على البلاد العربية (ص ١٢٩) واغلقت جل المدارس والمساجد والزوايا او حولت الى اغراض اخرى وقد اعترف « الدوك دومال » ــ الوالى العام ــ بذلك فى تقرير له قائلا : « قد تركزنا فى الجزائر واستولينا على المعاهد وحولناها الى دكاكين او ثكنات او مرابط للخيل واستحوذنا على اوقاف المساجد والمعاهد » (ص ١١٩)

وعندما اتضح أن استخدام التعليم الوطنى لصالح المستعمر اصبح غير ممكن عولت السلطة على احداث مدارس خاصة بها وشرعت فى بناء «المدارس العربية ــ الفرنسية » (ص ٢١٣) هادفة الى تنفيذ سياستها الاستبدادية مستعملة المدرسة والدين كوسيلة لذلك وقد وردت هذه الفكرة فى تقرير رسمى الذى قال : « ان المدارس والدين يستنموان تحت حمايتنا فى صالح حكمنا »

(ص ٢١٨) ، وكان المنتظر من بناء المدارس « تدعيم السلم » بفضل التعليم باللغتين العربية والفرنسية (ص ٢٥١) غير أن الاولوية كانت للفرنسية كما يظهر ذلك من خلال البرامج (ص ٧٦)التى ركزت على نشر الفرنسية على نطاق واسع ذلك على حساب العربية التى رات السلطة انها ليست صالحة لكسب العيش ونيل الوظائف ، الامر الذى قلل من شأنها فى نظر الناس ووضعة السلطة كتبا مدرسية بالعربية لتوجيه « التعليم العربى توجيها يناسب اغراض المستعمر وقام بتأليف هذه الكتب عدد من المستشرقين (ص ١٠٢) الذين نقلوا ايضا بعض الاثار العربية الى الفرنسية قصد التفاهم والحوار بين الثقافيين ونذكر منهم « سولفى » «وبروسلار» و « شربونو » «وبرسنية» و « بوسية » واهتمت السلطة

بأبناء « الاعيان » من الاهالى ففتحت لهم معهدا خاصا بمدينة باريس ليقوم بتعليمهم واعدادهم لمهام سياسية ولكن المقصود من ذلك كان الضغط على « الاعيان » اذا فكروا فى التمرد على الحكم الاجنبى ، غير أن الغرض لم يتحقق لان « الاعيان» لم يثقوا بنية المستعمر ، ففشل المشروع واغلق المعهد البارسى (ص ٦٩) .

ومن ناحية اخرى قررت السلطة حصر التعليم فى نطاق ضيق لانها كانت تخشى انتشار الثقافة وتعميم التعليم وما قد ينجم عن ذلك من نتائج سياسية ، فمنعت الجزائريين من الالتحاق بالمعاهد الجامعية حين تذكرت أن يوغورطة نشأ فى المعاهد الرومانية ولم ترض السلطة المحتلة ان يتخرج ثوار مثل يوغورطة من معاهدها (ص ٧٥) واكتفت باحداث ثلاث « مدارس » رسمية فى قسنطينة والجزائر وتلمسان يتعلم فيها عدد قليل من الطلبة الجزائريين اللغتين العربية والفرنسية ويعدون لبعض الوظائف الاهلية التى تحتاج اليها الادارة الاستعمارية ــ ولهذه المدارس

الثلاث غرض آخر وهو منافسة الزوايا التى كانت تقاوم السياسة الاجنبية (ص ١٨٥) اما المدارس الابتدائية فكانت تعمل على نشر تعاليم لاتتفق طبعا مع التقاليد الوطنية ، مثلا فى تعليم الاخلاق اعتمد الكتاب المدرسى على الانجيل ! (ص ٢٦٠) ومع ذلك كله حاول رجال التعليم « فى المدارس العربية ــ الفرنسية » أن يقربوا بين الاطفال الجزائريين والاوربيين ولكن الاباء لم يوافقوا ، فطالب المعمرون بمدارس خاصة بهم وعارضوا تعليم الاهالى (ص ٢٩٥) ورفض الجزائريون سياسة « التقرب » ففشلت المحاولة وضعفت المدارس العربية الفرنسية ثم اغلقت حوالى ١٨٨٠ وخلفها نظام جديد مبنى على التميز العنصرى وفصل تعليم الاهالى على التعليم الاوربى .

٣ ــ الطب وسيلة سياسة

ومن ناحية اخرى حاول المستعمر ان يستعمل الطب كوسيلة سياسية ، انه تفهم أن ليس له تفرق اخلاقى على الاهالى الدين كانت لهم حضارتهم فأراد أن يثبت تفوقه فى المجال العلمى (ص ٥٨)، فركز جهوده على نشر الطب مستهدفا كسب الراى العام والتقرب من السكان (ص ٣٢١) تلك الخطة التى فمثل فيها فى المجال الثقافى والتعليمى (ص ٣٠٧) وكانت الظروف مناسبة لان الشعب كان لا يعرف الطب الحديث وكان يعتمد على التقاليد فقط وعلى التوكل (ص ٨٦ و ١٤٦) ، ولم يدرك المستعمر أن الاهالى لم يثقوا بعمله وتقدمه وفضلوا تحمل الامراض والمشاق على استعمال الطب الاجنبى الذى كان يرمى الى اغراض سياسية واضحة .

فلجات السلطة الى العنف وفرضت العلاج بالقوة ، الامر الذى جعل صاحبة الكتاب تتساءل فى نجاعة تلك الطريقة ــ اما السكان فحاربوا الطب الاستعمارى كما حاربوا التعليم الاجنبى ، فوقع صراع كبير بين الاطباء والحكام الفرنسيين من ناحية وبين الاهالى وقادة المقاومة الوطنية من

ناحية اخرى واتخذ هذا الصراع شكل « الحرب النفسية » التى اشتهرت فى عصرنا وخاصة اثناء حرب التحرير (ص ٣٥١) .

٤ ـ المجابهات والمقاومة الوطنية

قد ادعى المستعمر بانه جاء « ليمدن » البلاد وزعم انه صاحب « رسالة حضارية » ولكن الاهالى لم يغتروا بهذا الستار المزيف وادركوا اغراض المحتل الذى كان يريد السلطة من اجل استغلال ثروات الوطن وتسخير السكان الى تحقيق مصالحه ، فكانت المجابهات والمقاومة حتمية وطبيعية ، وفى رأى الاستعمار لم يكن الشعب الجزائرى الا شعبا « همجيا » لايستحق السيادة والاحترام يجب « تمدينه » (ص ٨٣) ، وبطبيعة الحال لم يرض شعبنا بفلسفة الاستبداد ورفضها رفضا باتا وقاومها بكل مالديه من قوة وقد اكتسبت المقاومة الوطنية اشكالا متنوعة لم يذكر الكتاب منها سوى « المجابهات الثقافية » واشار فقط الى الثورات المسلحة وخاصة الى ثورة ١٨٦٤ وثورة ١٨٧١ ، ولم يدرس كافة اسباب الفشل الاستعمارى وانما لاحظ عابرا التناقض القائم بين سياسة « التقرب » من المواطنين والاستيلاء على اراضيهم (ص ٢٠٠)

بدات المقاومة بمحاربة المدارس الرسمية وخطة الاستعمار الثقافية ولعب رجال التعليم والعلم والثقافة دورا كبيرا فى ذلك وقد اعترف العدو بنفوذهم ، فحرضوا الشعب على رفض سياسة « الاندماج » وبينوا للمواطنين اهدافها وخطورتها وجعلوا من كل مدرسة جزائرية وكل مسجد وكل زاوية مركزا محصنا لمحاربة العدو ، وعملوا على توحيد الصفوف ونسقوا الجهود والاراء حتىاصبح المستعمر يتساءل فىسر الوحدة الشعبية القوية بدون ان يلتمس اسبابها الحقيقية واستشهد الكتاب بتقارير ومراسلات ومؤلفات كثيرة تدل على تلك الروح الوطنية ــ فذكر الضابط « دونوفو » فى كتابه « الاخوان » فعالية الحركة القومية فقال « وبسبب سذاجة المواطنين قد اثر فيهم رجال جاءوهم باسم دينهم وباسم الله وباسم محمد يحرضونهم على الثورة والتخلى عن المحراث ــ فى حين اننا اصبحنا مضطرين الى استعمال القوة لحمل الاهالى على الامتثال لارائنا ولاقناعهم باننا نريد مصلحتهم » (ص ١١٥)ــ وشبت « حرب المدارس » بين العدو والسكان وتنافست الثقافتان ــ فاضحى الحوار مستحيلا بينهما ــ وهنا نختلف مع المؤلفة التى تقول بأن السلطة احترمتثقافة الشعب المحتل وتقاليده ، فان من طبيعة الاستعمار ان يحتقر الامة المغلوبة وأن يتنكر لحضارتها وشخصيتها ، ولا يعتمد الا على قوة السلاح ، اما الشعب المسيطر عليه فانه لا يقبل الدعاية الاجنبية ولا يرضى باحتلال وطنه واستغلال خيراته ــ وانتهى البحث باعترافخفق السياسة الاستعمارية التىلم تنجحفىايجاد «طريقة للشروع فى الحوار وقد ذكر « ماك ماهون » ان « البلاد قدتم احتلالها ولكنها غير خاضعة » ويلاحظ كذلك ان الكتاب لم يعترض للمجابهات الثقافية الاخرى منها حركة الكنيسة التبشيريةالتى ساندت الاحتلال ، ومنها حركة الكتاب والمؤرخين المستعمرين الذين كان لهم شأن فى تدعيمالاستعمار مثل « لويس فويو » وغيره .

ونعتقد أن هذين الموضوعين يستحقان البحث ونامل ان يقوم به الدارسون ، وعلى الرغم من ملاحظاتنا على الكتاب فاننا نعتبره منأهم ما صدر اثناء سنة ١٩٧١ ، فبين الصراع الثقافى والايدولوجى المرير الذى لم ينته الا بتحقيق استقلال الوطن بعد ثورات عديدة متواصلة الحلقات ، ولذا عرفنا القراء به ليستفيدوا منه ويتاملوه .

ابو عمران الشيخ

كلية الاداب الجزائر

التعريف بتراثنا المخطوط

إعداد : رابح بونار

على بن أبى الرجال التاهرتي القيرواني

حياته : ابن ابى الرجال هو على بن ابى الرجال الشيبانى يكنى ابا الحسن وينسب الى القيروان وان لم يكن منها بل هو من مدينة تاهرت بالقطر الجزائرى كان عالما رياضيا فلكيا منجما واديبا شاعرا نشا فى قرطبة على ما يرجح ، وعاش مدة فى بلاط المعز بن باديس بتونس ومات بها بعد سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) كما جاء فى الدائرة والارجح انه مات حوالى سنة ٤٢٥ هـ .

كان ابو الحسن هذا كافلا للمعز قبل ولايتـــه الملك ثم وزيرا له بعد ان تولى ملك بنى زيرى ، وكانت منزلته لديه سامية ، ونفوذه فى البلاط عظيما فتقرب اليه الادباء والعلماء وقد اهدى اليه ابـــن رشيق كتابه العمدة كما اهدى اليه ابـــن شرف كتابه ((رسائل الانتقاد)) وقال فيـــه الاول فى عمدته : اما بعد فان احق من جنى ثمر الالباب ، واقتطف زهر الآداب ، منتزها فى عقول الحكماء متفكها فى اقاويل العلماء كالسيد الامجد ، والفذ الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وآبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب ابى الحسن على بن ابى الرجال الكاتب ، زعيم الكرم وواحد الفهم الذى نال الرياسة وانفرد بالبسط والقبض واتحد فى الابرام والنقض ، عن سعى مشكور ، وفضل مشهور وعلم بالموارد والمصادر ، ونظر فى الاوائل والاواخر وتشبع لآثار من سلف من اهل القدر والشرف ، وتقلب فى مجالس الحكم ، بين ذوى الاقدار والهمم ، الى ان صار نسيـــج وحده ، وقريع دهره غير مدافع عن ذلك ، ولا منازع فيـــه .

وذكر ابن رشيق عنه انه : ((اقام سوق العلم والادب ، وجعل ذكره باقيا وجده ساميا ، وايده من النصر والتوفيق ، بما فيه رضا الخالق والمخلوق فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ...)) علمـــه .

عرف الاوربيون المترجم بآثاره كما تقول الدائرة ولا سيما كتابه « البارع فى احكام النجوم » وقد

نقله الى الاسبانية ، يهوذا بن موسى سنة ١٢٥٦ م ثم نقله من الاسبانية الى اللاتينية بطرس الرجوى وايجيديوس التبالدى فطبعت ترجمته عدة مرات منذ طبعتها الاولى بالبندقية سنة ١٣٨٥ م ، ومن هنا جاء تصحيف ابن ابى الرجال هكذا : وتصحيف كنيته ابى الحسن هكذا :

ومن آثاره العلمية على ما جاء فى دائرة المعارف

١) أرجوزة فى الاحكام الفلكية ، طبعت فى آخر كتاب كفاية الطالب فى الاحكام الفلكية لغزال الموسى وشرحها أحمد بن الحسن بن القنفذ القسنطينى سنة ١٣٧٣ هـ ، ولعل ابا الحسن هذا هو الذى اعان ابا سهل الكوفى فى الارصاد الفلكية التى أجريت فى بغداد سنة ٩٨٨ م .

وهذه هى الصورة العلمية لابى الحسن ، واما صورته الادبية فقد تكفل بتشخيصها ابن رشيق فى عمدته وقد روى لنا عنه مقطوعات شعرية يمكن دراسة شخصيته من خلال أبياتها .

كان أبو الحسن شاعرا لطيف الوجدان ، جيد الاسلوب صادق العاطفة انشأ وهو بتاهرت سنة ٤٠٥ هـ مقطوعة فى تصوير شوقه ، والتعبير عن حنينه لاهله يقول فيها :

ولى كبد مكلومة من فراقكم
اطامنها صبرا على ما اجنت
تمنتكم شوقا اليكم وصبوة
عسى الله ان يدنى لها ما تمنت
وعينى جفاها النوم واعتادها البكا
اذا عن ذكر القيروان استهلت

وعلق ابن رشيق عليها بقوله : لو ان اعرابيا تذكر نجدا فحن به الى الوطن ، أو تشوق فيه الى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما اتى به هذا الحضرى المتاخر العصر ، وما انحط بهذا التمييز ، ولا اتنفق بهذا القول عند مولاى ولا الخديعة مما تظن به ولا فيه ، ولكن رايت وجه الحق فعرفته ، والحق لا يتلثم . .

فى الوصف :

ويقول أبو الحسن فى وصف بلاغة احد الكتاب وجودة خطه :

١) فضل الانام بفضل علم واسع
وعلا مقالهم بفضل المنطق
٢) وحكى لناوشى الرياض وقد وشت
اقلامه بالنقش بطن المهرق

وقال ايضا فى آخر :

١) اذا نقشت يمناك فى الطرس اسطرا
حكيت بها وشى الملاء المنضد
٢) يروق مجيد الخط حسن حروفها

ويعجب منهـــا بالمقـال المســـد

وقال ايضا فى الاصطباح بالخمرة وتعاطى لذات الحياة قبل هجوم المنية (١) :

باكر الراح ودع عنــك العــذل
واسع فى الصحة من قبل العلــل
واغتنــم لــذة يــوم عاجــل
فالمنايــا ضاحكــات بالامــل
ما تــرى الساقى كشمس طلعت
تحمل المريخ فى بــرج الحمــل
مائسا كالغصن فى دعــص نقــا
فاتــن المقلــة زينت بالكحــل

فى الغـــزل :

وانشا ابو الحسن فى الغزل مقطوعات جيدة وهى رغم ماديتها نجد فيها نفسا روحيا رقيقــا ومعانى لطيفة ومنها قوله :

خليلى ان لم تساعدانى فاقصرا
فليس يداوى بالعتــاب المتيــم
تريدان منى النسك فى غير حينــه
وغصنى ريــان وراسى اسحــم

وقال من مقطوعة يتغزل فيها بفتاة حضريــة وهى كما يقول ابن رشيق ذات طبع رقيق ومعانى رقيقة مؤثرة فى النفس والقلب :

١) غراء واضحة ينوس بقرطهــا
جيد حكى جيد الغــزال الاعنــق
٢) صدت فاغرت بالسجوم مدامعى
والعين تذرف بالدمــوع السبــق
٣) تشكو البعاد اذا بعدت تصبــرا
وان ارتجعت الى الزيــارة تفــرق
٤) ولقد يبيت اخو المــودة لائمــى
فى حبهــا لــوم الشفيــق المشفــق
٥) حتى اذا طلعت فابصر شخصها
اخزى جهالــة لائمــى المستحمــق
٦) كم قطعت بوصلهــا مــن ليلــة
وبشرب صــافية كلــون الزئبــق
٧) يسعى بها كالبدر ليلــة تمــه
سحار الحــاظ رخيــم المنطــق
٨) آليت اترك ذا وتلك وهـــذه
حتى يفــارقنى ســواد المنطــق

فى الشكوى من الدهر واهله :

وحينما تنكر الدهر له تضجر وتالم وسخط على معاصريه وعصره فقال شاكيا داعيا الــى الزهد والمثاب :

١) امس الزمان زمانــة العقــل
فاخش الالــه وحــل عن الجهــل
٢) واعلم بان فى الحســاب غــدا
تجزى بما قــدمت مــن فعــل

وقال ايضــا :

١) ايارب ان الناس لا ينصفوننى
ولم يحسنــوا قرضى عــلى حسناتى
٢) اذا ما راونى فى رخــاء ترددوا
الى واعــدائى لــدى الازمــات
٣) ومهما اكن فى نعمة حزنوا لهــا
ذوو انفــس فى شــدة جــذلات
٤) ثقاتى ما دامت صلاتى لديهــم
وان عنهــم اخرتهــا فعداتــى
٥) سامنع قلبى ان يحــن اليهــم
واصرف عنهــم قاليــا لحظاتــى
٦) والزم نفسى الصبر ابــا لعلنى
اعايــش ما املت قبــل مماتــى
٧) الا انما الدنيا كفــاف وصحــة
وامن ثــلاث هــن طيب حياتــى

فى الفخر بقبيلته : وقال يفخر بقبيلته شيبان ، ويشيد بأمجادها منذ القديم :

١) يا آل شيبان لا نحارث نجومكم

ولا خبت ناركم من بعد توقيد

٢) انتم دعائم هذا الملك مذ ركضت

قبل الخيول لابرام وتوكيد

٣) سيوفكم افقدت كسرى مرازبه

فى يوم ذى قار اذ جاؤوا لموعود

فى العتاب والهجاء : ويعتب على بعض اصدقائه فيلومه لوما خفيفا وقديهجوه ولكن هجوه لا يتعدى النقد البرىء فيقول :

١) وابنى لاطرى كل خل صحبته

وانت ترى شتمى بغير حياء ؟

٢) ستعلم يوما ما اسات لصاحب

بكرم اخلاقى وحسن وفائى

هذه نبذة عن ترجمة ابن ابى الرجال تقدم الينا صورة موجزة عن حياته الادبية اللامعة ، وهناك وجه آخر لابن ابى الرجال قد امتاز به فى بلاط القيروان عن معاصريه وهو جانبه العلمى الذى تفوق به على معاصريه هناك ، وقد اشرنا فى مطلع هذه الترجمة الى ان المترجم كان عالما باحثا فى النجوم ، وقد ترك لنا فى الموضوع كتابا جليلا هو كتاب البارع فى احكام النجوم الذى ترجم الى عدة لغات ، واعتبر تراثا جليلا انتجته عبقرية مغربية فى العصر الوسيط .

والكتاب توجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية تحت رقم ١٥١٦ خطها شرقى جميل ، ومسطرتها ٢٩ سطرا ، وحجمها ١٩٠ / ٢٦٠ ملم .

ونجد فى الصفحة الاولى من النسخة نص تحبيس محمد بن حسن خوجة لها على اولاده ثم على جامع كيتشاوة بتاريخ اواسط جمادى الثانية لعام ١٢٣٩ هـ . والمؤلف يقول فى مقدمة كتابه : هذا كتاب جمعت فيه من معانى فى علم النجوم ، وغرائب اسوارها ، واخترته من علوم علمائها ، واضفت اليه تجربتى ، وان كانت النجوم اكثر واعظم من أن يحاط بها ، او يقدر العالم على ايضاح جميعها . ثم اخذ يذكر اقسام الكتاب وابوابه فى ترتيب منطقى ، وبأسلوب أدبى خفيف .

والكتاب يعتبر من ذخائر تراثنا الفكرى تزدان به مكتبتنا ، وتسمو به أصالتنا فى مجال الابداع العلمى والحضارى .

ولاشك ان هذا سيحفزنا على أن نولى هذا الكتاب ما يستحقه من عناية واهتمام ونحن فى فترة احياء تراثنا الوطنى والعمل على اعادة المقومات الاساسية لشخصيتنا واصالتنا .

(١) دائرة المعارف لفؤاد افرام البستانى ج ٣ ص ٣١٠ . ــ العمدة لابن رشيق ط ٢ مصر سنة ١٩٥٥ ج ١ ص ١٥
(٢) المنتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ . (٢) العمدة ج ١ ص ٤٤ .
(٣) العمدة ج ٢ ص ١١٠ .

• النشـــاط الثقافى •

من نشاط وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

شهدت مساجد البلاد كلها الانطلاقة الثانية لمكافحة الامية ومحاربة الجهل فى بداية السنة الدراسية الجارية ، كما شهدت مؤسسات التعليم الاصلى نشاطا كبيرا يتناسب ومسؤلية هذه المؤسسات فى نشر الثقافة القومية والوعى الدينى الصحيح ، وحتى تاتى هذه المجهودات بثمارها المرجوة منها والتى ينتظرها كل مواطن مخلص لدينه ووطنه وعملا بسياسة المتابعة والاتصال المباشر نظمت الوزارة سلسلة من الجولات حسب المخطط الاتى :

١) القطاع الغربى :

قام السيد مدير التعليم الاصلى ونائب مدير الشؤون الدينية بزيارة لهذا القطاع دامت اسبوعا كاملا اطلعا خلالها على سير عملية محو الامية فى المساجد وعلى الرغم من ان هذه العملية تسير سيرا حسنا الا انهما قدما بعض الملاحظات التى من شانها ان تضمن فاعلية اكبر حتى تاتى هذه الحملة بالنتائج الايجابية المرجوة منها .

كما زارا مؤسسات التعليم الاصلى العامة والتى فى طور البناء فى كل من وهران وسيدى بلعباس ومستغانم ، ومعسكر ، وتلمسان والاصنام ، وقد عقدت جلسات عمل مع السادة مديرى هذه المؤسسات درست خلالها مختلف اوجه النشاط الادارى والتربوى كما قدمت لهم التوجيهات فى كيفية سير الدروس ونشاط التلامذة حسب الاساليب التربوية الحديثة ، كما ابرز الدور الهام الملقى على المدير من الجانبين الادارى والتربوى ،

القطاع الصحراوى :

وفى هذا النطاق قام السيد مدير التعليم الاصلى ونائبه بزيارة ولاية الساورة اتصلا خلالها بالسيد مفتش التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالولاية فى بشار فتدارسا معه الحالة الدينية بالجهة ونشاط الائمة فى حملة محو الامية واوجه النشاط الدينى الاخرى ، وقاما بزيارة الى مقر الولاية فعقدا خلالها جلسة عمل مع السيدين رئيس الديوان ، ورئيس دائرة ادرار ، كما زارا خلالها ثانويتى التعليم الاصلى بادرار العاملة منها والتى هى فى طريق البناء ، وقد عقدا اجتماعا مع السيد مدير الثانوية استعرضا خلاله مختلف اوجه نشاط هذه الثانوية والصعوبات التى تواجهها وتحد من نشاطها ، ووضع الحلول التى يمكن ان تقضى على هذه الصعوبات .

٢) القطاع الشـــرقى :

ولاية القبائل الكبرى : بناء على ما تقرر فى الاجتماع الاخير لمفتشى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية من احصاء الزوايا لتى تعلم وتطويرها وادخال التحسينات على برامجها وعلى سيرها حتى تتماشى مع العصر قام وفد من الوزارة بزيارة ولاية تيزى وزو طاف خلالها على جميع الزوايا التى تضم عددا كبيرا من طلبة القرآن الكريم ، وقد لاحظ هذا الوفد كثرة الاقبال على هذه الزوايا من مختلف نواحى البلاد لما عرف عنها من تحفيظ كتاب الله الكريم وحلقات الدروس فى العلوم الشرعية واللغوية ومما ياسف له ان اغلب هذه الزوايا ما تزال تتبع

الطرق العتيقة فى التعليم ولهذا فهى فى اشد الحاجة الى تجديدها وبعث الحياة فيها واعطائها حقنة من الدماء التى تمنها من مواصلة السير لانها المنبع الاول والاصيل لامدد الحياة الدينية بالاطار الكفء وقد اغتنم الوفد هذه الفرصة فزار مؤسسات التعليم الاصلى فى هذه الولاية ، كما عقد جلسة عمل مع السيد الوالى ومحافظ الحزب ورئيس مجلس الولاية نوقشت فيها مختلف القضايا التى تهم وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى المنطقة .

الدورة التدريبية الخاصة لمكافحة الامية :

نظرا للاهمية القصوى التى تعقد على دور المسجد فى مكافحة الامية فقد نظمت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالتعاون مع المركز الوطنى لمحو الامية دورة تدريبية خاصة دامت ١٥ يوما لاربعين اماما ينتمون الى ولايات : الجزائر الاصنام ، المدية ، القبائل الكبرى لاطلاعهم على افضل الطرق واحدث الاساليب لتعليم الكبار .

وتعتبر هذه الدورة الثانية بعد الدورة الاولى التى وقعت فى السنة الماضية بوهران كما ستتلوها دورة ثالثة فى السنة القادمة بمدينة قسنطينة .

وقد اشرف على افتتاح هذه الدورة كل من السادة مدير التكوين فى وزارة التعليم الابتدائى والثانوى والسيد مدير المكز الوطنى لمكافحة الامية والسيد نائب مدير الشؤون الدينية ، وقد القى الاخوة الثالثة كلمات اكدوا فيها على دور الامام فى الحملة الوطنية لمحو الامية خاصة وأن المسجد موجود فى كل مدينة وكل قرية .

ـ قام السيد مدير الشؤون الدينية ، والسيد المفتش المركزى بالنيابة بتنصيب السيد بلقاسم كحلة ، الاستاذ سابقا بوزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، مفتشا لولاية قسنطينة .

وقد تم هذا التنصيب يوم الاثنين ١٢ شوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١١/٢٩ م بدار الولاية بمحضر السلطات المحلية ، المدنية منها والعسكرية .

كما جمع السلك الدينى العامل بالولاية بمناسبة تقديم المفتش الجديد لهم ، وقد اغتنم مدير الشؤون الدينية هذه الفرصة فأكد على اهمية دورى المسجد والامام فى الاسلام ، والذين تنتظر منهما البلاد انتفاضة ونهضة المسجد كما كان فى الاصل دار عبادة وعلم فى آن واحد ، ويصبح الامام لا يؤم الناس فى صلواتهم فحسب بل يقوم بتحفيظ كتاب الله لاولادهم وبتعليم العلوم الدينية لهم من فقه وحديث وأحكام شرعية وذلك بنظام كامل يضمن نجاح هذه الدروس .

الجولة التفتيشية عبر ولايات قسنطينة ، عنابة ، سطيف ، وتيزى وزو .

قام السيدان مدير الشؤون الدينية والمفتش المركزى بالنيابة بجولة تفتيشية دامت اسبوعا من ٩ شوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١١/٢٩ م الى ١٦ شوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١٢/٤ م ، عبر ولايات قسنطينة ، عنابة ، سطيف وتيزى وزو ، اطلعا خلالها عن كثب على الوضع الدينى العام ، وعن النشاط الذى يقوم بل كل من السادة المفتشين والائمة بهذه الولايات .

وقد زارا الاماكن الاتية بصفة خاصة : عزابة قالمة ، عنابة ، سكيكدة ، الميلية ، طاهير ، جيجل خراطة ، سطيف ، برج بوعريريج ، مجانة ، ثنية النصر ، القصر ، سيدى عيش بجاية ، تيزى وزو .

اثناء هذه الجولة عقدت جلسات عمل فى كل مفتشية ودرس فيها نظام سير المفتشية بالذات ونشاطها فى مختلف الميادين **وتركز الاهتمام على النقاط الاتية :**

ا ـ اعادة توزيع مرظفى السلك الدينى توزيعا عادلا على جميع مساجد الولاية

ب ـ تطبيق المنشور الوزارى ذى الرقم :

٧١/٩١/٨٤ الصادر بتاريخ ٣٠ ربيع الثانى ١٣٩١ هـ الموافق ٧١/٦/٢٣ والقاضى بتجديد اعمال موظف السلك الدينى (امام ، مؤذن ، قيم) من تحفيظ القرآن للصبيان والقيام بدروس الوعظ والارشاد ، والفقه ، ومحو الامية .

ج ــ مراقبة سير عملية محو الامية .

د ــ متابعة عملية حصر الاوقاف ، ومراقبة حسن استغلالها .

هـ ــ الكنائس المهجورة .

د ــ اللجان الدينية التى تشرف على بناء المساجد : تشجيعها ومراقبة حساباتها .

و ــ تجهيز المساجد وتفريشها .

ــ اعانات الوزارة الرمزية لبناء المساجد .

الثقافة ونهاية العام

علاء الدين مكى

اذا كان رمضان المبارك يقترن فى كل عام بثبوت رؤية الهلال . فقد امسى الهلال من كل عام علامة بدء ، واستهلال محمود لشهر ثقافى يرتفع فيه نبض الحركة الثقافية ، ويسرى الحماس فى جميع انحاء ترابنا الوطنى ،وتتحول الليالى من خلاله الى نهارات تضيؤها المآذن البيضاء المنتصبة بجلال قدسى تحاكى اهلتها المضيئة هلال السماء ، وتزينها قباب المساجد . ويعطر اجواءها تلاوة القرآن وتهجد المؤمنين

ان الحديث فى الواقع عن النشاط الثقافى خلال الشهرين المنصرمين من العام الفارط ، يدفعنا للتوقف عند هذا الشهر المبارك ، لا باعتباره مدخلا للحديث فحسب ، بل على اساس من اقتناع اكيد بأن النشاط الثقافى يصادف فى هذا الشهر ازدهارا وحيوية ملموسين لقد استطاع المسرح الوطنى ولاول مرة فى تاريخه خلال الشهرين الاخيرين من العام الفارط ، أن يقيم مهرجانا مسرحيا امتاز عن المهرجانات الاخرى بطول نفسه وتنوعه ، وظاهرة الاقبال التى حظيت بها العروض المسرحية . فقد ظلت مقاعد المسرح الوطنى تمتلأ كل ليلة بجمهور غفير اثبت بحماسه وتشجيعه ومتابعته للعروض المسرحية بأن ظاهرة الاعراض التى يتحدث عنها البعض ، انما هى دعوى مبالغ فيها . وان الشعب بجميع فئاته يشعر بضماء حقيقى نحو هذا النوع من النشاط الثقافى القادر على طرح اهم واخطر المشاكل الاجتماعية .

ربما يكون صحيحا بأن طبيعة رمضان المبارك ورغبة الصائم فى السهر قد ساعدا كثيرا فى انجاح هذا المهرجان وغيره من النشاطات الثقافية التى شهدتها البلاد .

لكنه قد بات من المؤكد ان مثل هذا النوع من المهرجانات ، قادر على المدى البعيد أن يبعث ويحيى تقاليد مسرحية وثقافية ، ويكون بالتالى جمهور المسرح الذى به ومن خلاله تتحقق رسالة المسرح الثقافية .

وبعدها لن نفسر الاقبال بأنه مؤقت او انه مقترن بطقوس ثقافية مؤقتة .

وعلى اية حال فان ازدهار الثقافة فى شهر رمضان انما يمثل فى الواقع صورة مصغرة لمثال كبير نريد بكل قوانا أن نحققه . فنشاطاتنا الثقافية عندما يحتضنها شهر مبارك ، انما

يعنى هذا وعلى مستوى الرمز بأن نزعتنا نحو التجديد ، أو نحو بناء ثقافة معاصرة ، انما تسير وتتقدم بوحى من ثقافتنا الاسلامية العريقة . اذ يبدو شهر رمضان الكريم فى هذه الحالة كما لو كان خلفية فكرية وحضارية تتحرك من أمامها جميع الانشطة الثقافية التى تشكل وجه حياتنا المعاصرة فى هذا الشهر المبارك . قلت بأن

المسرح الوطنى استطاع فى العام الفارط ان يجذب اليه جمهورا جديدا تجاوز فئة المثقفين او المهتمين بتتبع الحركة المسرحية .

كما نجح المسرح الوطنى ان يقيم مهرجانه الاول على أكتاف الهواة الذين تألقوا هذا العام فى مهرجان مستغانم . ونجح هؤلاء بدورهم وبكل الحماس والطهر والعشق الذى يكنوه للمسرح ان يقدموا رغم كل شىء عروضا مسرحية وقف البعض منها شامخا الى جانب عروض المحترفين سواء فرقة المسرح الوطنى او الفرق المسرحية الزائرة .

واستطاع الشرق الجزائرى (قسنطينة) رغم انه لم يفز بالجائزة الاولى ان يقدم خلال ذلك المهرجان عرضين شيقين نالا استحسان جمهور العاصمة .

غير الجائزة الاولى كانت من نصيب فرقة مسرح العمل من مدينة « وهران » عن مسرحيتها المسماة « ارقدتم قاع » اى « رقدتم جميعا » والحقيقة انها لم تكن اعمق ولا اكثر تطورا من المسرحتين اللتين تفوقت عليهما . فالنص محلى كتبه هاوى شاب لم يتجاوز لكنها جمعت من عناصر النجاح ما كفل لها الفوز السابعة والعشرين يدعى « ميسوم سعيد » . والممثلون هواة ما زال اغلبهم فى المدارس . أما القضية التى طرحها فنابعة من صميم مجتمعنا مختصة بفئة اليافعين المرفوضين من المدارس، مصورة المخاطر التى يمكن ان ينزلق اليها هؤلاء الشباب .

وعلى العموم فقد أتيح لاكثر من ثمان فرق هاوية بما فيهم الفرق الثلاثة الاولى ان تصل الى خشبة المسرح الوطنى بالعاصمة وتقدم عروضها الى جانب الفرق المحترفة المحلية والزائرة .

أما بالنسبة للفرق المسرحية المحترفة فقد قدمت الفرقة القومية الليبية مسرحية « دوائر الرفض والسقوط » التى كتبها الشاب « عبد الكريم الدناع » وقامت فرقة المسرح البلدى لمدينة الدار البيضاء ــ المغرب بتقديم المقامات فى مسرحية سمتها « مقامات بديع الزمان الهمذانى » وكانت فى الحقيقة من أبرز واخطر الاعمال المسرحية التى قدمتها الفرق المحترفة فى هذا المهرجان . كما شهد المسرح الوطنى خلال هذا المهرجان مسرحيتين مترجمتين قدمتهما فرقة بلدية تونس . الاولى للشاعر الاسبانى غارسيا لوركا ، والثانية مقتبسة عن

مسرحية للكاتب الانجليزى (الغاضب) جـون اوزبون .

* * *

والواقع أن الشهرين الاخيرين من هذا العام شهدا بالاضافة الى المهرجان الـوطنى الاول للمسر ح، اسبوعا ثقافيا ربما هو الاول مـن نوعه ، اذ اقيم فى مطلع شهر ديسمبر من العام الفارط اسبوع ثقافى احيته فى بلادنا البلـد الشقيق **تونس** فشهدت الجزائر أوجها متعددة من نشاطات ثقافية اشتملت على معـارض للرسوم الزيتيـة والصـور الفوتغرافيـة . ومحاضرات والوان متنوعة من الغناء والموسيقى والباليه الوطنى . فأقيم فى مكتبة العربى بـن مهيدى والجامعة معرضين للكتاب التونسى كما حل بالجزائر نفر من الادباء ورجـال الفكـر التونسى . وقدم الاستاذ **الطاهـر بن قيقـة** محاضرة « حول القصة والاقصوصة فى الادب العربى المعاصر » تناول من خلالـها بالتعريف جيلين من الكتاب ، جيل الشبان وجيل ما بعد الاربعين ، واهم المواضيع التى تطرقوا اليها فى انتاجهم . هذا فى الوقت الذى قدمت فيه فرقة الكاف المسرحية على خشبة المسـرح الوطنى مسرحيتين الاولى بعنوان « حوكى وحرايرى » والتى اقتبسها المخرج منصف السويسى عـن الكاتب الايطالى « كورناى » .

وكانت المسرحية الثانية للكاتـب الفرنسى الطلائعى « جان جينيه » حيث أخرج له الشـاب التونسى « عبد الرزاق الزعزاع » مسرحيتـه المشهورة « الخادمات » .

النشاط الثقافى فى العالم العربى .

والواقع أن شهر ديسمبر من العام الفارط كان حافلا بالنشـاط الادبى ، ليس على مستوى الجزائر فقط ، بل وعلى مستوى البلدان العربية الشقيقة التى شهدت بدورها نشاطا ثقافيـا ملحوظا . فقد انعقد فى الاسبوع الثانى من شهر ديسمبر « مؤتمر الادباء العرب الثامن » الذى انعقد فى « دمشق » تحت شعار « الاديـب العربى بعد معركة المصير » . وقد انتهى هذا المؤتمر بجملة من التوصيات الهامـة يتعلـق بعضها بحرية التعرف على الفكـر العـالى ، واشراك الجماهير فى تقييـم أدب المعركـة المصيرية مع الالتزام بخط الثـورة العربيـة . وتناول بعضها الاخـر قضيـة محـو الاميـة والتعجيل ببحثها . كما طالـب المؤتمـر فى توصياته بسن تشريعات تمكن الاديب العربى من التفرغ ، وايضا طالب المؤتمر بالاهتمـام ببرامج الاذاعة وتقديم جميع التسهيلات التى تكفل لادب الارض المحتلة الوصول الى سائر انحاء الوطن العربى . وقد شاركت الجزائر فى هذا المؤتمر فمثلها فيه كل من الدكتور صالـح الخرفى والدكتور حنفى بن عيسى والدكتور ابو القاسم سعد الله الذى ترأس الوفد وألقى هناك كلمة حول موضوع الأمية حيث اوضح جانبا من التناقضات التى تعيشها كثيرا من الدول العربية فانتقد تلك الاقلية التى تستأثر بثروة الجماهير وتسخرها لاغراض لا تمت بصلة الى حاجات المجتمع الحقيقية .

كما انعقد فى العاشر من شهر ديسمبر ١٩٧١ فى (العراق) مهرجان للشاعر العربى المعروف « ابى تمام الطائى » حيث التقى فيه لفيف مـن ابرز الشعراء المعاصرين العـرب ، والقيـت خلاله قصائد من الشعر العمودى والحر .

والواقع ان تكريم « أبى تمام » انما هو مسح وتجديد للجوانب الناصعة والمشرفة فى تراثنـا وادبنا العربى ، وتكريم لشاعر عملاق اتفق معظم النقاد على أنه من أوائل الذين عملوا علـى تجديد روح الشعر شكلا ومضمونا . وقد توفى ابو تمام فى مدينة **الموصل** ــ حيث انعقـد المهرجان ــ واقيم له فيها ضريح زاره « ابـن خلكان » وكتب عنه .

* * *

اما فى **مصر** فقد افتتح فى منتصف شهـر ديسمبر بمدينة **الاسكندرية** « المؤتمر الاقليمى العربى الثانى لمحو الامية فى الدول العربية . » وقد شارك فيه ممثلون عن ثلاثة عشر دولـة عربية كما اشترك فيه ممثلون عـن اليونسكو والاتحاد العام لنقابات العمال ومنظمة تحرير فلسطين . وانتهى فى ٢٠ ديسمبر ، واجمع فيه كل المتحدثون وبما فيهم ممثل **الجزائر** على ان الامية خطر يعيق ويشل تقدم الدول العربية ، ولذا فلا بد من العمـل الجاد للحد من انتشارها والعمل على اختفائها من المجتمع العربى .

* * *

هذا بالاضافة الى انعقاد مؤتمـر آخـر فى مدينة القاهرة هو مؤتمر « الاصالة والتجديد فى الثقافة العربية المعاصرة » والذى افتتـح فى الرابع من شهر أكتوبر الماضى واتخذ من المركز الرئيسى للجامعة العربية مقرا له .

ومثـل الجزائر فيه الاخ عبد القادر قريصات. ويهدف هذا المؤتمر الى الكشف عن تلك العناصر الباقية فى الثقافة العربية التى يحس العربى خلالها أنه ينتمى الى امة لها شخصيتها وروحها المتميزين ، وان هناك صلات فكرية ووجدانيـة تربطه بتاريخ الثقافة العربية ، كما يهدف هذا المؤتمر الى توضيح ودرس التقاء الحضـارة المعاصرة بتلك الاصول . وما ينجم عن ذلك من تفاعل وما خلفه ذلك اللقاء من آثار علـى مسيرة الحياة الادبية والثقافية شكلا ومضمونا وتعبيـرا .

* * *

صـدر حديثـا

ولم تكن دور الطباعة والنشر باقل نشاطا فى المؤتمرات والمهرجانات الادبية ، فقد صـدرت جملة من الكتب الهامة .

فقد صدر حديثا المجلد الثـانى من كتـاب « التاريخ العام لافريقيا السوداء » واعتبـره النقاد احسن تاريخ للقارة السوداء .

كما أصدرت الهيئة المصرية العامة للتاليـف والنشر كتاب « تاريخ البشرية » وهو كتـاب يؤرخ للتطور العلمى والثقافى فى العالم .

وصدر عن نفس الدار كتاب هام فى « الشعر الجاهلى » والذى يعد محاولة جديدة لدراسـة الشعـر الجاهلى . الفه د . سيـد حيفنـى حسنين .

وفى بيروت صدر حديثا « قصائد ليست محددة الاقامة » وهو احدث ديوان لشاعر المقاومـة « سـالم جبران » .

وصدر فى القاهرة الجزء الاول من كتـاب « فلسطين اليكم الحقيقـة » الفـه الصحفى البريطانى ج.م.ن حفريز وترجمه الى العربية احمد خليل الحاج ويعد هذا الكتاب وثيقة نادرة كتبها احد الصحفيين البريطانيين ، اتاح له عمله ان يحصل على الادلة الدامغة لابشع جريمـة ارتكبت فى العصر الحديث .



قراءات فى المجلات الفرنسية

اعداد : بقطاش مرزاق

مشكلة « عزوبة قساوسة الكنيسة اللاتينية » من اخطر القضايا التى طرحت على بساط البحث فى المجتمع الكاثوليكى الثالث بحاضرة الفاتيكان . وقد صدر فيها الحكم الصريح : « الابقاء على حالة العزوبة » .

وقد اثارت هذه القضية بين رجال الدين عددا من التساؤلات التى بلغت حد النقد للوضع الكنيسى اللاتينى .

اما الزوبعة التى اقضت مضجع الفاتيكان فهى حديث القسيس جان كلود بارو الى صحيفة الاكسبريس الذى اعلن فيه بانه قرر الزواج وبأن عزوبة القساوسة بالرغم من كونها مشكلة ثانوية الا انها تكشف عن الازمة التى تعانيها الكنيسة اليوم .

والقسيس بارو يناهز الثامنة والثلاثين ، وهو مدير هيئة التعميد فى ابرشية باريس ومؤلف عدة كتب حول الايمان ، والشر ، والله . وقد استهل حديثه بشرح سبب تحوله الى الدين وهو الشخص الذى نشأ فى وسط بورجوازى تحررى لا يمت الى الدين بصلة .

« كنت من الشبان الذين اغرتهم السياسة واقوال غى موليه وكان من آثار ذلك اننى وجدت نفسى ضابطا فى الجزائر ما يتجاوز السنتين . أما تحولى الى الدين فقد جاء وليد لقاء مع استاذ لى فى التاريخ والجغرافية : كان هو الاخر يبحث عن نفسه وقد صار فيما بعد ارثوذكسيا تحت تأثير اللاهوتيين الروس الذين التقى بهم . وقد خضت معه مختلف الحديث مما حفزنى على البحث الشخصى فضلا عن اننى كنت اشعر باستمرار بأن العالم اشد تعقيدا وغرابة من الوسط الوضعى الذى كان يحوطنى آنذاك . ناهيك بمآسى الحرب التى جعلتنى أعرف كنه الشر . وقد ادركت حينئذ ان الانسان الطيب قد يتحول الى شرير . ان جذور الشر فى رايى هى الاحتقار . فبمجرد ما تشعر بأن الاخر من صنف مختلف عنك يصير كل شىء ممكنا .

وانى اعتقد ان تجربة الشر التى عرفتها فى حرب الجزائر وفى بؤس البروليتاريا قد طبعت تفكيرى كله » .

الاكسبريس : هل تعتقدون أن مشكلة الشر هى التى حفزتكم على الايمان ؟

جان كلود بارو : ليست مشكلة الشر وحدها . فهناك أيضا جانب ايجابى فى تحولى الى الدين . هو اكتشاف وجه المسيح فى الناصرة . والاهتمام الذى أبداه المسيح بمشكلتى الشر والعذاب

فضلا عن اعجابى بشخصيته الجذابة .

ثم ينتقل القسيس بارو الى مسألة التعارض بين الايمان والدين فيقول : ان الانسان ، ملحدا كان أم لا ذو ابعاد مختلفة، فهو يتضمن بعدا سياسيا وبعدا جنسيا وبعدا دينيا . والدين ليست له بالضرورة علاقة بالله . الدين هو ما يسمح للانسان بان يتعمق العالم ويرتبط بالكون . وهكذا ليست له علاقة بالله . فنحن لا نستطيع أن نحرم الانسان من بعده الدينى ونبقى فى نفس الوقت على بعديه السياسى والجنسى . الدين امر مشترك مثل السياسة او الجنس . وهو قد يؤدى الى الشر أو الى الخير .
اما الايمان فهو شىء آخر طبعا . انه الثقة فى شخص ما ، فى شخصية انسانية ، فبمجرد ما يثق الانسان بشخص آخر على التمام يعتبر مؤمنا ويدخل دنيا الايمان لانه يتجاوز التجربة . ان الايمان بالله أو الايمان بشخص مسألة واحدة .

الاكسبريس : لقد مارستم وظيفتكم فى عدة احياء باريسية وتعرفتم خلال ذلك على المرأة التى سوف تبنون بها فكيف حدث ذلك ؟

جان كلود بارو : لقد بدأت العلاقة بيننا على شكل صداقة كبيرة ثم تطورت الامور .

الاكسبريس : وهل تسبب ذلك فى مشاكل لها ؟

جان كلود بارو : انها مسيحية ولكنها متحررة جدا . اما بالنسبة لى فاننى قلت لنفسى بعد تفكير طويل انه لا يوجد سبب قاهر يجعلنى ارفض معيشة الحياة الزوجية . وانه لا يمكننى أن استمر فى قبول قانون العزوبة وهكذا طلبت من روما الاذن لى بالزواج .

الاكسبريس : لقد كنتم تعلمون ان ذلك غير ممكن ؟

جان كلود بارو : ان القساوسة ليسوا رهبانا وواجب البقاء على البقاء على العزوبة لا يهم الا رجال الاكليروس . والكنيسة الغربية لم تبدأ بفرض العزوبة على القساوسة ورجال الاكليروس الا منذ قرون ثلاثة . ذلك لان الامر ها هنا لا يتعدى كونه مسألة طاعة . أو بتعبير آخر هو عقد بين الكنيسة والقسيس . واننى لست أقوى اليوم على الاضطلاع بواجبات هذا العقد ولذلك طلبت من روما أن تحررنى منه .

اما الاهم فى كل ما سبق فهو ان مشكل عزوبة القساوسة هى فى صلب ازمة الكنيسة اليوم . وهذه الازمة لا علاقة لها بالتنظيم بل هى أزمة ايمان . والسؤال الرئيسى الذى يجب ان يطرح اليوم هو هل المسيحيون أسعد حالا من الاخرين ؟ .

لقد كان المسيحيون الاوائل يقولون أن المسيحية نبأ سار — بالمعنى الصحفى الكلمة — وعلينا اليوم أن نعود الى مثل ذلك المفهوم لاننا نسيناه . وذلك ما ينقص الكنيسة اليوم فهى لا تعلن عن النبأ السار بل تقدم النصائح الطبية وهو امر ليس من اختصاصها .

الاكسبريس : ولكن الناس فى حاجة الى اجوبة اخلاقية فمن يعطيهم اياها ؟

جان كلود بارو : اننى لا اقول بأنه لا ينبغى تقديم النصائح الطبية بل على العكس ينبغى تقديمها وتقديم الاجوبة السياسية ايضا . ولكن الكنيسة ليست هى التى تضطلع بذلك بل على الناس أن يقوموا بذلك . يجب على كل مجموعة انسانية وكل فرد اكتشاف ما يتعين عليه أن يقوم به تبعا للنبأ الذى سمعه . وباختصار فان اكبر ازمة فى مسيحية اليوم هى انه لم يبق لها ما تقوله للناس ، وليس من شأنها ان تقدم نصائح طبية لم تسأل عنها .

الاكسبريس : وهل تعتقدون أن أزمة الكنيسة هذه تفسر ارادة القساوسة فى ان يكتشفوا من جديد جانبا عفويا فى الوجود الانسانى ؟ وان يتزوجوا ايضا ؟

جان كلود بارو : ان ذلك يفضى الى الحديث عن مشكلة عزوبة القساوسة التى هى فى واقع الامر مشكلة صغيرة وثانوية . ولقد اعلنت عن ذلك مرارا وعشت حياة العزوبة طوال عشر سنوات بكل اخلاص . الا أن هذه المشكلة الثانوية تبدو لى بالرغم من ذلك ذات معنى كبير . وذلك لسببين نفسانيين : فأهم بعدين فى الانسان هما البعد الدينى والبعد الجنسى. وزواج القساوسة يتراوح بينهما. ومشكلة العزوبة تحث على اعادة النظر فى هيئة الاكليروس التى لم تكن موجودة فى الكنيسة القديمة .

الاكسبريس : وكيف صارت العزوبة قانونا معمولا به ؟

جان كلود بارو : حدث فى العصور الوسطى ان الناس المثقفين الذين يحسنون القراءة والكتابة كانوا من الرهبان . ودفعت الضرورة الى اختيار رجال الكهنوت وخاصة الاساقفة من بين هؤلاء الرهبان . من هنا نشأت فكرة عزوبة القساوسة . ولكن

اذا كانت الكنائس قد نصحت بأخذ هذه الفكرة فانها لم تعرف ميدان التطبيق الا ابتداء من القرن السابع عشر . وفضلا عن ذلك فان واجب العزوبة لم يؤخذ به الا فى الكنيسة اللاتينية أما فى الكنائس الشرقية فانه لم يطبق ابدا بل وحتى فى الكنائس الشرقية الكاثوليكية .

الاكسبريس : هل ترون ان نمط الحياة الحديث يزيد من صعوبة بقاء القساوسة على حالة العزوبة ؟

جان كلود بارو : طبعا ان اغلبية القساوسة قبلوا قانون العزوبة عن سبيل الطاعة . فقبل عشرين سنة كانت ممارسة الحياة مسألة يسيرة نسبيا . فالراهب كان فى هيئة تحميه . اما اليوم فانه لا يوجد مثل تلك الظروف فكيف نحمى انفسنا ؟ انهم يطلبون منا بأن نقوم بأدوار بطولية . وهكذا ترون أن قانون العزوبة الذى يفرض على القساوسة لم يعد محتملا . ان البطولة واجب على كل مسيحى ولكننى أعتقد ان قانونا ما لا يمكن مطلقا أن يقوم على البطولة . والفاتيكان يعلم ذلك ولكنه يتجاوزه ولا يخضع له.

الاكسبريس : اذا كنتم تطرحون مشكلة زواج القساوسة فعليكم أيضا أن تطرحوا مشكلة الطلاق ؟

جان كلود بارو : اننى لا ارى الزواج تقديسا . فمشكلتى تتلخص فى اننى احب امراة واريد ان اعيش معها وانجب اطفالا . ونظام الزواج نسبى مثل الانظمة الاخرى كلها . والمسيح نفسه يرى هذا الراى فهو لم ينشر تشريعا حول لا انفساخية الزواج . وهناك اشياء اخرى أهم من الزواج فبامكان الرجل والمراة الفراق . والاطفال انفسهم ليسوا امرا مطلقا بالنسبة للمسيح نفسه . فبالامكان الانسان ان يفارق والديه وابناءه وزوجته من اجل ما هو اهم .

الاكسبريس : وما هو رأى الكنيسة فى هذه المشكلة ؟

جان كلود بارو : اذا كان فشل الحياة الزوجية ظاهرا فاننى لا أرى لماذا لا تقوم الكنيسة بفسخها . فلديها السلطة على ذلك . **ثم ان القانون وضع للانسان ولم يوضع الانسان للقانون** . ان التعهد بالحياة الزوجية مسألة جدية ، وعلينا ان نقوم بذلك بعد معرفة دقيقة اى بعد علاقة طويلة يمكن ان تبلغ حد العلاقة الجنسية . **اننى باختصار لا اكافح من اجل الزواج بل أصارع حتى يستطيع القساوسة ان يكونوا رجالا مثل الاخرين وان يكونوا فى الوقت نفسه خدمة للكنيسة .**

واننى احب البابا واخضع له ولكننى اقول بانه يخطىء . وانه بفضل قانونا عرضيا يؤكد هو نفسه بأنه عرضى . والبابا ليست له كلمات الحياة الخالدة . كفانا من هذه المشكلة اذن ولندع القساوسة يتزوجون وننتقل الى البحث فى مشكلات جدية .

هنرى لبوريت : علم الحياة نقطة التقاء العلوم

تبدو اليوم ضرورة احتكاك العلوم الانسانية بالعلوم المختلفة ذلك لانها تتطلب فى بعض الاحيان معلومات طبيعية ورياضية معمقة ويتعين على العالم الاجتماعى مثلا ان يكون فى الوقت ذاته عالما بالاقتصاد ، وان يكون العالم النفسانى عالم حياة وكاتبا فى آن معا .

ويبدو أن هناك طريقتين للبحث ترتسمان فى ميدان الاحتكاك بين العلوم . الاولى حدسية فلسفية تهتم بالمصير الانسانى ولكنها لا تتعامل مع العلوم الا عن طريق القياس وتأمل أن يتحقق ذلك بواسطة التجربة . وطريقة البحث هذه من اختصاص علماء السلالات البشرية (المختصين فى عقد المقارنات بين أوجه السلوك الانسانى والحيوانى) مثل كونراد لورنز ، وفلاسفة العلوم مثل روبرت اردى . أما طريقة البحث الثانية فتكاد تكون معاكسة للاولى فهى اكثر علمية وأشد تواضعا اذ انها تمتنع عن الافاضة فى التنبؤات ، بل تتناول مواضيع البحث على شكل مستويات تنظيمية . ولعل تعبير / مستويات التنظيم / هو ما يبين لنا بكل وضوح آراء الاستاذ هنرى لابوريت وافكاره .

فقد شغل هذا العالم منصب طبيب عسكرى خلال الحرب العالمية الثانية واكتشف سنة ١٩٥١ مادة كلور برومازين التى

كانت أول مهدىء يستخدم فى الطب العقلى . وقام عام ١٩٦٩ تحت الحاح طلبته بانشاء هيئة / علم الحياة والتمدن / التى مكنته من وضع كتابه الاخير / الانسان والمدينة / . وفيما يلى الحديث الذى ادلى به الى مجلة الانباء الادبية .

هل تكون تجربتكم كطبيب عسكرى هى التى ادت بكم الى اكتشاف المهدئات ؟

— ليس ذلك ما حدث على وجه التحديد . فقد كنت اهتم ببحث الصدمات التى تحدث من جراء العمليات الجراحية ،وكانت هذه الصدمات تعتبر فيما مضى نفادا لوسائل الدفاع فى الجسم . ثم اننى ادركت انه بقدر ما نزيد من تقوية وسائل الدفاع فى الجسم بالكافيين والكافور والمخدرات الاخرى بقدر ما ترتفع نسبة الاموات بين المرضى . ووسائل الدفاع هذه حين تقويتها تخدم الحيوانات العليا ولا شك وقد كان الانسان البدائى يستخدمها للاعتداء أو للهروب ولكنها بقيت عاجزة تجاه اعتداء العملية الجراحية . وبما اننا لا نستطيع ان نهرب من الجراح او نقاومه، فانه من العبث أن نحرم من الدورة الدموية بعض الاعضاء التى لا تستخدم لا فى المقاومة ولا فى الفرار ؛ ذلك لانه قد تحدث بعض الرضوض الخطيرة. ولقد اكتشفت المهدئات الاولى بغية الحجر على عمليات الدفاع هذه بدلا من حفزها .

— كيف انتقلتم من هذا البحث الطبى الصرف الى نشاط يشمل عدة علوم ؟ وهل كان تفكيركم فى تمييز التفاعلات لدى الحيوان الاعلى هو الذى ادى بكم الى اهتماماتكم الحالية ؟

— لقد كنت أول من اقترح استخدام المهدئات فى ميدان الطب العقلى . فقد بدا لى ان المرض النفسى هو رد فعل غير منتظم تجاه اعتداء اجتماعى ما وانه مشابه لردود الفعل التى تلاحظها فى الجسم الانسانى أمام اعتداءات العملية الجراحية . ولقد وجدت نفسى فى البحث البيولوجى انتقل من مستوى تنظيم الى مستوى آخر ، فقبل عشرين سنة لم تكن التركيبات الكيمائية الحيوية معروفة . وقد تناول كتابى الاول موضوع الجهاز العصبى النباتى. وعندما اكتشفت عن طريق البيولوجيا بأن هذا الجهاز ليس نظاما للشبكات الكهربية وادركت انه يفرز عناصر كيمائية اضطررت الى ان أبحث فى الكيمياء وعلم الصيدلة والكيمياء الحيوية وعلم الحياة العام . وفضلا عن ذلك فقد انتقلت من البحث فى تنظيم الجهازين العصبى والدموى الى البحث فى الخلايا ومنها الى علم الطبيعة وكيمياء الجزيئات. ذلك لانى لم اكن لاستطيع فهم وظيفة عضو ما بدراسته من زاوية واحدة بل كان على ان احصل على خلاصة مستمرة فى شتى العلوم .

— ان علم الحياة يميل اليوم نحو علوم الطبيعة ، وكنتم فى السابق قد جعلتموه يميل اكثر فاكثر نحو العلوم الانسانية . فكيف تشرحون ذلك ؟

— ان الجهاز الانسانى كل متكامل . وليس من المغالاة فى شىء أن ننظر الى النظام الاجتماعى بنفس المفاهيم التى ننظر بها الى الجهاز الفردى . ولكن علينا أن نميز مستويات للتنظيم وذلك انطلاقا من الجزىء الى السلوك الانسانى بأكمله .

انكم تعرفون تلك الدمى الروسية ذات الشكل الواحد والاحجام المختلفة . ان الواحدة منها تتركب فى الاخرى بانفصامها فى الخاصرة . واظن أن عالم الحياة جاكوب هو أول من بين أوجه الشبه بينها وبين الجهاز الانسانى بيد أن الصورة ليست صحيحة تماما . ذلك لان عملية التراكب هذه لا تكفى لتحقيق الارتباط . فكل مستوى يجب أن يخضع للمستوى الذى سبقه . وهذه ولا شك اجهزة ذات تنظيم داخلى تحقق مبدئيا نفسها بنفسها . ولعل الكابت الحرارى أن يكون أصدق دليل على ذلك . فهو حمام تقوم فيه الطاقة الكهربية بالابقاء على درجة معينة من الحرارة بواسطة جهاز للتفاعل . ولو أن الجهاز الانسانى كان على شكل كابت حرارى لما حدث تطور أو تكيف على الاطلاق .

ينبغى اذن على الكابت الحى أن يخضع لاوامر خارجية تطلعه على درجة الحرارة التى يتعين الابقاء عليها . فالمنظم الداخلى لا يكفى بل ينبغى على مستوى التنظيم الاعلى أن يزوده بالمعلومات . ونظام الخلية على سبيل المثال لا يمكن شرحه دون الاطلاع على القيادة الخارجية للانظمة الاخرى . وهكذا فعندما نتوصل الى معرفة شاملة بالجهاز الحى يصعب علينا أن نتوقف عن البحث بل انه من المغرى ان نبحث فى مسألة ما اذا كانت الانظمة الجديدة المكتشفة تطبق ايضا على المجموعات الاجتماعية والنوع الانسانى بأكمله . ان معرفتنا بكل خصائص جزىء الكلور وجزىء الهيدروجين لا يجب أن تجعلنا ننصرف عن دراسة حامض الكلوردريك . وان الذين يجهلون كل شىء عن الكلور والهيدروجين لا اهلية لهم للتحدث عن حامض الكلوردريك . وكذلك فانه ينبغى لعالم الاجتماع ان يكتسب معارف فى علم الحياة حتى يستطيع ممارسة عمله .

— لعل النزوح الى الاعتداء هو ابرز خاصية اجتماعية يضطلع علم الحياة بدراستها . ولقد تحدثتم كثيرا عن شرح هذه الظاهرة العمرانية وخاصة فى كتابكم الاخير ...

— ان الاعتداء الانسانى مسألة خاصة . فبواسطته أمكن لنا فيما مضى أن نناضل ضد

طبيعة العصر الحجرى القديم ، ثم انه فقد خاصيته البدائية ابتداء من العصر الحجرى الجديد . وقد ولد مفهوم الملكية بمجرد ان عزف الانسان عن ممارسة الصيد الذى يقوم بأوده ، واستقر فى ارض ما واشتغل بتربيةالحيوانات وجمع الغلال . ومفهوم الملكية هذا يعنى أن الانسان عندما حقق ضمانا غذائنا حول اعتداءه نحو اخيه الانسان . وكان قد ورث هذا الاعتداء من طبيعة مخه الذى تعود على المكر والحيلة .

ومن البديهى أن المدينة أداة مثالية لسيطرة الانسان علىأخيه الانسان ، فالاعلام يأخذ فيها اتجاها واحدا والثياب والانماط الثقافية تتخذ هى الاخرى شكلا موحدا . والنشاط الانسانى الخلاق فى ميادين الفن والعلم والتقنية يتحول الى نشاط لتحضير السلع . نعم اننى أعترف بالعوامل الاقتصادية التى تؤدى الى نشوء المدن والحواضر ، بيد أن الامر ها هنا مماثل لظاهرات السيطرة الاخرى ، فنحن نعثر فى هذا الاطار على نفس المخ البدائى الماكر العجوز . وفى الوقت الذى تقدمت فيه علوم الطبيعة بشكل يثير الاعجاب بقينا نحبو فى ميدان معرفتنا بالانسان.

ان العلم الذى لا ضمير ولا وازع له هو خراب للروح دون شك ولكن العلم الذى لا وعى له بالعقل الباطن هو خراب للانسان ان النوع الانسانى مهددبالانقراض اذا ما أبقينا على غريزة السيطرة أو لم نلبسها شكلا آخر لا يمت بصلة الى حب التملك .

ـ ولكن كيف يمكن لغريزة السيطرة ان تندثر ؟ انك نفسك تمارس هذه السيطرة على السيطرة على طلابك فى جامعة فانسان ؟

ـ اننى اشعر على العموم بنوع من الضيق عندما اجد نفسى فى قاعة الدرس . اننى اسمع الى العروض والابحاث كسائر الطلبة الاخرين واتفادى القيام بدور المسيطر بينهم. واننى اذكر لكم ها هنا تجربة العالم دلغادو على مجموعة من الشمبانزى . فقد لاحظ أن السيطرة منها هى التى توجد اذنابها فى حالة اهتياج ، وقد استطاع دلغادو بواسطة قضيب حديدى استخدمه عن بعد أن يغير كيفما شاء من نظامها الجماعى .

بيد أن قرود الشمبانزى تعلمت طريقة استخدام هذا القضيب واستطاعت ان تستعمله لابعاد رئيسها كلما صار مزاحما مقلقا . فلنطبق مثل ذلك على بنى الانسان .

(من اجل عالمية ثقافية)

ذلكم هو عنوان المحاضرة التى القاها الشاعر الاكاديمىالفرنسى بيير ايمانويل فى مؤتمر ادبى انعقد اخيرا بمدينة دبلن الارلندية . وقد حاول الشاعر فى هذه المحاضرة تقييم الانسان والثقافة تجاه اخطار التقدم التقنى فى العالم الغربى .

ان التغيرات التى شهدها الربع الاخير من هذا القرن قد قلبت مجموع الموازين الانسانية راسا على عقب . فالتقدم ، اذ زود الانسان بامكانيات التاثير على العالم وعلى نفسه بطريقة تتجاوز قدرة العدد الكبير على الفهم وتضع فترة ما قبل الحرب فى مرحلة ما قبل تاريخ التكنولوجيا ، فانه قد أحدث بالمقابل تحويرات لم تكن متوقعة فى التوازن بين الانسان ومحيطه وبين الانسان وروحه . وان التضخم الديموغرافى،والازدحام، والتلوث ، وتبذير الثروات الطبيعية ، ان هى فى واقع الامر الا الدية المباشرة التى دفعتها الانسانية لتنطية الانتاج والاستهلاك المتزايدين اللذين لم يكن لهما من قانون آخر فى البلاد الثرية سوى الاطراد الى ما لا نهاية ، واغراق بلدان العالم الثالث فى الفقر اكثر من ذى قبل ، هذه البلدان التى انتقل الكثير منها فى ظرف سنوات معدودات من أوضاع اجتماعية عتيقة مستقرة الى مرحلة الاكتشاف المفاجىء لتقنيات الاستثمار العالمى التى تهددها اليوم بدفع ما قد يترتب عنها .

وكان ان انهمكت وسائل الاعلام اكثر مما مضى فى نشر وعى شامل متغطرس وقلق فى آن واحد ، وانطلقت تمجد تطلعاته وانتصاراته وتردد فى ذات الوقت تناقضاته وثوراته فى ارجاء الدنيا . وتسببت ازمة التقدم الشاملة التى أحس بها الجميع، كل فى نطاقه المحلى ، فى ظهور مفاهيم جديدة قد تؤدى الى انفصام الاواصر بين بنى الانسان او الى التضامن فيما بينهم . ولو عدنا الى وسائل الاعلام هذه لقلنا أن توسيعها وانتشارها سوف يطرح مشاكل لانواع الحملات الدعائية المختلفة وانظمة المراقبة كلها ، ذلك لان تطور شبكة الاقمار الصناعية أو خطوط التلفزة التى تلف كوكبنا بنسيجها العصبى سوف تجعله يتأرجح بين التذبذب والتجانس، وبذلك يصعب على المرء التخمين حول أثر هذا الوضع على كل فرد . هل تراه سيكون وعيا شاملا أو رعبا تاما ؟ . ولعل تلك الجماعية الموجهة التى تستطيع التقنية أن تحدثها وتحورها على هواها هى اشد ما يلفت الانتباه فى الوقت الحالى عندما نتأمل تصرفات الجماهير، فالكل يعلم أن الدعاية قد صارت هى الاخرى علما تطبيقيا مثل الاشهار تماما . وفى امكاننا ان نقول مثل هذا القول عن نظام العقوبات التى تطبق اليوم على الناس المتهمين باعمال الفكر . واننى لا اعنى هاهنا سوى فكرة القمع المجردة ولست اقصد

تطبيقها المحدد ذلك لان جريمة امتلاك راى ما هى ذات جوهر متغير تبعا للانظمة ، بل انها تتغير فى النظام الواحد بين الحين والاخر ، ناهيك بالتطور الهائل لوسائل التعذيب التى سجل فيها الانسان اكبر انجازاته بتعبئة الطب العقلى هذا الانسان الذى لا يريد الا أن يحطم نفسه بنفسه. وليس لى من غاية وراء هذا الحديث سوى أن احذركم من دور الشرطى الذى سوف تلعبه السبرنطيقا فى المستقبل .فشرطة مزودة بعقول آلية هى نظام تكاد تكون مناهجه ونتائجه معصومة من الخطأ .

لم هذا العرض المتشائم عن التقدم يا ترى ؟ ان كل انسان يستطيع ان يضيف ما يحلو له قائمة التشاؤم هذه . ولكننا نحن لا نصدر ابدا عن حقد تجاه العلم مثلما يروق ذلك لبعض المتادبين ، بل عن رغبة فى القاء الاضواء على وضعيتنا نحن الذين نشتغل بالادب والثقافة . ان هـ.ج . ولز والدوس هكسلى لم يكونا متهمين بعدائهما للعلم ، وفرانز كافكا وجورج اورول لم يوصما بالرجعية بل على العكس استطاع هؤلاء الاربعة ان يأتوا بتنبؤات مدهشة عن مستقبل الانسانية . واذا كان الاديب المثقف قد استطاع فى الزمن الماضى أن يضطلع عن ايمان راسخ بدور الناقد للقيم الحضارية وأن يبشر بالتطلعات الانسانية البعيدة ، فانما حدث ذلك لان البشرية كانت تسمع صوته ولانه كان يوقظ فى النفوس مشاعر واحدث أصداء يختنط فيها الجدل بالموافقة وهو الامر الذى كان يعزز من قيمته . أما اليوم فان الارض تعير اذنا صماء للمتأدبين ولا تكاد اصواتهم تتجاوز نطاق الجماعة الضئيلة التى يتألفون منها . ان الادب بتعبير آخر لم يعد المحيط الذى تنشأ الافكار فيه وتتبلور ، بل هو نتاج للاستهلاك يشبه أى انتاج آخر،واهميته تقاس فى الاسواق. ومصداق القول فيما سبق هو أن البلاد التى يسجن فيها الادباء وينفون من اجل فكرة تعتبر خطيرة بدعوى أنها قد تؤدى الى نشوء وضع فكرى جديد — ان هذه البلاد — ربما كانت تحترم الفكر اكثر من البلاد التى يولد فيها الفكر فى اطار اللا مبالاة العامة . فالانسان فى بلادنا التى تزعم بانها تحررية قد اضطرب عقله نتيجة لطائفة من الخرافات المستفيضة خرافة التقنية القادرة على كل شىء وخرافة العلم الذى لا يعرف الانسان من ورائه شيئا عن نفسه

وخرافة سمو النظريات الاجتماعية على حكمة الماضى وروحانيته الخ . والغرض من هذه الخرافات كلها هو النمو المطرد للاقتصاد والاستخفاف بالكائن البشرى . وهذا الاقتصاد تخضع فيه معايير النشر لنفس معايير الصناعات الاخرى ، وهو يحط بذلك من المكانة التى يحتلها الادب ويعلى من مكانه الاعلامية الرخيصة التى تعكس صورة الانسان الحديث ، هذا النرجس السوسيولوجى ، وتجعله يجترع نفسه من جديد . وبما أن دور الكتب تتبع نفس قوانين دور النشر ، وبما أن المجلات والصحف الادبية فى طريقها الى الزوال ، فان الكتب الرائجة التى تملأ جيوب رجال الاشهار وهى التى توجد اليوم على رفوف هذه التجارة التى يلعب فيها الناشرون دور البائعين بالجملة ، وتقوم فيها محلات بيع الكتب بدور الحوانيت .

بيد أن الانتاج الحقيقى فى هذا النظام الكونى الجديد ، اذا ما اخذ فى مجموعه ، انما هو الانسان نفسه حسب ما يضعه رجال التقنية والمكاتب والدعايات والاشهار . انه انسان الانتاج الصناعى المتزايد ، سواء تعلق الامر بالاسلحة الثقيلة أم بالرؤوس الذرية . انه الانسان الذى لم يعد يقوى على التفكير فى نفسه ، وانتزعت منه الارادة والرغبة فى التفكير . انه الانسان الذى يفكر عنه مسؤولوه ويعيدون التفكير فيه يوميا قانون وحسب ارادتهم ونواياهم . اية مكانة يستطيع التفكير الفلسفى او التشوف الشعرى احتلالها فى الحياة المكتلة لهذا الانسان ؟ هل نحن آثار انسان غابر يحاول عصرنا اليوم أن يتقصى ثقافاته وحكمه المختلطة المجتمعة فى المعرض الضخم لبقايا الحضارات والفنون والاديان ؟ أم هل نحن بواكير الانسان العالمى الذى يبدو ان هذه الاثار الرائعة الحية تنبىء عن وحدته وتحث على استكناه سره ومكانه فى الكون ؟ واذا كنا المبشرين بهذه العالمية الحقيقية والشهود عليها ، فما الذى نستطيع فعله — لانه يتعين علينا ان نقوم بشىء — أمام العقبة الكاداء التى نصبتها الانسانية المصنعة أمام هذه العالمية ؟ ان امكانياتنا ليست قوية ولعل ازدحام ادمغتنا بالافكاروالنظريات هو ما يحول دون استخلاص البسيط والجوهرى منها ، ولنفترض أننا توصلنا الى ذلك فكيف نعلن عن هذه الافكار لكى تصير شعارا للمعرفة ورمزا للذين يبحثون عن الانسان داخل الانسان ، ويريدون أن يبدعوا الانسان من جديد انطلاقا مما هو عليه الان ؟ . لقد قلت فيما مضى أن الانسان الحديث كونى ولا شىء فى وقت واحد ، وان هناك علاقة وثيقة بين هذين البعدين . وليس هذان البعدان الا الصورة السلبية المرعبة لطبيعته الحقيقية ، هذه الطبيعة العالمية والفردية فى الوقت الواحد . أين هو يا ترى مقياس الانسان بالنسبة لنفسه

ولعالمه ! ان القضاء على الكائن الشخصى فى سبيل قياس الواقع الكونى انما هو جريمة جنونية قد ادت الى خسران عدد من الحضارات.وانني لا ازال اعتقد بالرغم من الحضيض المسف الذى آلت اليه الثقافة اليوم ، بأنه لم يبق على الناس الذين اختزنوا الكلمة الانسانية ، هذا القياس المقدس ، الا ان يجابهوا تحديات نظام اصطناعى جائر ارعن لا يكاد يثق فى نفسه عكسا لما قد يوحى به جهازه الهائل الذى لا يهدف فى حقيقته الا الى مسخ القيم وتشويهها . واننى اعير اهتماما بالغا لوجود ممثلين عن آداب العالم الثالث ضمن منظمتنا هؤلاء الممثلون البعيدون عن هذا الجزء الغربى من العالم حيث ولدت فكرة الجماعية السياسية بمجتمعات ما بعد العهد الصناعى .

وهذا لا يعنى اننى فقدت الثقة فى العمل على تنشيط الضمير الاوربى بل احجمت عن الاعتقاد بالعظمة الروحية للبلدان المتقدمة.

اننى اعتقد على العكس بأن تقسيم العالم تبعا لمصالح السلطات الكبرى يتضمن فى ذاته تهديدا بالفناء ضد كل ثقافة حرة . بيد أن قوة الضعفاء فى مقاومتهم الضرورية ضد الخنق التدريجى ليست جانبا يستهان به . فكائنا ما كانت وضعيتهم التاريخية الحالية ، احرارا كانوا ام مضطهدين ، **فان شكل العالم المقبل يتوقف على الوعى الذى لديهم باصالتهم الثقافية والجهود التى يبذلونها للحفاظ عليها .** ان للامبراطوريات الكبيرة حدودا، وكثيرا ما تكون هذه الحدود فى ذاتها . وهكذا فان اخطار حضارة تقنية موحدة الشكل ليست محسوسة اليوم بصفة تلقائية مثلما كانت عليه قبل عشر سنوات . وان فكرة تنوع الرجال والثقافات قد تحتمل بعض النقد ولكنها لا ترضى الا بنسبة ضئيلة وليس اكثر . فلنطلب اذن من كتاب البلدان التى لم تقطع بعد شوطا بعيدا فى التقنية ان يضعوا نصب اعيننا باستمرار بأن **العالمية الثقافية الحقيقية تكمن فى تنوع الثقافات ، وان التركيز على التقدم التقنى واهمال الجوانب الاخرى يدفع الانسان الى ان يغترب عن نفسه الى ما لا رجعة. انه من الوبال على النوع الانسانى أن يحرم من تجربة التمعن فى ذاته ، هذه التجربة التى تمنحها كل ثقافة كبيرة ، والتى يظن الفضوليون العابثون ان لهم القدرة على توجيهها على غرار ما يفعلونه اليوم بالتقنية .**

وانى آمل بالرغم من المخاطر التى قد تواجهنا ان نقوم حراسا وشهودا على هذا الجانب من الواقع الذى يمكن ان نسميه الاعماق والرمز والسر .

صدور العدد الاول من مجلة : « اللسانيات »

اصدر معهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر مجلة جديدة بعنوان : « اللسانيات » متخصصة فى علم اللسان البشرى ، ويديرها الاستاذ عبد الرحمان حاج صالح .

ومجلة « الاصالة » ترحب بالزميلة « اللسانيات » التى ستساهم فى ابراز وتقديم الابحاث والنتائج التى حققتها العلوم اللسانية والصوتية ، سواء على المستوى الوطنى او على المستوى العالمى وتمكين اللغة العربية من اكتساب وسائل حديثة للتطور واستعياب علم العصر .

قراءات فى المجلات الانجليزية

اعداد حكمت ياسين

تناولت الصحف الانجليزية والامريكية فى المدة القصيرة الماضية عددا من القضايا والمشاكل العالمية الهامة ، التى طالماكانت مدار الحديث بين رجال السياسة فى مختلف الدول العالمية . وكان بعض هذه القضايا غالبا مايخص بلدان العالم الثالث، ومشاكل تطورها ، وبناءكيانها واقتصادها ، وبعضها يدور حول مشكلة التمييز العنصرى واضطهاد البيض فى امريكا للمواطنين السود ، والنظر اليهم بعين الاحتقار والازدراء .

وكان من بين المواضيع التى تناولتها الصحافة الانجليزية ، موضوع « المخطط الرباعى » بالجزائر ، فمعلوم ان الجزائر شهدت فى بداية سنة ١٩٧١ حدثا تاريخيا هاما ، ونقطة تحول حاسمة فى طريق البناء والتشييد ، ذلك هو « المخطط الرباعى » الذى رسمته الحكومة الثورية فى الجزائر لرفع اقتصاديات البلاد ، والنهوض بها من حالة التخلف والارتقاء بها الى مصاف الدول المتقدمة ، وهذا ما عبر عنه الرئيس بومدين فى احدى خطبه ان اللحاق بالدول الصناعية ليس شيئا مستحيلا .

ويهدف هذا المخطط الى تصنيع البلاد ، وجعل الصناعة تحتل المرتبة الاولى فى الاقتصاد الوطنى ثم تحسين الزراعة وزيادة الانتاج الزراعى بالاعتماد على الصناعة المتطورة ، وكان لهذا المخطط ردود فعل وطنية ايجابية قوية ، اذ جندت له جميع الطاقات والوسائل للعمل على انجاحه ، وبذل المزيد من الجهود المادية والمعنوية من اجل تحقيقه فى الوقت المحدد ، كما انه احدث ردود فعل عالمية مختلفة ، فنظرت اليه بعض الدول الصديقة والشقيقة على انه خطوة جبارة اختطتها الجزائر لنفسها ، ومن الممكن أن تكون قدوة لغيرها من دول العالم الثالث ، بينما راحت بعض الاوساط الاستعمارية والامبريالية تقلل من اهميته، وتتشاءم من امكانية تحقيقه ، وفى هذه الاثناء قام الصحفى الانجليزى (شارل هارغروف Charles Hargrove

باجراء مقابلة صحفية مع الرئيس هوارى بومدين، دار الحديث فيها حول هذا المشروع وغيره من القضايا الوطنية والقومية . فكتب شارل هارغروف هذه المقابلة فى احدى الصحف الانجليزية فقال :

عندما دخل الرئيس بومدين الغرفة كان يضع على جسمه الطويل النحيل برنسا اسود ، وكانت ملامحه الصارمة وطريقة تصرفه الدالة على التروى تكشفان عن كرامة وتحفظ اصيلان ، تخفف من حدتهما ابتسامة او ضحكة خفيفة ، ووميض عينين حادين سوداوين .

فسألته : الى اى مدى يعتقد ان المخطط الرباعى للتنمية الاقتصادية الذى بدىء العمل به فى مارس الماضى ، سينجز ؟ .

فأجاب الرئيس بومدين: اذا كنا قررنا وضع المخطط فذلك لاننا نؤمن به . وان اقتناعنا بذلك قد تدعم بأن المخطط سينجز ، ليس مئة بالمئة او تسعة وتسعين بالمئة ، ولكنه سينجز ! . ان المشكل الحقيقى يكمن فى نقص الفنيين والاطارات اكثر من المشاكل المالية ، وقد عوضنا هذا النقص فى الوقت الحاضر بخبراء اجانب (المتعاونين) .

وتعانى الفلاحة الجزائرية كذلك نقصا كبيرا فى المسيرين والمدربين، ويستطيع المرء ان يعد عدد المهندسين الزراعيين على اصابع اليد الواحدة غداة الاستقلال ، لكن القدرة الانتاجية قد ازدادت بدرجة ملحوظة تحت المخطط الرباعى ، وفكرت الحكومة فى العمل على رفع الاهداف العظيمة للزراعة ابتداء من العام المقبل .

واننى اعتقد اننا سنكون بعد عشرة سنوات فى وضع يسمح لنا بالقضاء على ظاهرة البطالة ، وامتصاص اكبر عدد ممكن من العمال، لاننا سنقوم ببرنامج بنائى واسع . واننى أرى أن التطور الاقتصادى هو الحل الوحيد للبطالة ، واى حل آخر يعتبر حلا مؤقتا .

وسألته عن مسالة التعريب التى أولتها الحكومة اهتمامات زائدة .

فأجاب : يتكلم بعض الناس عن ثورة ثقافية ، ان هذا يعنى بالنسبة لنا اكتشاف تراثنا الثقافى واللغوى، ان الدولة التى كانت تستعمر بلادنا عملت بكل امكانياتها لتحرمنا لغتنا ، ولهذا فانه يجب علينا أن نعيد الى هذه اللغة مكانتها الشرعية ، ونعمل على اغنائها بالتراث الثقافى العالمى .

ثم سألته عن رايه فى مشكلة فلسطين .

فأجاب : ان الحل الحقيقى هو أن نأخذ فلسطين بجدودها الطبيعية، ويعيش داخلها العرب المسلمون والمسيحيون واليهود ، تعايشا سلميا ، حتى ولو اقتضى ذلك تجريد الجميع من السلاح ، ان التعايش السلمى قد يكون صعبا ولكنه اقل شرا .

ويقول الصحفى الانجليزى اننى انهيت المحادثة مع الرئيس بومدين بالكلام حول العلاقات الانجلو ــ جزائرية فأجاب الرئيس بومدين بانه ليس هناك مشاكل ، اذ أن التجارة الانجليزية تطورت فى الجزائر بقوة .

وحول مشكلة التمييز العنصرى واضطهاد البيض للسود ، واعتبارهم اقل منهم قيمة حتى فى مستوى الذكاء ، الى درجة أن بعض العلماء العنصريين يقولون

بأن الاختلاف والفروق بين البيض والسود ترجع الى عوامل « عرقية » اكثر منها عوامل « بيئية » .

وقد اهتمت المجلات الامريكية والصحف الانجليزية بهذه المشكلة ، وكتبت عدة مقالات تتناول الموضوع من جوانب مختلفة . فقد ظهر فى مجلة « ذو امريكان سوسيولوجيكال رفيو » فى العدد الرابع الصادر فى شهر أوت سنة ١٩٧١ مقالا اجتماعيا بقلم الاستاذ روبرت جيبو الاستاذ بجامعة « وسكونسن » بأمريكا ، تحت عنوان :

« التركيب الحضارى والفرق بين السود والبيض » فكتب هذا الاستاذ يقول بانه اجرى هذه التجربة على عدد كبير من السود الذين تم ادماجهم فى مدن الولايات المتحدة الامريكية ، وقبل ان يبين الاستاذ روبرت العوامل التى تؤثر فى عملية « التماثل » او الادماج هذه اوضح المعنى الذى يقصده من كلمة « تماثل » ، فهى تعنى مدى استعداد افراد الجنس الاسود لتقبل نفس الجزء من العمل الذى يقوم به افراد الجنس الابيض ، وتعتبر جميع ابعاده المختلفة آفاقا للتنظيم الاجتماعى والحضارى .

ويرى الاستاذ روبرت ان هناك عوامل كثيرة تؤثر فى « تماثل السود مع البيض ، وان هذه العوامل يؤثر بعضها ببعض بدرجات مختلفة، واهم هذه العوامل هى :

١ ــ الاقامة المحدودة : فهو يرى انه نظرا لاعتبارات كثيرة فان الاقامة المحدودة لها تاثير هام على جميع اشكال التمييز المختلفة ، وان القاعدة المنطقية تقول بأن البقعة المسكونة ذات نتائج على الابعاد المختلفة للتنظيم الحضارى ، ويستشهد براى الاستاذ « هاولى Hawley » الذى يقول بأن اقامة مجموعة من الناس وحدها فى منطقة منعزلة عن غيرها تشجع تمايز واختلاف الخصائص الثقافية وتزيد من ظهورها، بحيث تصبح هذه المجموعة هدفا سهلا للتفرقة التى من شأنها ان تنتج تمييزا كبيرا. وقد اثبتت بهر Bahr وجيبس Gibbs اثر الاقامة المحدودة فى زيادة التفرقة بين السود والبيض فى نواحى الدخل والتعليم والعمل .

٢ ــ نسبة عدد السكان السود : ولتوضيح العلاقة بين نسبة عدد السود والتمييز ثم اللجوء الى استعمال وسيلتين هما المنافسة والاستغلال . فيرى البيض ان تزايد السكان السود يشكل تهديدا منافسا لهم فى الوظيفة والدخل ، ولهذا فان ازدياد حجم السكان السود يزيد من امكانية استغلال البيض لهم ، وذلك لانه عندما يكون عددهم كبيرا فانهم يضطرون للعمل بأجور منخفضة فى وظائف لا يرغبها البيض .

وهناك أيضا النشاط الصناعى ، والمنطقة ، ومعدل زيادة السكان تعتبر عوامل مؤثرة فى التمييز بين البيض والسود .

وحول نفس الموضوع نشرت جريدة ديلى تلغراف « Daily Telegraph. » اللندنية فى اول نوفمبر ١٩٧١ مقالا للاستاذ « جون ازبيكى John Izbicki » تحت عنوان **« السود افضل من البيض فى التعلم بالطريقة الببغاوية »** . وقد كان هذا المقال قد نشر فى مجلة الابحاث التربوية ، للمعهد

الوطنى للابحاث التربوية ، بقلم الاستاذ آرثر جنس عالم النفس الامريكى بجامعة كالفورنيا . وقد كتب هذا العالم يقول : ان الزنوج ذوى الذكاء المنخفض افضل من البيض من نفس الذكاء فى التعلم الببغاوى اى التكرارى . وان هذا العالم المشهور بعنصريته لم يتراجع عن نظريته القديمة التى تقول بان فروق الذكاء بين السود والبيض هى فى الاصل فروق « عرقية » اكثر منها «بيئية» وهو يرى ان المدارس التى تريد المساواة فى فرص التعليم انما تخدع اطفال المجموعات الاقلية . وقد علق احدمدراء مدارس لندن الذى ربع تلاميذ مدرسته من المهاجرين على هذا المقال بقوله بأنه يمكن ان يخلق نظرية مزيفة وجد مخزية فى الاحترام العلمى ، ويمكن أن تخلق النتيجة نوع من مدارس « عفريتة التبطان » لجميع الملونين كما هو الحال فى الولايات المتحدة الامريكية .

وحول مشكلة دخول الصين الى هيئة الامم المتحدة : فقد احدث دخول الصين الشعبية الى هيئة الامم المتحدة ردود فعل عالمية مختلفة ، وكانت مدار الحديث بين رجال السياسة ومحور الكتابات فى المجلات والصحف العالمية ، وقد تناولت الصحافة الانجليزية هى الاخرى هذه المشكلة ، وهكذا فقد نشرت « جريدة الغاردن The Gardian اللندنية فى ۳۰ اكتوبر سنة ۱۹۷۱ مقالا للسيد جون الكسندر John Alexander نائب رئيس جمعية الامم المتحدة ، تحت عنوان « الصين ، الدولة اللعبة » قال فيه : لقد ترددت اقوال انفعالية عاطفية حول مسالة تغيير تمثيل الصين ، فى الامم المتحدة ، وتستند جميعها على ادعاءات غير صحيحة مرتبطة احيانا بالخوف من احتمال ظهور مشكلة مسبقة ، غير ان هذا تقويم خاطىء للنتائج السليمة .

ان المشكلة موجودة قبل انتوجد الامم المتحدة نفسها فمنذ الانتصار الشيوعى على ارض الصين الام ، من هو الذى سيمثل شرعيا دولة الصين (ليس تايوان وحدها ، او الصين الام وحدها ، ولكن الامة الصينية الواحدة) فى اسرة الامم المتحدة .

ان من الانصاف القول بأن هذا العمل هو المخرج الوحيد الذى اتفقت عليه الحكومتان المتنافستان (جمهورية الصين فى تايوان وجمهورية الصين الشعبية فى بكين) التى تطالب كل منهما بحق حكم امة الصين الواحدة . لقد حلت المشكلة لصالح جمهورية الصين الشعبية بعد عشرين سنة من سوء التمثيل ، ورغم الاجراءاتالهزلية والضغوط التى كانت تمارسها بعض الدول لا سيما الولايات المتحدة الامريكية وراء الكواليس لتثبيت وضع تايوان . ان حضور وفد بكين قد يسبب بعض المشاكل فى مجلس الامن وهيئات الامم المتحدةالاخرى خاصة بالنسبة لدول الغرب . ولكن بالنسبة لشديدى الشغف لهذا المارد المجهول (الصين الشعبية) والذين يشعرون أن الامم المتحدة يمكنها الآن ، والان فقط ان تبدا لتجعل من نفسها «أداة فعلية للسلام» على اساس العضوية العالمية — فان هذا العمل

خطوة ايجابية مرضية فى الاتجاه الصحيح ، ومن المؤكد انها جعلت الامم المتحدة مرآة حقيقية للعالم الحديث بتمثيلها ربع البشرية فى الامم المتحدة من قبل حكومتهم الفعلية مهما كانت ايديولوجيتها .

وعلى كل حال فقد ظهر بسبب هذا القرار مشكلتان لا تزالان بدون حل وهما : مستقبل تايوان ، والازمة المالية للامم المتحدة .

اما بالنسبة لمشكلة تايوان فاننى اعتقد انها ستحل نفسها بنفسها عند موت تشنغكاى شيك ، او باجراء استفتاء يقرر فيه شعب تايوان بحرية مصيره ، فاما أن يجدد علاقاته مع الصين الشعبية واما ان يبقى دولة منفصلة عنها .

اما مشكلة ضمان مالية الامم المتحدة فانها اكثر الحاحا . وبالرغم من التهديدات الامريكية بتخفيض مساهمتها فى ميزانية الامم المتحدة (شىء محزن) ، وخاصة انها تنبعث من فشل السياسة الامريكية ، فان هذه المساهمات القليلة فى هذه المسيرة الطويلة لايمكن اعتبارها غير مرغوب فيها، ذلك انه من الصعب جدا ان تعتمد الامم المتحدة الى درجة كبيرة فى الناحية المالية على عضو واحد (٣٣ ٪ من ميزانية الامم المتحدة ، و ٤٤ ٪ من ميزانية الوكالات المتخصصة) .

ولهذا فانه يجب على جميع اعضاء الامم المتحدة ، ان لا يولوا اهتمامهم فيما اذا كانت الامم المتحدة تنفق ميزانيتها بطريقة مفيدة فحسب ، بل ايضا (وهذا اكثر اهمية فى رايى) فيما اذا كانت هذه الميزانية كافية تماما لدفع اجور الوظائف المتعددة التى تطلب الدول الاعضاء ايجادها فى الامم المتحدة .

وفى مجال الطب والاختراعات الطبية ، كتبت مجلة نيوزويك الامريكية فى عددها الصادر يوم ٦ ديسمبر ١٩٧١ مقالا حول آخر الاختراعات التى تعمل على ازالة غموض مهنة الطب ، وجعلها فى متناول جميع الافراد . وكان المقال بعنوان « افحص نفسك بنفسك » .

اعتاد الناس ان يعتبروا الطب فنا غامضا ، لا يعلم اسراره الا الاشخاص الذين يحملون الحرفين السحريين د . ط (M.D.) بعد اسمائهم . غير ان هذا الخوف بدا يتلاشى شيئا فشيئا ، وبدا الالاف من ابناء الولايات المتحدة الامريكية يشترون (الصندوق ــ العداد) الذى يجعلهم قادرين على ان يجروا فى منازلهم الخاصة بعض الفحوص الطبية البسيطة مثل : تشخيص حالات الحمل ، وقياس ضغط الدم .

وفى الحقيقة فان جهاز « افحص نفسك بنفسك » يعتبر حاليا عملا ثوريا فى ميدان الطب ، حيث انه يستطيع على سبيل المثال قياس مستوى الجلوكوز بعد وجبات الاكل عند المصابين بمرض السكر .

ان كثيرا من الاطباء يوصون مرضاهم ذوى التاثر السريع باستعمال قربة بسيطة لقياس ضغط الدم ، غير ان الدكتور وليام باركلى رئيس الجمعية الطبية الامريكية يقول بأن الطبيب والمريض كانا يشتركان فى هذه العملية معا ، اما الان فان المريض يفحص نفسه بدون مساعدة الطبيب ، وليس هناك ما يوحى بوجود ضرر من جراء ذلك .

وافضل ما فى الامر هو ان المئات من اجهزة الفحص الذاتى هى الآن اما فى عداد

البيع ، واما فى طريقها الى المستودعات . ومن بين هذه الاجهزة :

١ — اوفا OVA III :
وهو جهاز اولي لفحص حالة الحمل ، وبناء على تعليمات مختبر فـردى فى مدينـة هلسايد، المتكلف بصناعته، فان الفحص يشتمل على : اضافة البول الى قارورتين فيهما مادتان كيماويتـان ، ثم يقارن لونى القارورتين ، ومنه يمكن معرفة مـا اذا كانت المراة حاملا ام لا . وقد اثبتت الفحوص التـى اجريت على ١٠٠٠ امراة ان جهاز اوفا ٢ مضبوط بنسبة ٩٦٫٥ بالمائة . وعلى اى حال فقـد اوصى مختبـر فردى زبائنه بعدم اجـراء الفحص الا بعد اخذ نصائح الطبيب .

٢ — سيرز Sears :
وهو جهاز لقياس ضغـط الدم . وتجرى العملية بأن يضع المريض قربة (وعاء مطاطى) حـول ذراعـه ويكينها جيدا ثم ينتظر ، وفى هذه الاثناء يلتقـط جهـاز مكرفون صغيرموجود داخل القربة ضربات ضغط الـدم ويسجلها الكترونيا . غير ان هـذه الاجهـزة ليست سهلة الاستعمال ، اذ انه لا يستطيع معرفة النتائـج الا طبيب ماهر متخصص .

٣ — جهـاز فحـص الاخصاب Fertility Testor
وهو جهاز من انتاج مخابر وستون بمدينة اوتـاوا ، وهو يبين فيما اذا كـانت المراة فى حالة الاخصاب . ويعتمد فى عمله على كون الجلوكوز يظهر فى المهبـل اما قبل عملية الاخصـاب (التبويض) مباشرة ، او اثناءها . ويتألف من شريط يتغير لونه بفعل الجلوكوز . ولاجراء الفحص تدخل المراة هذا الشريط فى مهبلها فاذا ظهر فيه اى اثـر للـون الازرق ، فان ذلك يعنـى ان المراة فى عادتها الشهرية حيث يمكنها ان تحمل .

٤ — اجهزة بابت — بيبت « Panette Pipette :
وهو جهاز يساعد عـلى تشخيـص واكتشـاف اضطراب الرحم . ويتالف من « واضع » يضع محلولا كيماويا فىمهبل المراة ، ومن « شفاط » يمتص المحلول بعد ان يكون قـد غسـل جميع خلايا المهبل ، ويرسل المحلول بعد ذلك الىالمختبر للفحـص . ان المزيـة الرئيسية لمثل هذه الفحوص والاجهزة انها سهلة جـدا للفهم والعمل ، وهذا مـا يسمح باستعمالها حتى من طرف الناس غير المتدربين . ولكن هذه البساطة نفسها هى التى اوجدت الخـوف عند كثير من الاطباء . فقد قال الدكتور دافيد فوركوش مدير مستشفى فوركوشى فى شيكاغو : « ان اجهزة باب سميرز رائعة ، ولكنها لا تخبرك ما فيه الكفاية عن بعض الاشيـاء التى يبحث عنها الطبيب عندما يجـرى فحصا داخليا على امراة . ومن الممكن ان توجد بعض الامراض التـى لا يمكـن تشخيصهـا الا بفحـوص ادق . »

ونفس هذا الانتقاد وجه الى جهاز قياسى الضغط ، فرغم ان ادوات سيرز تقيس كلا من ضغـط انقبـاض القلب ، وضغط تمدد القلب الا ان هناك اجهزة لا تقيس الا ضغط انقباض القلب . غير ان اخطر ما قد يواجه المريض هو امكانية اجراء تشخيص خاطىء للمـرض معتمدا بذلك على المعلومات التى حصل عليها من جهاز افحص نفسك بنفسـك . فمثلا فان نتيجة خاطئـة لعملية « فحص الحمـل » المنزلى، من الممكن ان تؤدى الى صدمة عاطفية ، ووقوع عملية اجهاض غير ضرورية

وحول هذه الاضرار المحتملة قال الدكتور باركلى : فى الايام التى سيصبح فيها الاطباء ، والفحوص الطبية غير مضرين ، فلن تكون هناك نتائج غير النصب والخداع . ولكن لسوء الحظ فان اخطاءنا فى التشخيص والعلاج قوية وخطيرة . وفى حالة الحصول على نتائج غير صحيحة فسيواجه المريض ازمة مالية وصحية .

ويقوم مكتب ادارة التغذية والتموين (FDA)) باعداد مشروع لتطوير بعض الاجراءات الجديدة لتنظيم عملية تدفق اجهزة الفحص الطبى الذاتى الى السوق . وقد قال الدكتور هنرى سيمونس مدير مكاتب ادارة التغذية والتموين : انه من المهم جدا ان نؤكد دقة وتعقيد هذه المخترعات البسيطة ، لانها تؤثر على الفحص وتوصل الى العلاج الصحيح .

ثم كتبت المجلة نفسها بعد هذا المقال مباشرة مقالا صغيرا بعنوان « فيتامين « س » موضوع حوار » .

واجه عالم الكيمياء الحيوية المستر لينوس بولنغ ، هجومات كثيرة من طرف الاطباء من جميع الانحاء عندما نادى فى الشتاء الماضى بوجوب استعمال كميات كبيرة من فيتامين « س » كوسيلة فعالة ضد البرد العام . واثبتت الانتقادات الموجه اليه بأن الدراسات التى اعتمد عليها فى تصريحاته حول فيتامين « س » تمت بدون مراقبته الشخصية ، ولم تكن كافية للاقناع . غير انه رغم انتقادات معظم الاطباء فان الملايين من سكان الولايات المتحدة الامريكية اخذوا بنصيحة بولنغ وبدأوا فى الحال يشترون فيتامين « س » .

والآن مع عودة البرد ، والانفلونزا ، اخذ الناس يستهلكون كميات كبيرة من فيتامين « س » حتى ان الصيادلة اعلنوا فى كثير من المناطق ان الطلب لفيتامين « س » مرتفع جدا الى درجة انهم اصبحوا يواجهون اضطرابات فى تخزينه .

وعلى كل حال ، فقد اجريت فى جامعة مارى لاندى دراسات حديثة على فيتامين « س » فاظهرت بعض الايضاحات الاكلينيكية المخالفة للنتائج التى توصل اليها بولنغ . ولكى يختبروا فعالية فيتامين « س » قام الدكتور شوارتز والدكتور ريتشارد هورنيك باجراء تجربة على مجموعتين من الاشخاص ، فقدموا لكل فرد من افراد المجموعة الاولى (احد عشر طالبا) مقدار ٣ غم فيتامين (س) يوميا ولمدة اسبوعين ، وقدموا لافراد المجموعة الثانية (عشر طلاب) اقراص بليسبوس

ثم بعد ذلك اعطى الاطباء جميع هؤلاء الاشخاص (٢١ طالبا) جرعات تحتوى على مائة جرثومة من الجراثيم التى تسبب البرد العام ، وتابعوا تناول فيتامين « سى » واقراص بليسبوس لمدة اسبوع اخر . ولكن بعد يوم او يومين من التطعيم بجرعات الجراثيم ظهرت علامات البرد على الاحدى والعشرين (٢١) شخصا ، منها سيلان المخاط من الانف وبحة الحنجرة ، والسعال . وصرح اطباء مارى لاند بأنه لم يظهر اى فرق فى شدة او مدة المرض بين الاشخاص الذين تناولوا فيتامين «س» والذين تناولوا اقراص بليسبوس .

وخلص الدكتور شوارتز والدكتور هورنيك من هذه التجربة بان فيتامين « س » ليس له فعالية ابدا ضد البرد . واضاف الدكتور

شوارتز بانه رغم هذا فان الناس الذين يعتقدون بأن فيتامين « س » يشفى ويزيل البرد ، سيتابعون استعماله دون الالتفات الى النتائج العلمية ، وخاصة ابناء الولايات المتحدة الذين تدوس متطلباتهم العاطفية جميع الحقائق العلمية .

وفى هذه الاثناء قام مكتب ادارة التغذية والتموين بتطبيق مراقبة صارمة على هوس (ولع) الناس بفيتامين وقد رفض فى الشهر الماضى مقدار تسعة ملايين قرص من اقراص فيتامين س .

واعلنت الوكالة باندهاش ان هذه هى المرة الرابعة عشرة التى يقدم فيها المكتب على مثل هذا العمل ، منذ شهر ماى الاخير وقد بلغ عدد الاقراص التى شملها الرفض ١٠٥ ملايين قرص . وقد كانت الاقراص التى شملها الرفض الاخير نوع من فيتامين « س » يدعى « اسكوربيت الصوديوم » . حيث انه رغم ان وجود الصوديوم مفيد لكثير من الناس ، الا انه مضر بالاشخاص المصابين بمرض القلب او بارتفاع ضغط الدم . وقد اثبت الدكتور رالف موما ان نبضات ضغط الدم عند الفئران تزداد بشكل ملحوظ عند اعطائها ويعتبر هذا الارتفاع فى نبضات الضغط احدى العوامل الرئيسية لمرض القلب وهذا اشد خطورة من البرد العام .

باري ماتش تشبه وباء الكوليرا الذى يجتاح العالم بجنود محمد الفاتحين

كتب ريمون كارتيى فى عدد باري ماتش الـ ١١٦١ بتاريخ ٧ غشت الحالى مقالا (ص ٢٦)تحت عنوان وباء الكوليرا يغزو افريقياويهدد العالم منطلقا من اندونيسيا . فساءنى ما قرأته لهذا الكاتب الفرنسى . قال : ان الكوليرا اكتشفت بمحض الصدفة سنة ١٩٠٥ اصيب بها حاج من مكة المكرمة . ولقد ترعرع داء الكوليرا فى اندونيسيا المسلمة ومن ثم انطلق سنة ١٩٦١ كانطلاقة جنود محمد (صلعم) الفاتحين . وبدا يغزو العالم دائما مثل جنود محمد الخ ..

حاول كارتين بهذا الطعن فينا تشبيه الفتح الاسلامى الذى وقف عند حدود جبال البرانس بداء الكوليرا الذى وصل الى عين المكان .

وانه لمن الحيف نترك مثل هذه المقالات الشنعاء تدخل بلادنا وتسمم عقول شبابنا ولايبالى بها البتة .

احمد والشانى عناية



(Dessin de Vasco)

حوار مع كلود ليفي ستراوس

نقله الى العربية : ابن عمار الصغير
اجرى الحديث : ريحون بلور
((لوموند دي ليفر)) ٧١ــ١١ــ٥
الملحق الثقافى لجريدة لوموند

يعتبر كتاب ((الانسان العارى)) لمؤلفه المعروف ((كلود ليفى ستراوس)) تتويجا لمجموعة من مؤلفات استغرقت سبعة اعوام دشنها بمؤلف تحت عنوان ((الفج والناضج)) . ولقد حاول ان يستخدم منهجا جديدا للتحليل الاسطورى من خلال الاساطير ((الامرانديه)) كما حاول فى نفس الوقت تطوير نظرية الفنون ، ونظرية الانسان مواصلا بذلك ما كان قد بداه فى مؤلفاته السابقة ، ومؤكدا فكرة اخلاقية انطلق فيها من وجهة نظر انثولوجية . هذه الفكرة الاخلاقية التى برزت الى الوجود موضحا الاسباب التى ادت الى ظهور هذا المنطق (المجهول) الا وهو التفكير المتوحش .

ان مجموعة الاساطير تشتمل على اربعة اجزاء هى :

الفج والناضج (١٩٦٤) ومن العسل الى الرماد (١٩٦٦) واصل عادات الاكل (١٩٦٨) واخيرا وفى هذا الخريف ظهر كتاب : الانسان العارى .

وتقييم هذا الانتاج لم يبدا الا مؤخرا . وهذا التقييم يخدم المؤرخين والانثولوجيين وعلماء اللسانيات والمناطقة كما يخدم فى نفس الوقت زيادة على تصنيف مجالات البحث عديدا من طرق المعرفة فى جميع ابعادها والتى يكون محورها الرئيسى : الاساطير ..

س ــ الفج والناضج عنوان اول كتاب من مجموعة الاساطير يبين كيفية انتقال الانسان من المرحلة الطبيعية الى المرحلة المدنية . وفى نفس الوقت وبواسطة تعارض قائم على ظاهرة وجود او عدم وجود عملية الطبخ .

واما الجزء الثانى من مجموعة الاساطير الذى يحمل عنوان ((العسل الى الرماد)) فهو تسجيل لتوابع ومتعلقات عملية الطبخ . والجزء الثالث من مجموعة الاساطير هو اصل عادات الاكل وهو فى الحقيقة ((ميلاد اخلاق)) .

فاين نضع الجزء الرابع والاخير من مجموعة الاساطير وهو الانسان العارى ؟ وهل يندرج فى سياق هذه المجموعة مع ان عنوانه يبدو لنا لاول وهلة غريبا ؟

ج – اعلم بأنه كان واضحا منذ البدء فى ذهنى بأنه ما دامت الكلمة الاولى هى «النيء» فالكلمة الاخيرة لابد ان تكون هى «العارى» فى الحقيقة هذا الاختيار كان وليد « مصاحبتى » للاساطير وتتبعها سواء فى أمريكا الاستوائية او فى اعماق أمريكا الجنوبية . لقد وجدت نفسى أمام مفارقة حيث ان نفس الاساطير تواجهنى حيثما حللت بل هى الاسطورة الوحيدة التى اجدها فى مناطق مختلفة من العالم الجديد . غير ان الاسطورة تأخذ اشكالا مختلفة وذلك من منطقة الى اخرى، بل من أسرة لسانية الى اخرى ومن معشر ثقافى الى آخر . واذا كان هذا التحول الذى يحدث مثلا لهنود أمريكا الاستوائية فان الانتقال من الحالة الطبيعية الى الحالة الثقافية (المدنية) يرمز بالانتقال من النيء الى الناضج (من عدم الطهى الى الطهى) فالرمز يختلف بالنسبة الى هنود أمريكا الشمالية اذ هو اكتشاف للملابس والزينة والازياء .. ويبلغ التبادل التجارى ...

س – فى كتابكم الثالث تقولون بانكم طورتم منطق العادات الحسية فى النيء والناضج اما فى كتابكم من العسل الى الرماد فقد كان اهتمامكم بالمنطق الشكلى لعادات الاكل والجلوس حول المائدة ... وسؤالى هو : كيف حدث الانتقال فى جميع المستويات والطريقة المتبعة والنتيجة التى وصلتم اليها فى الجزء الرابع ؟

ج – لنقل منذ البدء بأن منطق المستويات الثلاثة يظل ابدا قائما بالنسبة للاجزاء الاربعة ، وهذا الذى نلاحظه انما هو تطور ضمنى نلمسه فى سياق هذه المؤلفات جميعها ، وليس مجرد مراحل منفصلة بعضها عن بعض تبعا لهذه الاجزاء .

فى كتابى « النيء والناضج » حاولت ابراز الخصائص المادية الاولية التى كانت مهملة (التعارض بين النيء والناضج ، الطازج الطرى واليابس العالى والاسفل) والتى استخدمت فى التفكير الاسطورى كقطع للتوزيع ولكل قطعة منها دلالة منطقية خاصة بها

ومع تطور هذه الظواهر وتعقدها حاولت ادخال عناصر أسطورية جديدة حتى اتمكن من تحليل وفهم مستوى الاسطورة : موضوع البحث .

فالتعارض البسيط يرتفع ليترك المجال لتعارض قائم بين العلاقات الموجودة بين المفاهيم لا بين المفاهيم نفسها ، وهذا ما قمت به فعلا فى الجزء الثانى والثالث مؤكدا بأن المنطق فى هذه المرحلة اكثر مرونة وهو فى الوقت ذاته اشد تعقيدا .

اما فى الجزء الرابع فاننا نجد نفس الصور المنطقية الثلاثة تتطور ، والعنصر الذى افردت له اهتمامى الكبير هى العلاقة الانشائية المنطقية والتى لها حتميتها الخاصة وبنيتها الاساسية التقنية – الاقتصادية لهؤلاء السكان . فالتحول من الفجاجة ...... حتى العرى قد اهمل اصل المطبخ ولكنه يلح على انشاء التبادلات التجارية (مواد الاستهلاك ، الملابس ، الحلى وتبادل الزوجات) هذا الانشاء الذى يرمز الى الانتقال من الحالة الطبيعية الى الحالة المدنية . وهذا الانتقال يكون مستحيلا اذا لم يكن السكان مشتغلين بالفلاحة، على العكس من ذلك سكان امريكا الجنوبية (وقد تناولتهم بالدرس) الذين يشتغلون بصيد الاسماك والصيد البرى والالتقاط ويعوضون الاشغال الاخرى بممارسة النشاط التجارى . فلهؤلاء السكان الذين يقيمون اسواقا رئيسية واخرى ثانوية بين القبائل تارة وفى اطار قبيلة واحدة تارة أخرى ، حيث يتلاقى السكان المتجاورون أصدقاء واعداء ميزة حضارية هامة : هذه الميزة لا تكمن فى التعارض الموجود بين الانسان والحيوان (الانسان يأكل الناضج والحيوان يأكل غير الناضج) ولكن فى علاقة التعارض الموجودة بين الشعوب المختلفة من حيث وضعيتهم وقدراتهم التجارية التى تمكنهم من تنويع دليلهم الاقتصادى والذين يقتصرون فى معيشتهم على ما ينتجونه .

س – هل تعتقدون بان هذا المجال المغلق – نسبيا – الذى حددتموه للامريكيتين شيء ضرورى لمتابعة نوع التحليل الذى

اخترتموه ؟ وهل تستطيعون فى هذا المجال اجراء بحث محدد ودقيق حول كل واحدة منهما ؟

ج — بديهى أنه ليس الطريق الوحيد الممكن بالنسبة الى . غير انى لا اعتقد بأننى سأصل الى نتيجة مماثلة اذا قمت بفصل البحث واستعمال طرق مختلفة بالنسبة للمنطقتين . لقد واجهت عراقيل أثناء البحث لتاليف كتاب « أصل عادات الاكل » وذلك لان الاساطير الموجودة فى أمريكا الجنوبية هى أقل غنى من الاساطير الموجودة بأمريكا الشمالية (ان هذا الفارق ليس فارقا جوهريا بل راجع الى ان الاهتمام كان اكثر بالمنطقة الاولى) لقد لاحظت أن المنطقة مفتقرة الى بعض « العوامل » الموجودة بالمنطقة الشمالية ومن ذلك لقد اضطررت الى هذا النوع من الدراسة (مزج الاساطير لمتابعة البحث) .

ان الطريقة التى اتبعتها مكنتنى من بلوغ غايتى وذلك باستعمال كل الاساطير من أى منطقة لمتابعة التحليل وهو الشرط الوحيد الذى يدخل فى ميدان البحث العامل البشرى . ان هذه تمكننى من استخلاص العامل المشترك بينها وهذا ما حاولت ابرازه فى الجزء الرابع والطريقة المميزة للطهى لكل شعب — وقد مكننى هذا من ناحية أخرى التعرف اكثر على هوية الاسطورة سواء فى الشمال الغربى لامريكا الشمالية أو وسط أمريكا الجنوبية .... وباختصار أقول بأن اكتشافى للاختلافات الموجودة من منطقة الى اخرى راجع الى توسيع ميدان المقارنة

بيوغرافية

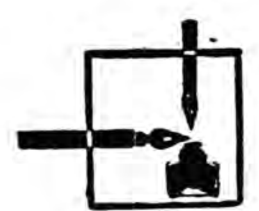
- ١٩٠٨ — ميلاد كلود ليفى ستروس بمدينةبروكسال (بلجيكا) من أبوينفرنسيين
- ١٩٣١ — نجاحه فى شهادة التبريز فىالفلسفة بعد دراسة فى ثانويةجانسون دى سالى وجامعة السربون .
- ١٩٣٥ — أستاذ بالبرازيل وساوباولو ويشرفعلى البعثات الى ماتوغروسوبالامزون .
- ١٩٣٩ — يعود الى فرنسا — يجند —
- ١٩٤٠ — تعزله حكومة فيشى
- ١٩٤١ — يهاجر الى الولايات المتحدة .يدرس بجامعة نيوشكول فورسوسيال وسارش ثم بالمدرسة الحرة للدراسات العليا بنيورك.
- ١٩٤٦ — مستشارا ثقافيا بالسفارة
- ١٩٤٧ — يعين نائب مدير متحف الانسان
- ١٩٥٠ — مدير الدراسات بالمدرسة التطبيقيةللدراسات العليا
- ١٩٥٩ — ينتخب بالكوليج دى فرانس حيثيشرف على مخبر الانتربولوجياالاجتماعية

بيليوغرافية

- ١٩٤٩ — البنيات الاولية للاسرة (المطبعةالجامعية الفرنسية)
- ١٩٥٢ — عرق وتاريخ (اليونسكو)
- ١٩٥٨ — الانتربولوجية البنياوية (بلون)
- ١٩٦٣ — أ) الطوطمية اليوم (المطبعةالجامعية الفرنسية)
  ب) التفكير المتوحش (بلون)
- ١٩٦٤ — من العسل الى الرماد (بلون)
- ١٩٦٦ — الفج والناضج (بلون)
- ١٩٦٧ — البنيات الاولية للاسرة (طبعةمنقحة موتون وشركاه باريس)
- ١٩٦٨ — أصل عادات الاكل (بلون)
- ١٩٧١ — الانسان العارى (بلون)

(أن هذه البيليوغرافية لا تشتملعلى المقالات العديدة)

ندوة القراء



اعداد : بهية عمراني

نوجه « الندوة » عناية السادة القراء الى ان انتظام ظهورها فى الصفحات الاخيرة من المجلة يبدو امرا قريب الاحتمال ، اذ ان هناك عددا من الرسائل التى ترد الى المجلة والتى يتعدى مضمونها مجرد التحية وعلى هذا فالمرجو من كتاب « الندوة » مراعاة ارسال الاراء والتعليقات فى موعد يناسب صدور العدد الذى يتوقع او يطلب صاحب الرسالة نشرها فيه .

تلقينا هذه الرسالة من الاستاذ دنس ووتر المحاضر فى دائرة : دراسات الشرق الاوسط ـ جامعة ملبورن باستراليا

ونحن اذ نشكره على الكلمات الودية التى ضمنها فى رسالته ، وننوه بالجهود العلمية التى يبذلها للتعريف بالجزائر وبالتراث الاسلامى عامة ، نرحب بكل مقال يبعثه الينا ، وسننشره فى المجلة.

المحرر

السيد رئيس تحرير مجلة الاصالة

سيدى المحترم

تحية اسلامية طيبة وبعد

فى هذا اليوم استلمت اول عدد من مجلتكم الغراء ، فشكرا على ذلك .

انى قد نظرت فيها نظرا متسرعا فوجدتها جيدة ، عالية المستوى والمضمون ، وانها تلقى انوارا ثاقبة على الجزائر المستقلة ـ تلك البلاد العزيزة على كل مسلم وكل من يناضل فى العالم الثالث فى سبيل التحرر والمساواة

« انى محاضر فى دائرة دراسات الشرق الاوسط جامعة ملبورن استراليا . محاضرتى فى مادتين ـ « **الاسلام اليوم** » و « **انظمة الاسلام الاجتماعية** » . ففى مادة « الاسلام اليوم » احاول عرض تاريخ البلدان الاسلامية الحديث على تلامذتى الاستراليين واعطاءهم صورة مباشرة اى وجدانية عن مقاومة المسلمين للاستعمار الغربى ، ونضالهم فى سبيل التحرر ، وآمالهم ومشاكلهم فى عهد ما بعد الاستقلال ، فمنذ اسبوع فقط القيت محاضرة مستفيضة تحت عنوان « **ولادة القومية العربية فى الجزائر بعد الحرب العالمية الاولى** » التى تناولت فيها اعمال عبد الحميد بن باديس فى بعث العربية وقيم العروبة والاسلام مرة اخرى فى ابناء الوطن مقاومة لمشاريع الادماج الاثمة واضطهاد واستغلال المستعمرين والمستوطنين « انى الان انشر مقالتى هذه فى صحيفة طلابية استرالية ، وسارسل نسخة اليكم ان شاء الله .

اسالكم ان تتكرموا بطبع رسالتى هذه فى مجلتكم كى يعرف القراء الجزائريون مستوى الدراسات حول بلادهم فى استرالية . وارجوكم ان تمضوا فى ارسال مجلتكم الى ، وان شاء الله سابعث بمقالات عربية لعلكم تنشرونها .

كلمتى الى مجلة « الاصالة »

....وهذه رسالة من الاستاذ محمد ولد باباه الذى عين اخيرا وزيرا للتعليم العالى لجمهورية موريطانيا والذى شارك فى المؤتمر الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى بوهران بصفته ممثلا لموريطانيا

اننى ، عندما أراجع نفسى وأحاول استحضار ما رأيته وسمعته فى « الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى » ، ارانى عاجزا كل العجز عن ترتيب أفكارى وتسديد انطباعاتى ذلك اننى ما زلت فى نشوة الغبطة والاعتزاز والاعجاب .

والحقيقة ان حشدا فكريا كالذى شاهدته فى « وهران » لا يمكن لانسان أن يستوعبه ولا يستطيع أن يحكم عليه الا بعد المراجعة الدقيقة والتامل الطويل .

غير أن هناك اشياء استرعت انتباهى ، قد تكون بديهية لدى البعض ، وقد تكون سطحية بالنسبة للذين سبق لهم أن شاركوا فى الملتقيات الماضية، بينما انا اراها بالغة الاهمية :

منها دقة التنظيم وحسن ترتيب العمل والتحكم فى الزمن ، بغض النظر عن حسن الضيافة وتوفير وسائل الراحة للجميع ، ومنها أيضا حرية المناقشة وصراحتها وموضوعيتها ، فى اتجاه نقدى وأسلوب علمى ، كل ذلك فى جو ودى يهيمن عليه الجد والوقار .

وملاحظة اخرى أرى من واجبى ان اسجلها فى حق الطلبة والطالبات المشاركين فى الملتقى، ان قوة انتباههم وانضباطهم ومحافظتهم على النظام وسلوكهم القيم لا يتأتى لكثير من شباب اليوم . ودهشت لما رايت فيهم من تعطش للمعرفة ، ودقة فى الملاحظة ، ونضج فى التفكير وتكامل فى الشخصية واقدام على الخوض الواعى فى دقائق العلوم وتفهم لاوضاع أمتهم ، واستطيع ان اقول ، بحكم التجربة والممارسة ، ان هذه الخصائص يتميزون بها عن زملائهم الذين لم يتشبعوا بالثقافة الاسلامية وهذا استنتاج خطير يلفت الانظار

أما أبعاد الملتقى فهى بالغة الاهمية بالنسبة للجزائر والعالم الاسلامى بأسره ، ان اقتراحات الملتقى وتوصياته ستكون لها نتائج محمودة واصداء بعيدة المدى .

لكن الملتقى فى ذاته هو تحدى لتحديات عديدة كنا وما زلنا هدفا لها نحن المسلمين، تغزونا فى عقر دارنا وتهتك حرمنا . وكان لابد من التصدى لها والرد عليها بحجج العقل وادلة المنطق ، وجاء الملتقى شافيا كافيا فى هذا المضمار . واستهدف الملتقى شيئا آخر أهم فى نظرى من الرد على التحديات الموجهة الينا ، الا وهو ابراز حقيقة اكيدة لابد من الايمان بها والعمل على اساسها، وهى أن بناء مجتمع عربى اسلامى جديد منوط بربط ماضيه بحاضره والاعتماد على مقوماته الجوهرية : دين الاسلام والثقافة العربية .

واكد الملتقى علميا ان فى الاسلام الصحيح ، دينا وشريعة ، من المبادىء السامية والقواعد التشريعية المرنة ، ما يبرر اى اجراء ، سياسى كان أو اجتماعى او اقتصادى ، اذا كان هذا الاجراء يهدف الى بناء مجتمع متكامل تسوده المساواة والتعاضد وينعم بالحرية والكرامة ، يكفى دليلا على ذلك نظام الاسرة الجزائرى والاصلاح الزراعى . وبهذا يكون الملتقى أبرز حقيقة جليلة طال ما طغت عليها الشبهات الباطلة والاراء المغرضة القائلة بأن الاسلام جامد وعاجز عن مسايرة متطلبات العصر . والبحوث العلمية التى استمعنا اليها وناقشناها بحرية، تناولت جميع مشاكل العصر ، اخطرها وادقها ، واستعرضت جميع الحلول المحتملة لها ، فكان الاسلام اقوم مسلك وانجع طريق لاثارة تلك المشاكل والبت فيها على الصواب الاقوم . وبرهنت البحوث كذلك على ان اللغة العربية تستجيب بكل طواعية وسلاسة ومرونة لمتطلبات العصر فى أدق مفاهيمها ، سواء كانت علمية أو فلسفية او وجدانية

فالملتقى اذن كان ملتقى الاصالة الصميمة وملتقى الثورة باكمل واسمى معانيها . ان العودة الى منبع الاسلام الصحيح والانطلاق منه الى نور العلم والاخذ بأسباب الحضارة هو المنهج الذى شرعه ملتقى « وهران » للامة العربية الاسلامية ، عساها أن تسلك هذا الطريق بخطى ثابتة وقلب مؤمن وعزم صارم .

محمد ولد باباه

ذكرى كارثة المسجد الاقضى وفلسطين

من شعر .. « ابى الحسن على »استاذ بتكميلية ابن عمر ــ القبة

على المسجد الاقصى اعتدى اليوم غادر — وأضرم فيه النار باغ وماكر
حريق ويا للهول شب أواره — فخرت على جمر الغضاة منابر
تداعت له الاركان والسقف قد هوى — فشقت لهول الاعتداء المرائر
حريق أباد اليوم وجه حضارة — يباهى بها تاريخنا ويفاخر
فيا لك من حسناء راحت ضحية — على شلوها قامت تنوح المنائر
بغى وطغى صهيون طغيانه الذى — تعوده من قبل وهو مفاخر
على مسمع الدنيا ومرأى شعوبها اسـ — تباح حمى الاسلام والسلم فاجر
وراحت عصابات اليهود تهين ما — تقدسه الاديان باد وحاضر
االسنة النيران تمتد فى الفضا — وموشى قرير العين بالعرب ساخر!
فبات على جمر الغضا كل مسلم — ونامت بأحلام المسرات مايـر
سلوا سنوات الاحتلال التى مضت — بأرزائها ، والجد بالعرب عاثر
سلو دير ياسين الذى شهد البلا — وقد عملت فيه المدى والخناجر
أما ذبحت أطفاله ونساؤه — وشبابه حتى الشيوخ الاكابر
سلو فى خيام اللاجئين طوائفا — من التعسا ، اين الصديق المناصر!
فكم من شكاوى سجلت بذبوحهم — وكم نشرت للاحتجاج دفاتر
نكلت بسجيل الشكاوى مطابع — وبحت برفع الاحتجاج حناجر
سلو خامسا من شهر يونيو وما جرى — أليس لديه للجواب مصادر !
أما ملئت بالابرياء شجونهم — وضاقت بأشلاء الضحايا مقابر !
ففى كل يوم نكبة ورزية — وفى كل شبر بالدماء مزاجر
وصهيون وسينا وجولان عابث — وفى القدس مختال وناه وآمر
فلا عجب أن أحرقوا اليوم مسجدا — أليس لديهم تستباح المناكر !
ألم يقتلوا رسلا كراما وما ارعووا — وهل ترعوى عن غيهن الفواجر !